كتب خالدة لاينساها التاريخ

تأليف

روبرت ب داونز

ترجمة

أحمد حمدي

تقديم ومراجعة

د. رشاد عبد المنعم

الكتاب: كتب خالدة لاينساها التاريخ

الكاتب: روبرت ب داونز

ترجمة : أحمد حمدي

تقديم ومراجعة : د. رشاد عبد المنعم

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

داونز ، روبرت ب
كتب خالدة لاينساها التاريخ / روبرت ب داونز، ترجمة : أحمد حمدي، تقديم ومراجعة : د. رشاد عبد المنعم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٩٦ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٩٣٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٥٨٤ / ٢٠١٩

كتب خالدة لاينساها التاريخ





تقديم

أشارت الدراسات أنَّ قراءة الكتب تُساعد على الحفاظ على العقل سليماً وصحياً وتحميه من الإصابة بمرض ألزهايمر، حيثُ أنَّ القراءة تعمل على تمرين عضلة العقل للحفاظ على صحته وقوته، كما إنَّ لقراءة الكتب فوائد لا تُعد ولا تُحصى منها أن قراءة الكتب مُبهجةٌ للنفس مُغذيةٌ للعلم والروح والعقل؛ كما إنها تعمل علي إذابة الحدود بما فيها الزمان والمكان، فيُخيَّل لقارئ الكتب أنَّه مع أحداث الكتاب بشتى مراحله؛ هذا بجانب اكتساب الخبرة من قراءة الكتب التي ليس لها مثيل من المعرفة والنصيحة والتوجيه والإرشاد؛ هذا مع الغوص في الماضي وتخيُّل المستقبل ومواكبة الحاضر، مع الانتقال من عالمنا المحدود إلى عالم آخر مُختلف الغاية وواسع الأفق.. أما عن العمل بالقراءة وما جاء فيها فإنها تُحقق سعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.

قراءة الكتب وتطوير المهارات تؤدي إلى التَّعرف على مُفردات جديدة تؤثر في نهاية المطاف على مفردات الإنسان اللغوية، مما سيؤثر على زيادة الثقة بالنفس، والقراءة تحفظ الوقت من ضياعه في الانشغال بما ليس به فائدة؛ كما أنَّ القراءة تُنير الفكر وتُنمي العقل وتُضيف القُدرة على حل المُشكلات.

كما أن هناك العديد من الكتب التي كان لها أثر كبير ومدو على الإنسانية جمعاً حتى إن أثرها تخطى حاجز الدول بل وحاجز القارات نفسها.. وهناك عدد من الكتب التي يُعتقد أنها أفضل كُتب صدرت خلال القرون الماضية، وما بين يديك هو كتاب مهم قام صاحبه بقراءة آلاف الكتب لينتقي منها أفضل الكتب التي غيَّرت حياة من قرأوها لأنها أحدثت صدى عميقا في نفس البشرية؛ فهو كتاب مهم في مادته لأنه يُلقي الضوء على عدد كبير من الكُتب القيمة التي غيرت وجه التاريخ؛ كما أنه يستعرض كُل كتاب ويختصره في عدد من الصفحات التي تستوفي فكرة الكتاب كاملة، كما يتحدث عن الأثر الذي تركه هذا الكتاب على الناس..

د. رشاد عبد المنعم

مقدمة المترجم

صدر المؤلف كتابه بمقدمة مستفيضة تعد – من حيث موضوعها – قطعة فريدة من البحث القيم في قوة الكلمة المكتوبة وتأثيرها البالغ في تحويل مجرى الفكر الإنساني وتغييره وتشكيل تاريخ الإنسانية جمعاء، فاختار للتدليل على وجهة نظره ستة عشر كتابا من أمهات الكتب العالمية التي غيرت وجه العالم بسبب الآراء والنظريات والمبادئ، التي انطوت عليها فاعتنقها الناس وتأثروا بها في تفكيرهم وسلوكهم وأعمالهم.

وتشمل المقدمة عرضا شائقا للقواعد التي اتبعت في اختيار تلك الكتب، ومقارنات بينها وبين ما اتبعه فريق آخر من الكتاب والأدباء والفلاسفة، وهي في حد ذاتها مناقشة قيمة تعطي – عدا الدقة والعناية التي بذلت في انتقاء تلك الكتب التي لخصها المؤلف – تلخيصا ممتعا مشبعا فضلا عما جاء خلال تلك المقدمة من ذكر لعشرات الكتب ذات الشهرة العالمية يحرص كل مثقف على الإلمام بها.

وقد انتهج الكاتب في الاختيار ثلاثة شروط إذ استبعد أولا الكتب السماوية والدينية، ثم حصر الاختيار في فترة معينة من الزمن تمتد أربعة قرون من عصر النهضة الأوروبية حتى القرن العشرين، والشرط الأخير أن

يكون الكتاب قد أحدث تأثيرا عالميا وتخطى حدود وطنه، وانتشرت مبادؤه بين أمم أخرى. فاقتصر الاختيار بذلك على كتب العلوم، والعلوم الاجتماعية والسياسية التي فتحت آفاقا جديدة أمام نشاط العقل البشري، واتبع في تلخيصها منهجا أبرز به الفكرة الأساسية التي يدور حولها الكتاب، ثم الظروف والأحوال التي أحاطت بتأليفه، ثم آراء النقاد المعاصرين للكتاب وتعليقات الصحف والمجلات عليه، ثم مكانة الكاتب والكتاب في عصرنا الحالي. وقد حرص المؤلف في كل منها أن يعرض درجة حياة صاحب الكتاب، واهتم فيها بأمرين: هما النشأة الأولى، والقدر الذي حصل عليه من التربية والثقافة، واستخلص منهما صورة حية جذابة لشخصية المؤلف والظروف التي كونت مقومات تلك الشخصية وشكلتها بالشكل الذي تأثر به العالم.

والحقيقة الملموسة في الكتاب أن الكاتب قد استعرض ست عشرة فكرة أودعها مؤلفو تلك الكتب كتبهم، وكلها كانت آراءً جديدة على الناس في زمانهم هدمت كل قديم قبلها ثم أقامته على أسس جديدة لا تزال آثارها باقية راسية إلى يومنا، يدين بها أو ببعضها الجنس البشري ويطبقها في شئون دنياه، وأصبح العقل الإنساني بفضلها أكثر مرونة، وأوسع أفقا، وأقل تعصبا للقديم وأكثر تقبلا للجديد.

ويسترعي انتباهنا من هذه الأفكار ثلاث، أحدثت أخطر الثورات والانقلابات في المحيطين السياسي والاجتماعي لبني الإنسان، فقد حرر (توماس بين) أمريكا وخلق الولايات المتحدة الأمريكية فدق بذلك أول

مسمار في نعش الإمبراطورية البريطانية وهي في أوج مجدها، وعلم الناس فيما وراء البحار كيف يكون النضال عن حريتهم السياسية والتحرر من ربقة الاستعمار. ثم جاءت السيدة (آستو) فناضلت هي الأخرى نضال المجاهدين لتحرير الرقيق في أمريكا والقضاء على استعباد الإنسان لأخيه الإنسان فأثارها حربا أهلية شعواء كادت تطيح بالأمة الأمريكية، ولكنها انتهت بأعظم انتصار أحرزته الإنسانية على الرق في تاريخ البشرية، وفي الوقت الذي كانت تلك السيدة تكتب قصتها عكف شاب هادي، الطبع في ركن بعيد وفي عزلة عن الناس يكتب مقالا صغيرا لم يهتم به أحد عند نشره، رغم أنه حوى أخطر ما عرف في التاريخ من المبادئ الثورية التي تحفز على عصيان القوانين الجائرة التي لا تتفق مع العدالة، وصارح فيه الناس بأنه وجد الحرية في بساطة العيش والتحرر من سيطرة الحكومة بالتخلص من روابط المدنية. وظلت آراؤه كامنة كأنها قنبلة زمنية قرابة نصف قرن، واذا بها تنفجر فجأة في جنوب إفريقيا ثم في الهند فتزلزل المستعمر واستعماره وتتحرر بفضلها أمم بأكملها عندما اعتنقها غاندي وأعلن حركة العصيان المدني.

وسوف تظل هذه الكتب الثلاثة تفعل فعلها في مقادير الإنسانية وتأتي بالمعجزات ما دامت هناك شعوب لم تتحرر بعد كلها، وما دام هناك رقيق لم يتحرر كله وما دام في العالم استعمار يهدد كيان البشرية.

أما في ميدان العلوم فقد توالت الكشوف التي نقضت النظريات القديمة وقلبت الأوضاع القائمة، فزعزعت احترام الناس وإيمانهم بالقديم

والقدماء، وقد لقي جمهرة من العلماء حتفهم في سبيل الجهر بآرائهم على يد الكنيسة التي ناهضت كل جديد بحجة مخالفته للدين. والحقيقة أن الكنيسة كانت تدافع عن كيانها وسلطانها بسبب موجة الإلحاد التي هددت العالم المسيحي منذ النهضة الأوروبية وظهور الحركة الإنسانية وما صحبها من الزندقة والتغالي فيها.

ولعل أهم ما يلفت النظر في ميدان العلوم والعلوم الاجتماعية قبيل نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ثالوث من عباقرة العقل الإنساني وهم: كارل ماركس الذي بعث الأمل في صدور البائعين والمكدودين في حياة سعيدة مستقبلة وصوّر لهم جنة على هذه الأرض حيث النعيم المقيم، ثم فرويد الذي كشف عن مجاهل العقل الإنساني، وأرسى قواعد علم النفس الحديث، وأعطى الملايين من المرضى أملا في التخلص من أدوائهم الفنية المستعصية. ويجئ آينشتاين فيتم هذا الثالوث بكشفه عن الطاقة النووية وهي سر من أعمق أسرار الطبيعة وقواها، ومهما يكن من بشاعة قوتها التي تهدد الإنسان وحضارته فإن عوامل الخير الكامنة في طبيعة البشر لا بد أن توجهها يوما ما لخيرها. هؤلاء حقا قد قلبوا الأوضاع في التفكير وغيروا وجه العالم تغييرا كاملا شاملا.

وسيلحظ القارئ عند الانتهاء من قراءة هذا الكتاب أن اتجاه النزعات السياسية والاجتماعية تسير جنبا إلى جنب مع اتجاه الآراء والنظريات العلمية، وبرغم أنهما يعملان في ميدانين مختلفين الا أن هنالك غاية واحدة تربط بعضهما ببعض في تحرير الجنس البشري من أوهام

الماضي وتحطيم الأغلال التي عانت العقل عن التقدم والانطلاق الحر طوال الأزمان الماضية، وستظل تلك الدوافع التحررية تحفز الإنسان إلى السعي وراء الكمال طالما بقي الجنس البشري على كوكبه.

ومن هنا تحول تيار الفكر الإنساني بأجمعه إلى الثقة بقوة العلم الذي سار بالإنسان نحو التقدم بخطوات جبارة متلاحقة بما كشفه من أسرار الطبيعة والقوى الكامنة فيها، وأعظم من ذلك إيمان البشرية بقدرة العقل الإنساني، وبأنه لا حدود لإمكانياته وقدراته في التغلب على ما استغلق من أسرار الكون، وبه تتعلق آمال الجنس البشري اليوم كي يحيا حياة أفضل في المستقبل.

واذا صحت نظرية التطور وافتراضات الجيولوجيين فالعقل الإنساني ما يزال في طفولته وأن أمامه مرحلة طويلة من التطور حتى يصل إلى النضج والمثالية التي ينشدها الإنسان.

وقد ذيل هذا الكتاب بثلاث مقالات عن جمهورية أفلاطون والكوميديا الإلهية لدانتي ومسرحيات شكسبير، اقتطفت كلها من كتاب (كتب هزت مشاعر العالم) للكاتب هوراس شيب. عرض فيها للموضوعات التي طرقها أفلاطون وهو ينشئ مجتمعه الفاضل في مدينته المثالية (الجمهورية) والتي لا تزال بعد مضي خمسة وعشرين قرنا منبع إلهام لأعلام الكتاب إلى عصرنا. وفي المقالين الأخيرين عن: دانتي وشكسبير أبرز الكاتب عظم رسالة الأدباء والشعراء بين الجنس البشري قاطبة،

وتأثيرهم العميق في سلوكه ومقاديره، لأنهم اتخذوا من الحياة الإنسانية مادة لكتاباتهم فصوروها أصدق تصوير هذا الصدق في التصوير جعلهم ينفذون إلى قلوب قرائهم فتركت آراؤهم في نفوسهم إحساسا جديدا بالحياة وخلفت فيهم مشاعر سامية لم يستشعروها من قبل.

ومن هنا ندرك أن الكلمة المكتوبة شيء خالد على مر الزمن، بينما تفنى الأشخاص والأشياء والآثار، لأن تصورات العقل الإنساني ومعارفه تتخطى الزمن لما يكمن فيها من الحيوية والقوة التي تجعلها تتجدد وتواصل الحياة. وإذن فليست الكتب أشياء جامدة بل هي أشياء، حية لأنها تتكاثر وتنمو وتنضج وتنثر بذورها في العقول فتحركها وتدفعها إلى النشاط والتفكير والتقدم في اتصال مستمر من جيل إلى جيل دون توقف.

وهي "أشبه بالسفن التي تحمل السلع من بلد إلى بلد فتربط أقاصي بقاع المعمورة بعضها ببعض فيتقاسم الجميع ثمار كل أرض، وكذلك الأفكار فإنها تعبر بحار الزمن وتجعل حكمة العصور الخالية ومخترعاتها ومعارفها مهما تقادم بها الزمن ملكا مشاعا مستساغا بين جميع الأمم"

***

بينما كان هذا الكتاب في طور الإعداد احتفل في إنجلترا في ٣ يونيه ١٩٥٧ بمرور ثلاثمائة عام على وفاة الطبيب (وليم هارفي) صاحب كتاب الدورة الدموية (وهو صاحب أحد الستة عشر كتابا) وأشادت صحف إنجلترا بفضله على الطب، وانفردت جريدة التيمس بنشر خطاب للدكتور

ج، د. تام الأستاذ بجامعة مانشستر، ومن المشتغلين بالدراسات العربية وبخاصة تاريخ الطب عند العرب لفت فيه النظر إلى أن أول من وصف الدورة الدموية وصفا دقيقا وقال بأن عملية تنقية الدم تحدث في الرئتين بسبب اختلاطه بالهواء الخارجي عند التنفس (وهذا ما عجز عن تفسيره هارفى ص ٢٥٣) هو الطبيب العربي (ابن النفيس) الذي اكتشفت كتبه مصادفة في أواخر الثلث الأول من القرن الحالي. كما نبه بأنه لا يحسن أن نسلم جدلا بأن الأوربيين هم أسبق الأمم إلى الكشوف الطبية العظمى.

وقد رجعنا إلى كتاب معجم الأطباء للمرحوم الدكتور أحمد عيسى فوجدنا به سيرة مستفيضة (لابن النفيس) استقاها من عدة مصادر قديمة فاقتبسنا منها ما يلي: هو علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس.. كان إماما في علم الطب واشتغل به على كبر، وله فيه التصانيف الغالية والتآليف الرائعة، منها: كتاب "الشامل في الطب" في ثلاثمائة صفحة، وكتاب "المهذب في الكحل" و"شرح القانون لابن سينا" وغير ذلك، وهي الآن وقف بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة. كما أن له مشاركة في الفقه والمنطق، وعليه وعلى العماد النابلسي تخرج الأطباء مصر والقاهرة، وابتنى دارا بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى أبوابها. ولم يكن متزوجا؛ وقف داره ومكتبته على البيمارستان الذي أنشأه السلطان قلاوون عام ٦٨٤ هـ. وكان يغض من كلام جالينوس ويخطئه هو وابن سينا، وله كتاب "فاضل بن ناطق" عارض به كتاب حي بن يقظان. ومن تلاميذه السديد الدمياطي الحكيم، ومن الطريف أنه ألف مقاله عن النبض أثناء وجوده في حمام بباب الزهومة بالقاهرة، إذ كان في بعض تغسيله

فخرج إلى مسلخ الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق وأخذ في تصنيف مقاله في النبض إلى أن أنهاه، ثم عاد ودخل الحمام وأكمل تغسيله، ويروى عنه أنه قال "لو لم أعلم أن تصانيف تبقى عشرة آلاف سنة ما وضعتها" كما شرح كتب "أبقراط" ويفضله. وتوفي عام ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ – ٨٩م) عن ثمانين عاما ودفن بالقاهرة.

ولو أن القارئ دقق النظر في حياة ابن النفيس وهارفي لوجد أوجها للمقارنة بينهما.

صادق حمدي

مقدمة المؤلف

كثيرا ما توهم الناس أن الكتب ليست الا أدوات جوفاء صماء لا يخشى منها خطر لأن مكانها في خزائن السبع وأروقة الدورة الظليلة حيث يكتنفها سكون الدرس وهدوء العلم، أو في مكتبات الجامعات أو سواها من البقاع المنقطعة عن دنيا الناس، تلك الدنيا المادية الآثمة. وكان من أثر ذلك التوهم أن ساد الاعتقاد بأن الكتب لا تحوي غير الآراء النظرية التي لا يمكن إخراجها إلى حيز العمل، ولهذا لا يكاد ينتفع بها أي رجل مجرب من رجال الأعمال الصارمين. بينما نرى الرجل الفطري في أدغال الغاب ينحني في خشوع أمام الكلمة المكتوبة لاعتقاده بقوتها الخارقة.

ولقد أقام التاريخ – مرارا وتكرارا – الدليل على أن الكتب ليست كما يظن في تفاهتها وانعدام تأثيرها. بل أثبت – على النقيض – أنها تنطوي على قوة هائلة وأنها مخلوقات ذات حيوية عظيمة قادرة على تحويل مجرى التاريخ تحويلا تاما، وأنها توجه إلى الخير أحيانا أو إلى الشر أخرى.

وأدرك المستبدون في كل عصر بثاقب فكرهم تلك القوة الكامنة في الكتب؛ فقد عمد هؤلاء في كل زمان ومكان عند القضاء على المعارضة

وآرائها أن يتجهوا أولا وقبل كل شيء دون استثناء إلى إعدام الكتب التي تروج مبادئ تناهض مبادئهم، بل قد يتعدى ذلك أحيانا إلى التخلص من مؤلفيها! ونراهم – على نقيض ذلك – يستغلون بعض الكتب المعينة على إحكام سيطرتهم على الشعب، كما فعل هتلر في كتابه (كفاحي) وكارل ماركس في كتاب (رأس المال) ولينين وستالين بكتاباتهم التي لا حصر لها، ولعله لا يدرك أحد مقدار القوة المتفجرة التي تكمن في الكتب مثل ما يدركه هؤلاء الدكتاتوريون.

وقد يحدث أن تشعر الأمم الديمقراطية شعورا قويا بهذه الفكرة نفسها في بعض الظروف؛ فقد أصابت الأمة الأمريكية وأصدقاءها في الخارج صدمة أذهلتهم عندما تواترت الأنباء منذ سنوات من أن مكاتب الاستعلامات الحكومية في خارج الولايات كانت تقوم بتنفيذ برنامج مرسوم لحظر نشر بعض الكتب حتى وصل الحال في بعض المناطق إلى إحراق بعضها. وكان رد فعل هذه الأنباء من العنف بحيث اضطر الرئيس آيزنهاور أن يتدخل بنفسه فألقى خطبته الشهيرة التي قال فيها (لا تنضموا إلى زبانية الكتب) وأدرك الناس بسليقتهم في شتى بقاع الأرض أن الكتب ركن ركين في بناء الحضارة والثقافة الحديثين كما كان شأنها في كل العصور.

وغرض هذا الكتاب أن يبرز القوة الهائلة التي تكمن في الكتب باستعراض بعض نماذج خاصة منها. ويجدر بنا أن ننبه بادئ ذي بدء إلى أننا لا نرغب في تقديم قائمة بـ "أحسن الكتب"، أو "أعظم الكتب"، وهي هواية محببة إلى نقاد الأدب والمؤلفين والناشرين ورجال التربية ودور

الكتب، وهؤلاء جميعا يميلون إلى تفضيل كتب الأدب على غيرها دون استثناء، ونحن لا ننهج منهجهم لأننا نهدف إلى الكشف عن تلك الطائفة من الكتب التي أحدثت أكبر الأثر وأخطره في التاريخ والاقتصاد والثقافة والحضارة والتفكير العلمي إجمالا منذ النهضة الأوربية الحديثة حتى منتصف القرن العشرين.

وعقدة العقد في مثل هذا المشروع هي مسألة الاختيار، إذ تسبق إلى الذهن لأول وهلة أسماء بعض الكتب الشهيرة. أما الاختيار بعد ذلك فيختلف فيه الناس اختلافا كبيرا ولكن عند تطبيق الشرط الأول الذي قررناه نجد أننا نستبعد أكثرها. وشرطنا هو أن يكون للكتاب أثر عميق متصل من التفكير البشري وفي أعمال الإنسان وأن يتعدى تأثيره حدود أمته إلى الأمم الأخرى في أنحاء المعمورة. وكان أن استبعدت كتب كثيرة عندما وضعت موضع الاختيار على ذلك الأساس.

ولأسباب عملية قطعنا بأن يكون الاختيار مقصورا على الكتب التي تتناول العلوم والاجتماع متغاضين عن كل ما يتصل بالدين والفلسفة والأدب عامة على أهميتها، برغم أنه قد يكون للكتب الخالدة في ميداني الأدب والدين من الأثر ما يفوق أثر ما كتب في جميع فروع المعرفة الأخرى مجتمعة. ولكن كيف السبيل إلى تحديد ما لترجمة الملك جيمس للإنجيل أو مؤلفات شكسبير أو ملتون من الأثر؟ إن تطبيق مقاييس موضوعية لا نزاع فيها على هذا العمل الجسيم أمر غير مستطاع؛ فقد كان أثرها في الهيئة الاجتماعية بعيدا وشاملا من جميع النواحى – في اللغة

والأدب والفلسفة واتجاهات التفكير والأخلاق بل جميع مظاهر الحياة – لدرجة يعجز معها المرء عن قياسها.

فلو افترضنا مع ذلك أن ندرج الكتب الدينية والفلسفة قديمها أو حديثها في قائمة الاختيار فلا مناص لنا من إثبات طائفة كبيرة مثل الإنجيل من ترجمتي (الملك جيمس، ودواي) والتلمود والقرآن والمؤلفات الدينية الهندية والبوذية وكونفشيوس والفلاسفة الإغريق والقديس أوغسطين وتوما الأكويني ومارتن لوثر وعمانويل كانت وكثير غيرهم. واذا راعينا معيار التأثير أدخلنا في اعتبارنا أيضا كتابين أمريكيين هما (العلم والصحة) للمؤلفة "ماري بيكر آدي"، وكتاب (المورمون) للمؤلف "جوزف سمث".

فإذا انتقلنا إلى انتقاء أهم الكتب الأدبية المأثورة عانينا في ذلك صعابا أشد، واعترتنا الحيرة في انتخاب شوامخ كتب القصص والمآسي والشعر والمقالات التي ألهمت العالم وحركت مشاعره، فتبادر إلى الذهن مباشرة مشاهير كتاب الإغريق والرومان القدماء. وكذلك أسماء أخرى مثل دانتي وتشوصر ورابليه وسرفانتيز وموليير وشكسبير وملتون وجوته وهاينى ودستوفسكي، ثم جمهرة أخرى أقل شهرة من هؤلاء.

ولعل أظهر الكتب أثرا وأبرزها مكانة هي كتب الرحلات والأسفار التي فتحت آفاقا جديدة أمام الإنسان ووسعت معارفه بعالمه منذ عهد ماركو بولو، إذ كشف ذلك الرحالة في القرن الثالث عشر لشعوب أوروبا عن ذخائر الشرق المجهول بنشر مؤلف عجب قص فيه مغامراته وكشوفه.

ثم يأتي بعد هذا خطاب خرستوفر كولومبس عام ١٤٩٣ الذي فصل فيه رحلته الأولى إلى أمريكا. وقد ترجم إلى عدة لغات أوربية بمجرد نشره، فأثار في زمنه ضجة وتأثيرا عميقين. وجاء بعد خطابات مشكوك في صحتها كتبها (أمريجودي فسبوتشي) ونشرها (مارتن والدسيملر) عام ١٥٠٧ في كتابه (مقدمة لجغرافية العالم) وهو الكتاب الذي كان سببا في تسمية الدنيا الجديدة باسم أمريكا. ثم حل القرن السادس عشر وهو أعظم حقبة في تاريخ العالم، من حيث حركة الكشف والأسفار، ففاض بسيل تام من كتب الرحلات جمع غالبها (رتشارد هاكلوت) في أواخر ذلك القرن وضمنها كتابه (الرحلات البحرية والأسفار والتجارة والكشوف الإنجليزية) وكذلك كتاب (الجوابون) للمؤلف (صمويل بركاس)

ويجب ألا نغفل هنا القصة الحالية البحتة التي وضعها (جول فرن) عام ١٨٧٢ وهي (الطواف حول العالم في ثمانين يوما) وقد أثر هذا الكتاب تأثيرا عجيبا في الناس بدرجة فاقت تأثير كل كتاب من غير الكتب الروائية وأما (وندل ولكي) فهو قريب العهد بنا وقد ساعد كتابه (عالم واحد) ١٩٤٣ في تفهم الشعب الأمريكي للسياسة الدولية. ولا جدال في أنه كان من أسباب قيام هيئة الأمم المتحدة وتكوينها.

وقد يكون من المستحسن أن نذكر هنا الجهود السابقة لاختيار أهم الكتب التي أثرت في الجنس البشري أعمق تأثير وأن نقارنها بنهجنا في هذا الكتاب، وقد نشرت مجلة (الناشر الأسبوعي) مثل هذه القائمة من الكتب وضعتها لجنة مؤلفة من (إدوارد ويكس) و(جون ديوي) و(تشارلس أ.

بيرد) عام ١٩٣٥ فاختار كل منهم خمسة وعشرين كتابا من بين الكتب التي نشرت منذ عام ١٨٨٥ حسب ما تراءى له من أهميتها، وانتهى الاقتراع عليها إلى اختيار خمسين كتابا لم يفز فيها بإجماع الآراء غير أربعة كتب هي: (رأس المال) لكارل ماركس و(التلفت إلى الماضي) للكاتب بلامي و(الغصن الذهبي) لفريزر، وكتاب (اضمحلال الغرب) لاشبنجلر، وفاز تسعة وعشرون كتابا بصوت واحد.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الكتب المذكورة في كتابنا والتي تنفق مع نفس الفترة ثلاثة كتب قررت اللجنة حذف كتاب (ماكندر)، ولم يفز كتاب هتلر بغير صوت واحد هو صوت (بيرد) ولم يفز منها بإجماع اللجنة غير (كارل ماركس) وقد انقضى على قرار حكام تلك اللجنة زهاء عشرين عاما، وأغلب الظن أنها لو أعادت فيه النظر اليوم لعدلته تعديلا أساسيا.

وبعد مضى بضع سنوات (١٩٣٩) نحا (مالكولم كاولي) و(بروارد سمث) مثل هذا النحو في كتابهما (كتب غيرت تفكيرنا) وقد اشترك جمهور من خيرة رجال التربية والمؤرخين والناقدين والمحاضرين والناشرين الأمريكيين في اختيار اثنتي عشر كتابا كانت لها في رأيهم أكبر الأثر في تكيف العقلية الأمريكية الحديثة إلى جانب ١٣٤ كتابا أوصى باختيارها الأشخاص الذين اشتركوا في الاقتراع ولكن الاختيار انتهى إلى الكتب الآتية، وعددها اثنا عشر كتابا هي:

(١) فرويد – تفسير الأحلام. (٢) أدامز – كتاب تربية هنرى آدمز. (٣) ترنر – مشكلة الحدود. (٤) سمنر – طرائق الناس. (٥) فبلن – المشروعات. (٦) ديوي – دراسات في المنطق النظري. (٧) بوان - عقلية الرجل البدائي. (٨) بيرد – التفسير الاقتصادي للدستور الأمريكي. (٩) ريتشاردز – قواعد النقد الأدبي. (١٠) بارنتن – التيارات الرئيسية في التفكير الأمريكي. (١١) لينين – الدولة والثورة (١٢) اشبنجلر – اضمحلال الغرب.

ولم يوافق ويكس وديوي إلا على أسماء أربعة من الكتاب الذين ذكروا وهم: فرويد، وأدامز، وترنر، واشبنجلر.

وقد حاول (هوراس شيب) وهو كاتب إنجليزي، في كتابه الصغير (كتب هزت مشاعر العالم) الذي نشر عام ١٩٤٥ أن يختار أعظم الكتب أثرا في العالم دون التقيد بزمان أو مكان أو موضوع فانتقى عشر كتب هي:

(١) الإنجيل. (٢) جمهورية أفلاطون (٣) مدينة الرب للقديس أوغسطين. (٤) القرآن. (٥) الكوميديا الإلهية لدانتي. (٦) مسرحيات شكسبير. (٧) طريق الحاج لبنيان. (٨) أريوباجنكا لملتون. (٩) أصل الأنواع لداروين. (١٠) رأس المال لكارل ماركس.

ولكن الشروط التي وضعناها تجعلنا نستبعد كل تلك الكتب عدا ثلاثة لم ندرج منها غير الاثنين الأخيرين فقط.

ونرى من الأمثلة التي أوردناها أن إجماع الآراء على كتاب ما يكاد يكون مستحيلا، إذ أن مسألة الاختيار مسألة ذاتية تتعلق بذوق الشخص، وبهذا يكون من غير المستطاع أن يكون ثمة إجماع على غالبية الكتب الستة عشر التي اخترناها. ومع ذلك فنرجو أن تكون الأسباب التي أبديناها عن كل مؤلف وكتاب فيها الكفاية بعد أن درسناها بكل عناية. وقد يكون من المفيد أن تعرض أسماء بعض الكتب التي أسقطناها لسبب أو آخر.

فمثلا كان الكتاب العلمي (آلة الجسم الإنساني) للكاتب أندرياس فيزاليوس يستحق أن يدرج إلى جانب كتاب (حركة القلب) لهارفي، وكذلك كتابات (لاينتز) في الرياضة والطبيعة تستأهل أن توضع إلى جانب كتاب نيوتن (الأصول الرياضة)، وفي العلوم الاجتماعية يستحق كتاب تيرنر (مشكلة الحدود في التاريخ) أن يوضع إلى جانب كتاب ماكندر (المحور الجغرافي للتاريخ) رغم أن الأول لم يبلغ الشهرة التي بلغها الكتاب الثاني، وكذلك كتاب ماركس وإنجلز (البلاغ الشيوعي) الذي استمر قوة محركه في تغيير ملامح المجتمع أكثر من قرن من الزمان، ولكنه كان أقل نضجا وأقل عناية بذكر الوثائق التي استند إليها من كتاب كارل ماركس (رأس المال) بل ربما كان أقل منه كذلك من حيث أثره العميق في النفوس.

وقد فضل بعض النقاد كتاب ثورة (والدن) على كتابه (العصيان المدني) رغم أن تقدير أثر الكتاب الأول في الناس كان ضئيلا. وثمة كتب أخرى مثل كتاب (ويمز) وهو "حياة واشنطن"، (١٨٠٠) الذي ظل ستة أجيال بأكملها نبراسا يوجه العقلية الأمريكية وتقاليدها وتاريخها وبخاصة في

حالة (إبراهام لنكولن) وكذلك كتاب (سان في خدمة البحرية) للكاتب (رتشارد هنرى دانا) ١٨٤٠ وهو سفر ضخم كان له الفضل في تحسين أحوال رجال البحرية في أمريكا. ثم كتاب (أبتن سنكلر) وهو (الأدغال) ١٩٠٦ الذي نقد حالة العمال السيئة في أحواض شيكاغو، فقد أدى إلى إصلاح عاجل لحالتهم، ولكن رؤي أن الثلاثة الكتب الأخيرة محدودة الأثر جدا فاستبعدت من قائمة الكتب المختارة.

وكانت دعابة طريفة حقا من أولئك الذين اقترحوا أن ندرج كتاب (فانى فارمر) وهو (الكتاب المدرسي للطهي) وكتاب (إميلي بوست) وهو (آداب اللياقة)، وكذلك كتاب (السلوك الجنسي) لألفريد كينزي، وكلها دعاية لا تخلو من جد.

وتحتوي الكتب الستة عشر التي وقع عليها الاختيار الأخير على ستة كتب في العلوم بين عامي ١٥٤٣ و ١٩١٥ وعشرة كتب في العلوم الاجتماعية بين عامي ١٥٢٣، ١٩٢٧ والحقيقة أن هذا التقسيم سطحي لأن التأثير الاجتماعي لكتب العلوم لم يكن أقل من تأثير كتب العلوم الاجتماعية بالذات. وأما كتاب السيدة استو (كوخ العم توم) فعلى الرغم من أنه مصوغ في قالب قصة روائية فإنه يعتبر من كل الوجوه وثيقة مهمة من الوثائق الاجتماعية.

وعندما ينظر الإنسان في هذه الكتب الستة عشر، وكلها كتب تكمن فيها قوى خطيرة يدور بخلده سؤال حائر: ترى هل خلقت الظروف

الكتاب أو أن الكتاب هو الذي خلق الظروف؟ وهل كان تأثير الكتاب عظيما لأن الجيل كان مستعدا لتقبله؟ وهل يكون الكتاب ذا أهمية مماثلة في عصر غير عصره؟ وهل كان من الجائز ألا يكتب الكتاب في زمن غير زمانه؟ ولا سبيل للإجابة على السؤال إلا أن نعترف بأن الكتاب وليد الظروف في جميع الحالات، لأنه من غير المحتمل أن يظهر كتاب يروج بين الناس في زمن لم تهتم فيه النفوس لاستقباله وعلى فرض ظهوره في غير عصره فإنه لن يلقى إلا رواجا محدودا.

والأمثلة على ذلك في متناول اليد؛ فمثلا ألف ماكيافيللي كتابه (الأمير) ورمى فيه إلى تحرير إيطاليا وطنه الكبير التي كانت إذ ذاك واقعة بين براثن الغزاة الأجانب. وكانت إنجلترا تتهيأ للتوسع في اقتصادياتها التجارية والصناعية عندما كتب آدم سمث كتابه (ثروة الأمم). وكان مقال توم بين (العقل السليم) بمثابة الزناد الذي أطلق الثورة الأمريكية من عقالها وكانت هذه مهيأة للانفجار. كما عجلت قصة هاريت ستو(كوخ العم توم) بقيام الحرب الأهلية الأمريكية، ولولا حالة البؤس والشقاء التي كان يعانيها العمال في أوروبا وخاصة في المصانع الإنجليزية في منتصف القرن التاسع عشر لما استطاع كارل ماركس أن يجد مادة مثيرة لكتابه (رأس المال) وكذلك كان التسابق بين الدول العظمى في بناء الأساطيل البحرية بعد عام ١٨٩٠ نتيجة لتأثير كتاب (أثر القوة البحرية في التاريخ) للأميرال (ميهان) لأن النفوس كانت مشبعة بروح التنافس على التوسع والاستعمار وكان من المحتمل أن يظل أدولف هتلر بقية حياته نقاشا في النمسا لولا الفوضى الشاملة التي سادت الأمة الألمانية بعد الحرب العظمى الأولى.

ومن جهة أخرى كانت بعض هذه الكتب أشبه بالقنبلة الزمنية لم تفعل فعلها وتحدث تأثيرها إلا بعد حصة طويلة من الزمن إذ لم ينتبه العالم إلى آراء (كارل ماركس) و(آدم سمث) مثلا إلا بعد وفاتهما بزمن طويل. وكذلك الشأن مع الكاتب (ثورو) الذي مضى على وفاته زهاء نصف قرن قبل أن يطبق المهاتما غاندي مبادئه في العصيان المدني في الهند وجنوب إفريقيا. ولولا ظهور المدرسة الألمانية الجغرافيا السياسية بتوجيه (هاوسهوفر) لما عرفت قيمة نظرية (ماكندر) وقدرت على حقيقتها، علما بأنه كتب كتابه في عهد سابق بعشرات السنين. هذه بعض أسماء الرعيل الأول من كبار المفكرين الذين لم تنل طبعات مؤلفاتهم الأولى غير الكساد والخسارة.

وكلما عاود القارئ النظر في قائمة تلك الكتب تردد بخلده سؤال آخر هو: كيف يستطاع قياس الأثر الذي يحدثه كتاب ما؟.. وردا على ذلك نقول: إننا قسنا اختبار الكتب بمعيار أثرها الفعلي والمادي الملموس، وبعبارة أخرى لأنها كتب تصل اتصالا وثيقا مباشرا بمجرى بعض الحوادث المهمة. إذ كثيرا ما يحدث أن ينشر كتاب يعرض فيه مؤلفه حلولا لمسائل الساعة في عصر بالذات، ولا يخفى أن أمثال تلك الكتب التي تعالج المشاكل الجارية سريعا ما تفقد أهميتها على خلاف أمهات الكتب في الدين والفلسفة والأدب.

وثمة معيار لا يخطئ لبيان مدى تأثير كتاب ما على أبناء جيله بالذات وما نشر عنه من تقريظ ونقد وما ثار حوله من جدل بين معاصريه.

وغالب الظن أن انقسام الناس بين مادح وقادح بشأن أي كتاب دليل على أن آراء كاتبه قد أثرت في جمهرة المفكرين في عصره؛ فإذا صودر الكتاب أو أوقف كان ذلك من الأدلة على مدى أهميته، وليس أدل على تقدير كتاب ما، مثل تعليقات الصحفت المعاصرة عليه ومقالات النقد الأدبي، ومذكرات المؤرخين، وكتب التراجم. ولعل أجل الأدلة وأعظمها خطرا هو مدى رواج النظريات أو البرامج أو الأفكار التي نادى بها كاتب ما بين الناس وسعة انتشارها وتقبلها بحيث تتخطى حدود وطنه وتنتقل من شعب إلى شعب عن طريق الترجمة، ويتحزب لها فريق دون فريق أو يقلدها كتاب، أو يعارضها آخرون، فتظل تدور في الأذهان حتى تسري في وعي الشعوب وتصبح جزءا لا يتجزأ من تفكيرها وكيانها.

ومن طريف دلائل الشهرة أن يشق من مؤلف أعلاما أو صفات تدل على فكرة معينة أو اتجاه معين، ومن أمثال ذلك نعوت اشتقت من ماكيافللي وكوبرنيق ومالتس ونيوتن وفرويد وداروين وماركس وهتلر.. فإذا وصف بها شخصا دلت على عقلية خاصة يصاحبها سواء أكان ذلك مدحا أو ذما حسب وجهة نظر المتكلم.

ولما كانت لغة أغلب الكتب العلمية التي أدرجناها في الاختبار النهائي فوق مستوى الرجل العادي فمن الطبيعي أن نتساءل عن مدى تأثير ذلك النوع من الكتب في عقول الجمهور إذ من البديهى أن تأثيرها لا يتناول إلا صفوة قليلة من المتخصصين.

ونجيب على ذلك بأنه من المؤكد أن قليلا من الناس العاديين من يستطيع أن يفهم أو يقرأ دون تعثر النصوص اللاتينية في كتب كوبرنيق وهارفي ونيوتن، أو يتابع نظريات آينشتاين بأية لغة من اللغات. وكذلك لا يستطيع سوى العالم الاجتماعي الخبير أن يدرك إدراكا تاما قضايا المنطقة في كتاب آدم سمث أو مالتس أو ماركس بما نجد أن دراسة علم الأحياء ركن ضروري لمن يرغب في تفهم كل ما جاء به هارفي وداردين وفرويد من نظريات.

والجواب على ذلك أن أغلب الناس يكتشفون آراءهم وعلمهم ناضجا مهضوما في مرتبة لاحقة للأخصائيين إذ تسرب إليهم عن طريق كتب شعبية سهلة المأخذ ومما ينشر في المجلات والصحف ودروس المدارس والمحاضرات العامة وأخيرا بواسطة الإذاعة والتلفزيون والصور المتحركة. ولم يجد أي كتاب من الستة عشر التي أدرجناها رواجا أو إقبالا من الناس على اقتنائه إلا ثلاثة كتب هي (العقل السليم) لكاتبه بين و(كوخ العم توم) و(كفاحي) ويتضح من ذلك أن تأثير الكتب العلمية نشأ من شرح وتفسير الأخصائيين، والغالب أن الناس يقومون بالتطبيقات العملية للنظريات العلمية وهم لا يعلمون عنها شيئا مثل الناحية الآلية في نظريات نيوتن أو آينشتاين في تحطيم الذرة والنشاط الذري.

فإذا أعدنا النظر في تلك الكتب من ناحية الترتيب التاريخي دهشنا لاستمرار حركة العلم والأواصر التي تربط اتجاهاته بعضها بالبعض الآخر دون انقطاع، قال (هانشنز) عن ظاهرة ترابط العلوم، وإننا نجد فيها

مواصلة (للمحاورات العظمى) فمنذ أن بدأها أفلاطون، فقد استلهم كوبرنيق علمه وإبداعه من فلاسفة اليونان القدماء. أما نيوتن فقال عن نفسه "إنني وقفت على أكتاف العمالقة" أمثال جاليليو وكيلر والآخرين من جهابذة العلم وأغلب الظن أنه لولا هؤلاء لما ظهر في العالم آينشتاين.

وقد اعترف دارون بدينه لعدد من علماء الأحياء والجغرافيين وعلماء طبقات الأرض، وأنه بفضلهم استطاع أن يبني ويتمم نظريته في أصول الأنواع. ويصح أن يقال أن العلم التجريبي داخل المعامل بالمقارنة للفلسفة النظرية القديمة بدأ فعلا على يد كوبرنيق ثم تبعه أساطين العلماء في بحوثهم بعده، أمثال هارفي ونيوتن ودارون وفرويد. ويتمثل في أقوال ماكيافللي المثيرة غرام الإنسان بالحرية، والحرية داء قديم من أدواء البشر.. ثم في آدم سمث وبين وثورو وآستو، بينما استمد كارل ماركس مادة كتابه من كتابات علماء الاقتصاد الإنجليز، وخاصة آدم سمث ومالتس وريكاردو، وحذا حذو داروين في تقسيم كتابه.

وأما ميهان صاحب كتاب (تأثير القوى البحرية في التاريخ) وهو مؤلف يأتي في المرتبة الثانية في الأهمية، فقد استمد معلوماته من المؤرخين البحريين والحربيين وكتاب التاريخ العام.

ومع أن كثيرا من النتائج التي توصل إليها ميهان لم تنل القبول برمتها فان ماكندر وآخرين من علماء الجغرافيا السياسية وجدوا في مؤلفه ما أثار اهتمامهم وكذلك الحال مع هتلر في كتابه (كفاحي) فقد استمد كثيرا من

مادته من مكيافللي ودارون وماركس وميهان وماكندر وفرويد سواء كان ذلك عمدا أم عن غير عمد.

ومن المستحسن أن نضيف هنا بعض ملاحظات عما اخترناه من الكتب وعن مؤلفيها فنسأل السؤال الآتي: ألم يؤثر عنصر التحيز إلى قوميتنا أو إلى لغتنا في انتخابنا لتلك الكتب؟ والجواب أنه يحتمل أن يحدث، فالقائمة الأخيرة تشمل أربعة أمريكيين وهم بين وثورو وآستو وماهان، وستة بريطانيين هم: هارفي ونيوتن وسمث ومالتس ودارون وماكندر. وهناك ثلاثة ألمان (ماركس وآينشتاين وهتلر) وإيطالي واحد هو (ماكيافللى) ونمساوي واحد هو (فرويد) وبولندي واحد هو (كوبرنيق)، وبين الأوربيين منهم ثلاثة يهود فلو فرضنا أن وكل إلى صيني أو فرنسي أو روسي وضع تلك القائمة، لكان هناك تحيز في جهات أخرى.

وقد يتساءل سائل عن ماهية تعريف الكتاب؟ فما الكتاب يا ترى؟ هل الحجم هو الذي يدل عليه؟.. إن فكرة الحجم سخيفة بدليل أن كتاب بين (التفكير السليم) ومؤلف ثورو (العصيان المدني) ومؤلف ماكندر (المحور الجغرافي للتاريخ)، وكذلك الكتابات الأولى لآينشتاين عن الذرة لا تعدو أن تكون كلها كتيبات أو رسائل قصيرة نشرت الثلاثة الأولى بشكل مقالات في البداية فهي على الضد من الكتب الضخمة الأخرى مثل (الأصول الرياضية) و(ثروة الأمم)، والطبعات الأخيرة من كتاب مالتس عن السكان، وكذلك كتاب (رأس المال) و(كفاحي)، وروي عن فولتير أنه قال "أن الكتب الضخمة ليست هي الكتب التي تشعل نار الثورة في

الشعب وإنما تضرم نارها الكتب الصغيرة المفعمة بالحماسة والتحريض"، وهذا قول ينطبق على بين وثورو ولكنه لا ينطبق على ماكندر أو آينشتاين، وخلاصة القول أن الحجم لم يدخل في تقديرنا عند اختيار قائمة هذه الكتب.

وتأتي بعد ذلك نسبيا مسألة الزمن الذي استغرقه تأليف الكتاب، وقد ضرب كوبرنيق الرقم القياسي في الزمن إذ استغرق وضع كتابه (حركة النظام الشمسي) زهاء ثلاثين عاما، ومن البديهي أنه لم يستمر في تأليفه طول تلك المدة، ومع هذا فلن يستطيع إنسان أن يقول أنه أفضل من كتاب نيوتن (القواعد الرياضية) الذي استغرق في وضعه ثمانية عشر شهرا فقط. ومن محض المصادفات المدهشة حقا أن يستغرق وضع كل من كتب (ثروة الأمم) و(أصل الأنواع) و(رأس المال) سبعة عشر عاما بالتساوي. وفي الكفة الأخرى من هذا الميزان نجد أن كتاب (الأمير) استغرق ستة أشهر من ماكيافللي، وكتاب (التفكير السليم) ما لا يزيد على ثلاثة أو أربعة أشهر.

وقد يرجع التفاوت العظيم في فترات التأليف إلى عوامل عدة أو اعتبارات تتصل بشخصية المؤلف فالعلماء أمثال: كوبرنيق، ونيوتن، وهارفي.. اتأدوا في نشر كتبهم ليتأكدوا قبل نشرها من صحة النتائج التي وصلوا إليها ومن صدقها على ضوء التجربة العملية الدقيقة بل ترددوا في ذلك أشد التردد حتى بعد تأكدهم من صحتها بسبب توقع الخطأ أو المصادرة أو الرغبة في الوصول بها إلى الكمال العلمي أو خشية انتقاد

زملائهم من العلماء أو بسبب عزوفهم عن طلب الشهرة أو لأسباب أخرى.

وأما عن كتب الاقتصاد التي ألفها سمث وماركس؛ فقد استنفد المؤلفان جل الوقت في جمع مادة الكتاب الهائلة ومراجعة المخطوطة مرارا وتكرارا. وأما الآخرون من المؤلفين الذين تميزوا بالجرأة والاندفاع أمثال ماكيافللي والشاب مالتس وبين وثورو فكانت لهم رسالة ملحة عاجلة في حياتهم لا بد أن يبلغوها للناس دون ما هوادة أو تهاون.

واشتهر أغلب المؤلفين من الستة عشر بين الناس بكتاب واحد لكل منهم وعفى الزمن على كتاباتهم الأخرى، مثل هارفي ونيوتن وسمث ومالتس وماركس وآستو ومهان وآينشتاين، غير أن بين وثورو وداروين وفرويد استثناءات من هذه القاعدة، فقد كانوا من الكتاب الكثيرين الذين ألفوا كتبا أخرى اشتهرت بين الناس اشتهار كتبهم التي أثبتناها في جدولنا.

ويحسن بنا أن نورد هنا بعض لمع من سير هؤلاء المؤلفين تبرز نواح أخرى من شخصياتهم وأخلاقهم. فهل كان الزواج مثلا من العوامل المهمة في تأليف كتبهم الخالدة؟ ولنبدأ بكوبرنيق فنقول أنه كان راهبا عزبا وأما نيوتن وسمث وثورو وهتلر فكانوا كذلك عزابا. على حين كان هارفي وميهان وماكندر وبين متزوجين ولكنهم لم ينجبوا عقبا. وكان بين بائسا تعسا في حياته الزوجية الأولى والثانية. وكان لمالتس ثلاثة أطفال وآينشتاين طفلان، وتزوج مالتس مرة واحدة، وأما آينشتاين فتزوج مرتين. وكان

الآخرون أمثال ماكيافللى ودارون وآستو وماركس وفرويد أزواجا مثاليين وآباءً لأسرات كثيرة النسل، ومن البديهي إننا لا نستطيع أن نصل إلى نتيجة ما من مثل هذا البحث.

وقد يظن ظان أن التقدم في السن والنضج العقلي شرطان لا بد من توافرهما فيمن يضع المؤلفات الخالدة العظيمة. ترى ما أثر ذلك في الستة عشر كتابا المختارة؟ كان كوبرنيق أكبر الجميع سنا في السبعين من عمره عندما نشر كتابه لأول مرة، وكان آينشتاين أصغرهم جميعا أن كان في السادسة والعشرين، وأما مالتس وثورو فكانا في أوائل العقد الرابع من العمر وكان هتلر وبين في نهاية العقد الرابع. ونرى أن العشر سنين بين الرابعة والأربعين والرابعة والخمسين كانت السنوات الخصبة في حياة عدد كبير من مؤلفينا إذ يأتي في حدودها ماكيافللي وفرويد ونيوتن وماركس وميهان ودارون وهارفي وسمث مرتبين بحسب السن الأكبر فالأكبر، وكانت السيدة آستو وماكندر أصغر منهم بقليل إذ كانا في أوائل العقد الخامس.

وعلى سبيل التلخيص نقول أن أغلب هؤلاء المؤلفين يشتركون في بضع صفات شخصية بارزة. فقد كانوا جميعا باستثناء العلماء من الخوارج والمتطرفين والمتعصبين والثوريين والمحرضين، ومؤلفاتهم مليئة بالأخطاء اللغوية يعوزها الأسلوب الأدبي وأن سر نجاحهم وتأثيرهم يرجع إلى أن الظروف كانت مهيأة والنفوس معدة لقبولها إذ كانت كل تلك الكتب تحمل رسالة مثيرة متطرفة تجد استجابة بين ملايين الناس. وكان هذا التأثير يتسم بالخير آنا وبالشر أخرى.

ومن ذلك يتضح أن الكتب تنطوي على قوى هائلة تسوق الناس إلى الخير أو نحو الشر. وليس الغرض هنا أن نقيس الكتاب بالأقيسة الخلقية، ولكن الغرض أن تبرز حقيقة واحدة هي أن الكتب تحمل في طياتها قوى محركة هائلة وأنها أدوات خطيرة وأسلحة ماضية.

المؤلف

دنيا الإنسان

١ ـ كتاب الأمير

نقولا ماكيافللي

ما زال نعت إنسان ما بأنه مكيافللي المبدأ مرادفا في عقول الناس منذ أربعة قرون لكل ما هو شيطاني غادر وضيع، ووحشي دنيء. وأصل هذا الاشتقاق هو نقولا ماكيافللي الذي ارتبط اسمه في الأذهان يصور النفاق والخديعة والمكر وانعدام المبادئ والاستهتار بالقيم الخلقية، وبأنه علم على السياسي الغادر المجرد عن الضمير الذي تنحصر فلسفته في الحياة في: أن الغاية تبرر الوسيلة، وأنها أسمى القواعد السياسية في عرفه. وكان لمكيافيللي والشيطان اسم آخر في إنجلترا في القرن السابع عشر هو (أولد فك). فهل من المستطاع أن تدفع تلك التهمة عن هذا المتهم أو ألا توجد على الأقل ظروف مخففة في صالحه؟

إن سوء سمعة مكيافللي نشأت أصلا من كتاب واحد كتبه عام ١٥١٣ ولكنه لم ينشر إلا عام ١٥٣٢ أي بعد وفاة صاحبه بخمس سنين. وكتاب (الأمير) هذا من أبرز الأمثلة على صحة ما يقال عن أن الكتاب وليد عصره وظروف تأليفه، ولا فكاك له منها، ورغم ما قيل عنه فإنه يحمل

بين دفتيه دروسا ونصائح تصلح لكل زمان ومكان كما هو شأن كل كتاب عظيم.

ونحن لا نعرف عن حياة مؤلفه إلا الشيء اليسير قبل عام ١٤٩٨ عندما عين وهو في سن التاسعة والعشرين وزيرا في (جمهورية فلورنسة) وظل في منصبه ثمانية عشر عاما عاملا في خدمتها. وقد اقتضت طبيعة عمله أن يزور (تسكانيا). ومدينة رومة عبر جبال (الاينين) ثم البلاد الواقعة وراء جبال الألب. كل ذلك في مهام سياسية، فتعرف على أعظم شخصيات العصر، منهم الكونتس كاترينا اسفورزا، وباندولفو بترو تشي دكتاتور نسيينا، وفرديناند ملك أرغونة، ولويس الثاني عشر ملك فرنسا، والإمبراطور مكسمليان، والبابا إسكندر السادس، والبابا يوليوس الثاني، وقيصر بورجيا. وكانت الخلافات السياسية الشديدة في تلك الفترة تنشب دون انقطاع بين فلورنسه من جانب وبين جيرانها من جانب آخر، مثل البندقية وبزه وميلانو ونابلي. كما كانت العلاقات السياسية في إيطاليا عامة تتسم بطابع الفوضى والخيانة إلى حد لا يكاد يعقل. وكان مكيافيللي رجلا شديد الملاحظة دقيق الإدراك للطبيعة الإنسانية يأنس إلى مثل هذا الجو المشحون بالدسائس لأنه يلائمه تمام الملاءمة. وقد أظهر في ظروف عديدة دهاء ومهارة عظيمين في مفاوضات سياسية شائكة. وقد نشأت نظرته الواقعية المتشككة الظاهرة في آرائه من تجاربه الشخصية؛ فقد تعلم منها أن يسقط من حسابه جميع الاعتبارات إلا اثنين هما عاملا الجشع وإيثار المصلحة الذاتية.

ثم تغيرت الظروف فتغير معها حظ ماكيافللي إذ تدخلت إسبانيا وأعادت حكم آل مديتشي إلى فلورنسه وأسقطت حكومة الجمهورية بها فطرد مكيافيللي من عمله وقبض عليه وعذب ونفي إلى ضيعته في ضواحي دير سان كاتيانو حيث قضى بقية حياته إلا فترات قصيرة مقصيا عن العالم حتى وفاته عام ١٥٢٧. وفي تلك الفترة الطويلة المملة عكف على الكتابة والتأليف قطعا للوقت فألف كتاب (الأمير) ثم كتاب (المحاضرات) و(فن الحرب) و(تاريخ فلورنسه) وكلها عن السياسة قديمها وحاضرها.

ولا يلمس الإنسان في كتاباته عن الشئون العامة أي عاطفة أو رحمة ولكنه رغم ذلك كان شديد الحساسية المسألة واحدة على الأقل تدل على وطنية صادقة وهي تحرقه إلى إنشاء دولة إيطالية قوية موحدة. ومهما يبدو من الجفوة والتشاؤم والتشكك في نظرته وحكمه المجرد على الأشياء فسرعان ما نراه حينما يبدأ الحديث والبحث في حالة إيطاليا، ينقلب إلى رجل عاطفي حساس فصيح العبارة تفيض كلماته بكل آيات الحماسة والحياة، فقد كانت أحوال إيطاليا في القرن السادس عشر مما تدمع له عيون كل وطني غيور.

وكانت إيطاليا في عصر مكيافيللي على أبواب أحداث هائلة في الميادين السياسية والاقتصادية والدينية. وأما خارجها فقد استطاعت أمم مثل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا بعد جهود مضنية أن تحقق وحدتها القومية بينما نرى أن فكرة الوحدة أو الاتحاد في إيطاليا كانت بعيدة كل البعد عن أذهان الساسة والناس إذ تقاسمت حكم أرضها في ذلك العهد خمس دول

كبيرة هي ميلانو وفلورنسه والبندقية والبابوية ونابلي. وأقوى هذه كلها كانت جمهورية البندقية. ونشأ عن هذا الانقسام السياسي سلسلة من الدسائس والمؤامرات أطمعت الدول الأجنبية بالتدخل في أراضي إيطاليا فغزتها غير مرة، وكان أول غزاتها شارل الثامن ملك فرنسا عام ١٤٩٤ وتبعه بعد انسحابه لويس الثاني عشر ملك فرنسا بالاتفاق مع فردناند ملك أرغونه لتقسيم مملكة نابلي بينهما كما أرسل الإمبراطور مكسمليان جيشا لغزو البندقية، وهكذا أصبحت إيطاليا ميدانا للقتال تتصارع فيه جيوش ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإسبانيا .

أما الإيطاليون فكانوا في هيج على أنفسهم، وفي ثورات تأخذ بخناقهم الفوضى. فالاغتيالات واللصوصية وقطع الطرق والحروب لا تنقطع بين بلد وآخر حسدا وحقدا على ازدياد قوة أحداها حتى أمسى الجميع في حالة من العجز لا يستطيعون معها توحيد صفوفهم وجمع جبهتهم ضد أعداء البلاد من الأجانب، بينما كانت الكنيسة متدهورة إلى أحط درك وصلت إليه في كل تاريخها. وهي تعمل دائبة على إشاعة الفرقة والانقسام في إيطاليا خشية أن تقوم فيها دولة قوية تنافسها في ممتلكاتها الدنيوية.

وكان مكيافيللي أكثر معاصريه إدراكا للخطر الذي يتهدد إيطاليا فهداه خاطره وهو في عزلته المفروضة عليه بعد ما استعرض الكوارث التي نزلت بوطنه المحبوب، هداه إلى أن الوسيلة الوحيدة لخلاص إيطاليا هي قيام زعيم من القوة والبأس والجبروت بحيث يستطيع أن يفرض إرادته على

زميلات إيطاليا جميعها فيصهرها في دولة واحدة قوية تدفع عن كيانها وتطرد الأجنبي من أراضيها. ولكن أين يستطاع العثور على مثل هذا الزعيم؟.. وأجاب مكيافيللي على ذلك حسب ما هداه تفكيره بأن الزعيم يجب إن يكون أميرا تتمثل فيه صفات الزعامة المطلوبة وأردف ذلك بتفصيل واف عن الأساليب والطرائق التي يجب أن يسلكها مثل هذا الأمير للوصول إلى الهدف المقصود.

ورغم أنه أهدى كتاب الأمير إلى (لورنزو دي مديتشي) أمير فلورنسه إلا أن بطل الكتاب كان رجلا آخر هو قيصر بورجيا ابن البابا اسكندر السادس. وقيصر هذا أو (تشزارى) رسم كردينالا وهو في السابعة عشرة من عمره وكان من مشاهير قواد عصره. غزا إقليم (رومانا) واشتهر بأنه طاغية شديد البطش عديم الرحمة. وحدث عام ١٥٠٢ إن أرسل مكيافللى في سفارة إلى بلاطه وصف (نيفنز) تلك السفارة قال: "رأى مكيافيللي بعين الإعجاب كيف كان قيصر يصرف سياسته فلجأ تارة إلى الحذر وطورا إلى الجرأة ويستعمل اللين والقول المعسول إلى جانب القسوة وإراقة الدماء. ورآه يتبع طرائق النفاق والغدر في هدوء إجرامي ويستعمل الأساليب الوحشية والإرهاب في إخضاع الذين قهرهم حتى لا يخرجوا عليه" ولقد أحرز بورجيا باصطناع أساليب المراوغة والوحشية والغدر هذه انتصارات باهرة ولكن إلى حين. ومع أن مكيافيللي كان شديد الإيمان بالنظام الجمهوري إلا أنه بعد أن أنعم النظر فيما وصلت إليه حالة إيطاليا من البوار والفشل اقتنع بأنه لا بد لإيطاليا من حكم رجل مثل بورجيا ليتزعمها ويقضي على الفوضى السائدة في أرجائها.

وحفزته وطنيته الفياضة للتطلع إلى قيام وحدة الأمة الإيطالية وسط الأزمات الملحة المائلة في عصره وتنبهه إلى الفرص المواتية لكل حاكم قوى البأس، حفزه كل ذلك إلى أن يطلق العنان لحماسته ونشاطه الكامن في تصنيف كتاب (الأمير) الذي استغرق في تأليفه الستة شهور الأخيرة من عام ١٥١٣، وبعد قليل بعث بمخطوطة الكتاب إلى بلاط الأمير لورنزو مقدما بكلمة الإهداء إليه قال فيها: "قد تدبرت فما وجدت هدية أجل من كتاب موجز العبارة يستوعب منه الفهم في أقصر ساعة عامة ما خبرته في حياة مريرة تحملت فيها كل عناء ومشقة".

وواسطة العقد في حجج كتاب مكيافيللي إن سلامة الدولة ومصالحها تبرر كل إجراء وسياسة وأن القوانين الخلقية في شئون الدولة تختلف كل الاختلاف عنها في الشئون الخاصة. وبذلك يكون من المعقول أن يرتكب السياسي دون تثريب أعمال العنف والخديعة ولو كانت في نظر القوانين العامة أعمالا إجرامية تستحق الجزاء والعقاب. وقصارى القول أن مبادئ مكيافللى باعدت بين القوانين الخلقية وبين مقتضيات السياسة العامة. ويعتبر كتاب (الأمير) مرشدا يهتدي به الأمراء الحاكمون، أو كما أسماه بعضهم أنه موجز وضع لينتفع به المستبدون في الأخذ بأمثل الأساليب في جمع السلطة وكيفية الاحتفاظ بها غير إن السلطة التي رمي إليها مكيافيللي ليست السلطة التي في صالح الحاكم ولكنها السلطة التي في صالح المحكوم حتى يستطيع الحاكم بواسطتها أن يوفر للرعية أسباب الاستقرار والأمن على يد حكومة ساهرة قوية تقمع الثورة في الداخل وترد

الأعداء في الخارج، ولكنه عاد فتساءل عن الكيفية التي يستطاع بها الوصول إلى الاستقرار والأمن؟

وأجاب عن هذا السؤال بوجهين: ففي حالة الملكيات الوراثية لم يعرها من جانبه اهتماما لأنه رأى أن الملك يستطيع أن يهيمن ويتسلط على أداة الحكم إذا كان على شيء من الذكاء والنشاط، ولكن المسألة التي اهتم لها هي قيام أسرة ملكية جديدة في بلاد مقهورة والمشاكل التي تقترن بها. وقرر أنه إذا كانت البلاد المغلوبة على أمرها تتفق مع البلاد الغالبة في اللغة والقومية فأمرها هين على الحاكم الجديد على أن يتبع في إدارتها أمران "أن يعمل على إبادة أعضاء الأسرة المالكة القديمة ثم يراعي عدم زيادة الضرائب على الناس وضرورة الإبقاء على قوانينهم الأصلية"

"فإذا حدث عكس ذلك وكانت الأمة المغلوبة مغايرة للأمة الغالبة في اللغة والعادات والشرائع فمشاكل الحكم هنا تتشعب تشعبا كبيرا بحيث لا يمكن التغلب عليها إلا بسعة الحيلة وحسن التوفيق، وينصح مكيافللى الحاكم الجديد أن يقيم في أرض الأمة المغلوبة وبين ظهرانيها وأن يرسل إليها أفواجا من عشيرته فينزلوا بأرضها ويستعمروها لأن ذلك أقل مؤنة وكلفة من جيوش الاحتلال وأن يعملوا على مصادقة أهلها وخاصة ضعاف العزيمة من جيرانهم. وأما أشداء العزيمة من هؤلاء الجيران فينبغي أن يعملوا جهدهم لإضعافهم وتحطيم معنوياتهم.. وقد أشار مكيافللي إلى أن لويس الثاني عشر باء بالهزيمة وخسر ممتلكاته في نابولي لتجاهله العمل بتلك القواعد الأساسية.

وفي أحد فصول كتابه المعنون "كيف تحكم البلاد المغلوبة" يقدم مكيافللى إحدى ثلاث وسائل في كيف يحكم شعب تعود أن يعيش في ظل قوانينه متمتعا بحريته؟ أولها أن يباد إبادة تامة والثانية أن ينتقل الغزاة إلى الإقامة في أرض ذلك الشعب، والثالثة أن يترك وشأنه يعيش في ظل قوانينه ويكتفى بفرض الجزية عليه وأن توكل الحكومة فيه لنفر قليل من الناس وهؤلاء يكفلون بقاء الشعب صديقا للحكم الجديد، ويرى مكيافيللي إن إحدى الوسيلتين الأولى أو الثانية هي أمثل الوسائل التي يجب اتباعها:

"وينبغي على الأمير أن ينظر حالة الولاية أو المدينة التي غلب عليها، فإذا كان الشعب فيها قد تعود العيش تحت حكم أمير انقرضت أفراد أسرته فإنه لا يستطيع أن يتفق على إقامة حاكم جديد بسبب طول خضوعه من جهة، ومن جهة أخرى بسبب موت حاكمه. ولما كان أفراده لا يستطيعون أن يعيشوا عيشة الأحرار، ومن ثم يعجزون عن حمل السلاح والدفاع عن أنفسهم، وقعوا فريسة سهلة لأي أمير أجنبي عنهم إذ يمكنه أن يسترضيهم ويضمهم إلى جانبه"

وتابع مكيافللى كلامه في فصل آخر عن الإمارات الجديدة فحذر الأمير الجديد بقوله "لا مندوحة للأمير الجديد من أن يذكر أن الجماهير متصلبة الطبع. وقد يكون من اليسير إقناعها بأمر إلا أنه من العسير أن تجعلها تثبت عليه وتؤمن به، فالواجب على الأمير إذا رأى الناس لا يستقرون على أمر أن يرغمهم عليه بالقوة، ويستطرد الكاتب في تمجيد

بورجيا والإشادة بأعماله ونعته بأنه الزعيم الأمثل في عصره وانتحال المعاذير له في كل ما اقترفه من الخيانة والاغتيال قال ما نصه:

"إنني عندما أستعرض جميع أعمال دوق بورجيا لا أجد فيها ما يحملني على توجيه اللوم إليه، بل على النقيض من ذلك، أرى فيه نموذجا مثاليا يجب أن يحتذيه أولئك الذين ساعدهم الحظ أو أعانهم غيرهم فارتفعوا إلى منصة الأمارة لقد كان لبوجيا نفس عالية وأهداف بعيدة المدى اقتضته أن لا يسلك غير الخطة التي سلكها وعلى هذا فكل أمير يحرص على الاحتفاظ بولايته الجديدة ويعمل فيها على كسب الأنصار ويبسط سلطانه بالقوة أو الحيلة ويحمل الناس على حبه ورهبته ويخلص له عسكره ويهابونه ويسبق إلى القضاء على أعدائه الذين يريدون القضاء عليه ويغير الوضع القديم إلى أوضاع جديدة ويتبع طريقي الشدة واللين في سماحة وبذل، ويقضي على العصاة في جيشه ويجمع غيرهم ويحرص على صلات المودة مع الملوك والأمراء حتى يكونوا له أعوانا مخلصين في شدته فإذا أساء إلى أحدهم لزم جانب الحذر والحيطة. لن يجد أولئك الأمراء نموذجا يحتذونه في أعمالهم خيرا من قيصر بورجيا".

ونصح كل مغتصب لحكم دولة "أن يبادر بالقضاء على خصومه بضربة واحدة كي لا يجهده تكرار الضربات وحتى يكون في القضاء عليهم عبرة وعظة فسكن الناس ثم يسعى بعد ذلك إلى كسبهم إلى جانبه بالبذل والسخاء على أن يكون البذل بحساب دون ما إغداق حتى يشعر الناس بلذة تواصل البذل"

والإرهاب بالعقوبات إحدى وسائل الحاكم الحصيف في حكم إمارته قال مكيافيللي ما نصه: "من أوجب الشروط على الأمير أن يستبقي صلات المودة بينه وبين شعبه حتى لا يخذلوه في محنته ولن أستمع لإنسان يردد المثل القائل بأن من يبني أمله على شعبه فإنما يبني على الرمال. فقد يصدق المثل هذا على العلاقات بين الأفراد. والفرد يدخر الناس لليوم الذي يطلب فيه معونتهم ضد أعدائه أو ضد الحكام الظالمين ولكن الأمير الذي يتصف بالشجاعة والإقدام ويفرض إرادته على شعبه ينشر الأمن في ربوع إمارته ولن يندم يوما ما لإقامة ملكه على أساس من حب الناس له"

وقد سخر مكيافيللي أيما سخرية من أمراء الإمارات الكنسية وهي تلك الإمارات التابعة للبابوية ووجه إليهم كل تهكم لاذع قال في وصفهم:

"لقد وصل هؤلاء الأمراء الدينيون إلى حكم إماراتهم عن طريق الكفاءة الشخصية أو بمجرد الحظ ولكنهم لم يعملوا على استبقائها بأي الطريقين إذ الحكم فيها على أساس الأوامر والنواهي الدينية التي تحمي الحكام وتضمن لهم البقاء أيا كانت أعمالهم وأيا كانت سيرتهم وطرق حياتهم وهؤلاء يحكمون إمارات لا يدافعون عنها ورعية لا يحكمونها"

ونرى في كتاب مكيافللي شذرات متناثرة في صفحاته يحمل فيها حملات شعواء على الكنيسة الرومانية في مقتبل القرن السادس عشر لأنها لم تعمل على توحيد الأمة الإيطالية لمواجهة الغزو الأجنبي؛ فنادى بمبدأ

فصل الكنيسة عن الدولة (أي ألا يكون للكنيسة أملاك دنيوية وألا يكون للدين دخل في شئون الدولة المدنية)

وقد كرس مكيافيللي صفحات كثيرة للشئون العسكرية لعظم أهميتها لأن وجود جيش قوي ضروري لكل دولة قوية. وكانت العادة في الدويلات الإيطالية أن تستأجر جنودا مرتزقة وأغلبهم من الأجانب تستخدمهم للدفاع عن أراضيها وأشار الكاتب إلى ذلك بأن مثل هذه الجيوش خطر على الدولة وأن الأفضل أن يؤلف الجيش من الشعب لأنه يكون أشد نفعا وإخلاصا. ولما كان الجيش هو عماد الأمة وجب على الأمير أن يوجه كل عنايته للأمور الحربية ويجعلها أول واجباته وشغله الشاغل.

وخصص ماكيافللي بعض فصول كتابه لإرشاد الأمير إلى الطرق التي يجب أن يسلكها في مختلف الظروف قال:

"من البديهي أن هناك اختلافا بينا بين حياة الإنسان الواقعية وبين ما يجب أن تكون عليه. ولأن للأمير الذي يعمل على تدعيم حكمه أن يتعلم أساليب الشر والأذى وأن يفعل الخير أو يمسك عنه في موضعهما حسب ما تقتضيه الظروف. ولا يختلف اثنان في أنه يجب أن يتحلى الأمير بجميع الصفات الحميدة. ولكن لما كان من المستحيل عليه أن يجوز كل هذه الصفات أو يمارسها جميعا باستمرار فمن الخير له إن يعرف كيف يخفي عن الناس تلك العيوب التي تحط من شأنه وتسلبه ملكه"

ولا يجدر بالأمير أن يتأذى إذا ما اشتهر بين الناس بالبخل والتقتير لأنه في ذلك "إما إن يجود بماله أو مال رعيته أو بمال يخص الآخرين. فإذا كان المال ليس ماله ولا مال رعيته فلا بأس من بذله للناس لأنه غنيمة غنمها بسيفه، ولهذا فالبذل لا يشين سمعته وإنما يزيد فيها. ولكن الضرر كل الضرر أن يبذل مما يملك. والبذل من المال الخاص أشد الأضرار التي تصيب الإنسان لأنك إذا تعودته ضيعت من يدك أداة فعالة وسيجرك جودك إلى أحد أمرين إما إلى الفاقة والاحتقار أو يدفعك الخوف من الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس فتصبح مذموما ممقوتا.

ولا يجب أن يتهيب الأمير استعمال أساليب العنف والقسوة لأنها من أدوات الحكم التي تستبقي جميع الناس متحدين مطيعين "لأن الحاكم الذي يقمع الفتنة بقتل عدد قليل من الناس يجعل منهم أمثولة لغيرهم سينتهي به الأمر إلى أن يعفو عن أعدائه ويكون في ذلك أكثر رحمة من الأمير اللين العريكة الذي يترك الأحداث في ملكه تتفاقم ثم ينتهي به الأمر إلى النهب والسلب وسفك الدماء فتصاب الدولة بأجمعها في الصميم، بينما نجد الحاكم الشديد لا تصيب قسوته إلا أفرادا معدودين"

يقول مكيافللي في فقرة أخرى اشتهرت بين فقرات كتابه ما نصه: "وعلى هذا تساءل الناس أيهما أفضل أن يكون الإنسان محبوبا ولا يخشى جانبه، أو أن يكون مهيبا دون أن يكون محبوبا؟.. ولعل أسلم جواب على ذلك هو أن يجمع بين الاثنين. ولما كان من غير المستطاع أن يجتمع الحب والخوف فالأفضل في رأينا أن يكون الإنسان مرهوب الجانب خيرا من أن

يكون محبوبا، لأن الناس يكمن في طبعهم الجحود وعدم الإخلاص والكذب والتهافت على السلامة والجشع للمال. وهم في خير أحوالهم يخلصون له ويضحون بدمائهم وأموالهم وحياتهم وأولادهم طالما كان الخطر بعيدا عنهم فإذا وقعت الواقعة وتأزمت الأمور كانوا حربا عليه وأعداءً له"

وهذه الفقرة من كلامه تنطوي على اعتقاد السوء في الناس، على أنه خفف من حكمه بعد مقارنة بين الحب والرهبة إذ أوصى الأمير "بأن يسعى جهده ليتحاشى مقت الناس له"

ولقي الفصل الثامن عشر من كتاب الأمير استنكارا عاما وقوبل بالاشمئزاز من جميع الناس وهو معروف تحت عنوان (كيف يفي الأمير بعهوده؟) وترجع صفات المكيافللية النكراء إلى هذا القسم من الكتاب أكثر من أي قسم آخر. وفي هذا الفصل ينكر أن الوفاء بالعهد صفة ممدوحة غير أن الخديعة والنفاق والحنث بالإيمان صفات ضرورية كذلك، وأنها مشروعة في سبيل الاحتفاظ بسلامة الدولة، قال مكيافللي ما نصه:

"وأمام الحاكم إحدى خطتين في مناضلة خصومه أما إن يطبق عليهم قوانين البلاد أو أن يستخدم القوة ضدهم، والأولى خاصة بالإنسان المتحضر والأخرى خاصة بالحيوان المتوحش. ولما كانت الأولى غالبا عديمة الجدوى فصح من الضروري الالتجاء إلى الخطة الثانية. وعلى الأمير أن يعرف كيف يستعمل طرائق معاملة الإنسان وطرائق الحيوان دون إفراط، وأجدر به أن يتخذ من طبيعة الحيوان عبرة كالأسد والثعلب مثلا، إذ أن

الأسد مع قوته لا يستطيع حماية نفسه من الوقوع في شرك الصياد، والثعلب مع دهائه لا يمكنه أن يدفع عنه الذئاب المفترسة، والأمير بالمثل معرض لتلك المخاطر ولهذا لا يجب أن يفي بوعده أو يصدق فيه إذا عرضه ذلك للكريهة والأذى وبخاصة إذا انفرجت الشدة التي أملت عليه أن يقطع العهود على نفسه. ولو أن الناس كانوا منصفين لكانت وصيتنا في غير موضعها ولكنهم على الضد جبلوا على النفاق والخيانة، فإذا كانت هذه حالهم فمن الحري بالأمير أن يعاملهم بالمثل ويتحلل من وعوده لهم، ولن يعدم ذريعة يتذرع بها لتبرير حنثه. والناس في كل زمان عبيد الحاجة، فإذا أراد أحد أن يضللهم وجد بينهم من يؤيده من البلهاء وصغار النفوس؛ فيجب إذن على الأمير أن يتظاهر بالحلم والصدق والإنسانية والتقوى والشرف، ولا بأس أن يكون كذلك على أن يظل عقله من الاتزان بحيث إذا اقتضت الضرورة والسلامة انقلب إلى ضد مظهره. والناس لا يدركون غير الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه الا القليلون"

وأوصى مكيافللي ذلك الأمير بأن يتجنب ما يجلب عليه كراهية الناس وازدراءهم، وذكر أن شيئين يجران إلى ذلك الوضع وهما "أن يكون جشعا ينهب أموال رعيته ويعتدي على نسائها، وكذلك يجر على نفسه احتقارهم بسبب تقلب أهوائه وخفة عقله وضعفه الخلقي أو جبنه وتردده، ويحسن بالحاكم أن يوزع جوائزه على الناس بشخصه ليتحبب إليهم، ويترك للقضاء توقيع العقوبات عليهم فيبتعد بذلك عن الشئون التي تثير مقت الناس وتذمرهم"

وأوصى الأمير في فصل آخر موسوم بعنوان "كيف يصطنع الأمير المحامد لنفسه" قال:

"يجب أن يظهر الأمير بمظهر الراعي للنبوغ والعبقرية في كل فن، فيكافئ كل من يبدي تفوقا في مهنته. وعليه أن يشجع أفراد رعيته على متابعة أعمالهم في التجارة أو الزراعة أو غيرها وان يضمن لهم الاستقرار والأمن كي يواصلوا السعي للارتقاء بها والتفنن فيها ويطمئنوا إلى أنه لن تنتزع منهم ثمارها وكي لا ينكص آخرون عن افتتاح متاجر جديدة خوفا من كثرة الضرائب عليها"

وتذكرنا نصيحة أخرى للأمير بما كان يجري في رومة القديمة لأن مكيافللى كان شديد الإعجاب بالنظم الرومانية إذ قال "ولا يغرب عن بال الأمير أن يقيم بين وقت وآخر حفلات كبرى للترفيه عن الناس"

ويبدو أن ماكيافللي كان يعترف بالحظ والقدر لاعتقاده بعلم التنجيم الذي كان شائعا في عصره قال "أعتقد أن الحظ يهيمن على نصف أعمالنا ويترك النصف الثاني أو أكثره لحرية إرادتنا، وكان في ذلك قدريا معتدلا لأنه رأى أن الإنسان يملك شيئا من حرية الاختيار في جزء ولو قليل من حظه. وكان يؤثر "أن يكون الإنسان جريئا على أن يكون حذرا، وفي رأيه أن الحظ أشبه بالمرأة التي لا تخضع إلا للشدة والقسوة، وأنها تطيع السيد العنيف وتفضله على غيره من الذين يعاملونها باللين واللطف قال: "والحظ

مثل المرأة يهوى الشباب ويتودد إليه لأن الشباب بما جبل عليه من القوة والعنفوان يستطيع السيطرة عليه سيطرة تامة"

ويختتم المؤلف كتابه بفصل عنوانه "نداء لتحرير إيطاليا"، وهو نداء حار خاطب به وطنية كل إيطالي إذ قدر أن الظروف في عصره مهيأة لاستقبال بطل إيطالي يخرج من بين الصفوف لأن إيطاليا في حالتها التعسة الذليلة أسوأ من رقيق اليهود وأهون من شعب فارس، لا زعيم يقودها، عارية عن كل نظام، مدحورة فريسة للنهب والسلب ممزقة كل ممزق، يجتاح أرجاءها العدو، ويشيع فيها الدمار بأبشع صورة، وهي اليوم ترفع أكفها للسماء في ضراعة إلى الله ليرسل إليها من ينقذها من وحشية طغاتها وبطشهم. وما أشد تطلعها إلى الالتفاف حول أية راية يرفعها إنسان في سبيل تحريرها"

ويختم مكيافللي هذا النداء الحار بفقرة بليغة قال:

"يجب أن تنتهز الفرصة السانحة في إيطاليا اليوم أيما انتهاز لينهض فيها زعيم إيطالي وستستقبله إيطاليا بصدر رحب وستوليه المدن والولايات التي عانت التخريب والغزو كل حب وإخلاص وتضحية، وستلقاه إيطاليا والدموع في عيشها والتعطش للأخذ بالثأر من أعدائها يتأجج في ضلوعها ولن تستطيع الألفاظ أن تعبر تعبيرا شافيا عن الآمال والأحاسيس، إذ لن تغلق مدينة أبوابها دونه، ولن يعارض الناس في الخضوع والطاعة له، ولن

يجد الحسد عقبة في سيله ولن يتوانى أي إيطالي في الترحيب بمقدمه فإن وحشية الظلم والبطش التي تجتاح إيطاليا اليوم قد زكمت أنوف كل أبنائها"

وقد ظل هذا النداء قرابة ثلاثة قرون ونصف خيالا قبل أن يتحقق حلم مكيافللي في قيام دولة إيطاليا موحدة لا يحتلها أجنبي ولا يسيطر عليها غريب. وقد نسخت عدة صور من كتاب الأمير وانتشرت بين الناس في حياة المؤلف وبعدها بسنين عديدة وسمح البابا كلمنت السابع بطبعه عام ١٥٣٢ والبابا هو ابن عم لورنزو دي مديتشي الذي أهدى المؤلف إليه الكتاب. وفي العشرين سنة التالية بلغت طبعاته خمسا وعشرين طبعة إلا أن سحب المعارضة ما فتئت أن تجمعت ضده فقرر مجمع ترنت الديني إعدام نسخه. وفي رومة اتهم مكيافيللي بالإلحاد فضرب الحظر على كتبه فيها وفي كافة البلاد الأوربية ، وقام اليسوعيون بعمل تمثال له في ألمانيا وأحرقوه، وعلت صيحات العداء له بين البروتستانت والكاثوليك على السواء. ولم يحل عام ١٥٥٩ إلا وكانت مؤلفات مكيافيللي وكتاباته مدرجة في القائمة السوداء للكتب المحظورة.

وظل الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر عندما بدأ العالم يرفع عنه عبء الحظر ويدفع عنه بعض التهم الموجهة إليه، إذ جاءت الثورات التي اجتاحت أمريكا وفرنسا وألمانيا وغيرها من البلدان فاستوحت منه مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة كما استوحت حركة تحرير إيطاليا التي تمت عام ١٨٧٠ خططها من كتاباته الوطنية. وقد أشار الكاتب (هـ. دوجلاس جريجوري) في مقال ممتع له أن الكونت كافور الزعيم السياسي الإيطالي، لم

يحالفه النجاح في سياسة القومية التي انتهت إلى تحقيق الوحدة الإيطالية وطرد الغزاة من أراضيها إلا حرصه على اتباع وتنفيذ الآراء التي نادى بها مكيافللي ولولا ذلك لضاعت جهوده.

ولا مراء أن كل المستبدين في كل جيل تلا عصر مكيافيللي قد أفادوا من آرائه في كتاب الأمير . فقد كان شارل الخامس وكاترين دي مديتشي من أكبر المعجبين بهذا الكتاب، واقتنى كرومويل نسخة مخطوطة منه وطبق الأساليب التي تعلمها منه على حكومة "الكومونولث" التي أنشأها في إنجلترا ، ولما قتل هنري الثالث وهنري الرابع ملكا فرنسا وجد الكتاب معهما، كما استوحى فردريك الأكبر سياسته منه، وأما لويس الرابع عشر فكان يديم النظر فيه قبيل نومه. ووجدت نسخة في عربة نابليون الخاصة بعد هزيمته في معركة واترلو، وكانت أغلب آراء نابليون الثالث في سياسة فرنسا مستمدة من هذا الكتاب. واعترف هتلر في كتاب (كفاحي) أن كتاب الأمير كان يلازمه في حجرة نومه وأنه كان مصدر إلهامه، وأما موسوليني فقال عنه واعتقد أن كتاب الأمير هو الدليل الصادق للرجل السياسي والآراء التي وردت فيه لا تزال حية فعالة لأن الأربعة قرون الماضية لم تحدث تغييرا أساسيا في عقلية الناس أو سياسة الدول، إلا إن موسوليني على ما يظهر عدل عن رأيه بعد ذلك إذ وضع الكتاب في قائمة الكتب المحظورة التي نشرها حزب الفاشست عام ١٩٣٩ ومن ناحية أخرى قرر المعقبون في تحليلهم الدقيق للأحداث التاريخية بأن فشل موسوليني وهتلر وسقوطهما نشأ من تجاهلهما أو سوء فهمهما للآراء الأساسية التي نادى بها مكيافللي.

وقد أجمع المشتغلون بدراسة آثار مكيافللي أن إنسانا ما لا يستطيع إدراك عقلية ذلك الرجل ومقاصده إلا بدرس كتابيه (المحاضرات) و(الأمير) كليهما. وكتاب (المحاضرات) الذي نشر مع كتاب الأمير في سنة واحدة قد استغرق من مؤلفه خمس سنوات طوال، والفارق المميز بين الكتابين أن كتاب المحاضرات يبحث فيما (يجب أن يكون) وأما كتاب الأمير فيبحث (فيما هو واقع فعلا) وفيه يعالج الكاتب حالة الإمارات الصغيرة التي يحكمها أمراء مستبدون. وأما كتاب المحاضرات فيعالج المبادئ العامة التي يجب أن تقوم عليها النظم الجمهورية.

فإذا انتهى القارئ من النظر في الكتابين أدهشه أن يكون مكيافللي جمهوري النزعة متحمسا للنظام الجمهوري وأنه يمقت النظام الاستبدادي ويرى أن الملكية المقيدة التي يشترك فيها الشعب مع التاج أمثل أنواع الحكم، لأن الحاكم أن يكون مطمئنا على عرشه ما دام لا يتمتع بثقة شعبه، وأن أعظم الأمم استقرارا واطمئنانا هي التي يحكمها أمراء تحت رقابة حكومة نيابية من الشعب. ولا مراء في اعتقاد مكيافللي برجاحة عقل الشعب بدليل مهاجمته وسخريته من المثل القائل (بأن من يبني على الشعب يبني على الرمال) ومثله الأعلى الذي أشاد به في الحكومة هو الجمهورية الرومانية التي طالما مجدها المرة بعد المرة في كتاب (المحاضرات).

ويعجب الإنسان من أن رجلا مثل مكيافللي يشيد بالنظام الجمهوري يؤلف كتابا مثل كتاب الأمير! فلماذا وضعه؟ والجواب هو أن الكتاب وضع خصيصا لفترة معلومة من الزمن والمعالجة مسائل محدودة

معينة لأن مكيافللي كان يدرك في عصره استحالة قيام حكومة جمهورية ناجحة في إيطاليا؛ فكتب ذلك الكتاب ليستحث به همة رجل قوي ليعمل على إنقاذ الشعب الإيطالي من حالة البؤس والفوضى السياسية فيه.. ولما كانت إيطاليا واقعة في أشد أزماتها وأبشع محنها وهي تناضل في سبيل الخلاص فليس من المعقول أن تفرق إيطاليا بين الوسائل المشروعة وغير المشروعة التي تستعملها للخلاص ولنيل الحرية.

ومع ذلك فلا يزال اسم مكيافيللي موضع خلاف كبير بين الناس، رغم الجهود المضنية التي بذلت في سبيل رد الاعتبار إليه وتخليص اسمه من التهم اللاحقة به فقد كتب (جوزبي برتزوليني) يصف حالة أوربا منذ سنوات مضت بأقوال تدل على أن رأي الناس في مكيافللي ما زال كما كان ولم يتغير قال (برتزوليني):

"نرى اليوم بين ظهرانينا صورا جديدة لمكيافللي، فهناك مكيافللى بين الجزويت وهو عدو الكنيسة، ومكيافللي بين الوطنيين وهو المسيح المنتظر للتوفيق بين شعب إيطاليا وأسرة سافوي، ومكيافللي بين العسكريين مبشرا بقيام جيوش وطنية، ومكيافيللي بين الفلاسفة وله آراء جديدة في التفكير مناديا بالروح العملية، ومكيافللي بين الكتاب يستحسنون حيوية أسلوبه وقوة لغته، وكل من هؤلاء مكيافللي أصيل شرعي" .

ولا مراء في أنه لم يقم رجل قبل كارل ماركس أحدث انقلابا أخطر من مكيافيللي في التفكير السياسي، فهو يعتبر بحق مؤسس علم السياسة.

تحريض أمريكا :

٢ـ كتاب العقل السليم

توماس بين

ما كان لرجل مهما بلغ عقله، أن يتنبأ بالمستقبل العظيم الذي كان ينتظر "توماس بين" غداة نزل إلى الأرض الأمريكية وهو لم يتعد السابعة والثلاثين من عمره؛ فقد كان ماضيه سلسلة متصلة من الفشل والخيبة، فما من عمل تولاه إلا وانتهى به إلى كارثة. تُرى ما السر في أن يبلغ هذا المهاجر إلى الدنيا الجديدة في سنوات قليلة ذلك الصيت الذائع فيعد من مشاهير كتاب الرسائل في اللغة الإنجليزية قاطبة، ومن أكبر الشخصيات التي ثار حولها الجدل في تاريخ أمريكا؟ ذلك السياسي المهيج المتمرد على الأوضاع السياسية الذي يرهب جانبه، والذي انقسم الناس بشأنه في المستعمرات الأمريكية وبريطانيا وغرب أوربا إلى مادح وقادح ومحبذ وساخط! ترى هل غيرته الرحلة عبر المحيط فبدلت شخصيته وخلقه فتحول بين يوم وليلة من رجل مغمور إلى عبقري مشهور؟

إننا لو دققنا النظر في ماضي (بين) لعلمنا أن السنوات الأولى من عمره لم تذهب سدى وإنما كانت تمهيدا لحياته المقبلة، ولد "بين" في بلدة (تنفورد بمقاطعة نورفلك) في شرقي إنجلترا يوم ٢٩ يناير سنة ١٧٣٧،

وكان أبوه من جماعة الكويكريين الدينية المعروفة، وأمه من رعايا الكنيسة الإنجيلية، وقد قاسى منذ طفولته الفاقة والحرمان والعمل الشاق، وكان حتى الثالثة عشرة من عمره يتلقى التعليم في إحدى المدارس الثانوية حيث تلقى على حد قوله "تربية أخلاقية متينة وجملة صالحة من المعلومات المفيدة"، وكان ميله إلى العلم والاختراع بارزا حتى في ذلك الوقت الباكر ولازمه طيلة حياته، ذلك لأنه كان يميل إلى الأمور العملية ويفضلها على الدراسات النظرية.

ولما انتهى من تلك الدراسة الشكلية القصيرة اشتغل مع أبيه في صناعة مشدات السيدات، ولم تمض عليه ثلاث سنوات بها حتى برم بصناعة أبيه واستهواه البحر وأغراه بالعمل فيه. فهرب من بلده ليعمل بحارا على سفينة تسمى "تريبل" يقودها قبطان يحمل اسم (ألموت) غير أن أباه أدركه وأعاده إلى دكانه فظل به حتى بلغ التاسعة عشرة ثم عاوده الحنين إلى البحر فعمل زمنا على ظهر سفينة أخرى تسمى (ملك بروسيا) فلما أشبع هوايته منها عاد إلى صناعته ثانية في مدينة لندن بدلا من بلدته، وظل يعمل في دكان لصناعة المشدات قرب (درووري لين) وكان يقضي فترات راحته في الاستماع إلى محاضرات في الفلك.

وعاش بعد ذلك عيشة قلق وتجوال وفي بلدة (ساندوتش) اقترن بخادم يتيمة قضت نحبها بعد عام واحد من زواجهما وكان أبوها من محصلي ضريبة الإنتاج وعندها خطر لـ (بين) أن يتقدم بطلب ليعمل محصلا للإنتاج كي يضمن لنفسه الفراغ للاشتغال بأعمال أخرى. وفعلا حصل

على وظيفة مفتش للإنتاج، ولكنه جلب على نفسه بغض الناس ومقتهم بسبب وظيفته، إذ كان عليه أن يضبط عصابات المهربين فعاداه الغني والفقير على السواء، ففصل من وظيفته بتهمة التهاون في تنفيذ القوانين فاضطر أن يعود إلى صناعته القديمة، ثم اشتغل بعد ذلك مدرسا في (كنزنجتن) بمرتب سنوي قدره خمسة وعشرون جنيها لا يكاد يسد رمقه. ولما عاد إلى وظيفته في مصلحة الإنتاج عام ١٧٧١ اشترك مع زوجته وحماته في بلدة ليوز في فتح دكان لبيع التبغ والبقالة ليستعينوا به على أمور معاشهم.

وفي تلك السنوات الأخيرة كان (بين) يقضي وقته في حانة (هويت هارت) حيث كان يجتمع بأعضاء ناد اجتماعي فانضم إليهم، ورغبة منه في الترفيه عن أعضاء النادي كان ينشدهم قصائد من شعره حشوها الظرف والدعابة ويؤلف الأناشيد الوطنية أو يشترك مع زملائه في مناقشة الحوادث الجارية. وكانت كفاءته في المناقشة والحوار سببا في أن يختاره زملاؤه من الموظفين نائبا عنهم في تقديم مظلمة يلتمسون فيها زيادة أجورهم وتحسين حالتهم في العمل؛ فعكف (بين) على إعداد هذه المظلمة عدة أسابيع وكتبها تحت عنوان (مسألة مرتبات مفتشي الإنتاج ومقترحات حول انتشار الرشوة الناشئة من ضآلة مرتباتهم) وقصد لندن في شتاء ١٧٧٢ – ١٧٧٣ ليعرض تلك الشكوى على أعضاء البرلمان والمسئولين والحكومة.

ولم تكن نتيجة رحلته رفض تلك الشكوى رفضا باتا فحسب بل كان نصيبه الفصل من الخدمة بسبب تغيبه عن مقر وظيفته فأفلست

تجارته واضطر أن يبيع أثاث بيته وأمتعته الشخصية حتى لا يسجن بسبب الدين، ثم هجرته زوجته وأصبح وهو في تلك السن المتقدمة وحيدا معدما.

إلا أن الحظ لم يهجره تماما إذ واتته الصدفة الحسنة فتعرف إلى (بنيامين فرانلكين) في أثناء رحلته إلى لندن، وكان هذا يعمل ممثلا رسميا للمستعمرات الأمريكية في بريطانيا، والظاهر أن (فرانكلين) توسم فيه الذكاء فنصحه بالهجرة إلى المستعمرات لعل الفرصة تواتيه هناك وزوده بخطاب توصية منه إلى زوج ابنته (رتشارد باتشي) في فيلادلفيا وصف فيه (بين) بأنه شاب ذكي كفء، وأوصاه أن يسعى لتعيينه كاتبا أو مدرسا أو مساعد مساح للأراضي. ولما وصل بين في ديسمبر ١٧٧٤ إلى فيلادلفيا كان خطاب التوصية الذي يحمله هو السند الوحيد له في دنياه الجديدة.

إلا إن (بين) كان يحمل في جعبته توصية أخرى من نوع آخر لا تقدر بثمن وهي تجاربه الشخصية في الحياة؛ فقد رأى بعينيه القسوة الوحشية التي كانت تطبق بها القوانين في إنجلترا وتحمل هو ذل الفقر في وطنه وسمع وقرأ كثيرا عن حقوق الإنسان الطبيعية ولمس الهوة السحيقة التي تفصل بين الملايين من أبناء الشعب وبين الفئة القليلة من أعضاء الأسرة المالكة والأشراف في إنجلترا. وكان يعرف كذلك سوء نظام الانتخاب الذي ينتخب على أساسه أعضاء مجلس العموم. هذا، إلى بلاهة الأسرة المالكة بالذات وانحلالها الخلقي. ولما أنعم النظر وأطال التفكير في هذه الأمور وأمثالها رثى لحال بني الإنسان واستولت عليه محبة طاغية لهم فانحاز بكليته

إلى النظام الديمقراطي وحفزه إلى المناداة بوجوب الإصلاح المنظم الاجتماعية والسياسية في العالم كله.

والتحق فور وصوله إلى فيلادلفيا بهيئة تحرير (مجلة بنسلفانيا) حديثة العهد وظل بها حتى توقفت عن الظهور بعد ثمانية عشر شهرا. وبدأ مرحلة الجهاد الذي أوقف حياته عليه بنشر مقال ندد فيه باستخدام الرقيق ودعا إلى وجوب تحريره، وسرعان ما تأسست على أثر هذا المقال بخمسة أسابيع أول جمعية لمناهضة استخدام الرفيق بمدينة فيلادلفيا. ثم تلت ذلك سلسلة من المقالات نادي فيها بضرورة المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق وغيرها، في وجوب عقد اتفاقات دولية للمحافظة على حقوق المؤلفين والناشرين وكذلك في الرفق بالحيوان، والاستهزاء بعادة المبارزة، بينما طالب بتحريم الحرب بين الأمم واستبعادها كوسيلة لتسوية المنازعات الدولية.

والغريب أن تنشب الحرب بين المستعمرات وبين إنجلترا ولم يكن جف بعد مداد هذه المقالة وكان مقدرا لـ (بين) أن يلعب فيها دورا خطيرا إذ رأى في ربيع ١٧٧٥ مواقع (كونكرد) و(لكسنتون) و(بنكرهل) وفي إبريل كتب إلى (فرانلكين) بعد موقعة لكسنتون مباشرة يقول "أحس أني مشئوم الطلعة على هذه البلاد فقد شبت النار في جوانبها في اللحظة التي وضعت قدمي على أرضها"

وانقسم الناس في المستعمرات الأمريكية بشأن السبيل التي يجب أن يسلكوها إزاء إنجلترا. ففي طرف نجد المتطرفين أمثال (صمويل أدامز) و(جون هانكوك) يحبذون محاربة إنجلترا، وفي الطرف الآخر فريق من المحافظين يستمسك بالولاء والطاعة للتاج البريطاني، وذلك إلى جانب ما بينهما من المعتدلين. وأما جورج واشنطن وبنيامين فرانكلين وتوماس جفرسون وغيرهم؛ فكانوا من دعاة التبعية لبريطانيا ولا يرضون بالانفصال والاستقلال عنها بدليل القرارات التي اتخذها مؤتمرا الولايات الأول والثاني اللذان أعلن فيها الأعضاء ولاءهم للتاج البريطاني ولم يطلبوا سوى مراعاة العدالة في إجابة مطالبهم.

وفي وسط هذا الانقسام في الرأي والمناقشات والاعتراضات ووسط هذا الأخذ والرد أدرك رجل واحد في جلاء ووضوح الاتجاه الذي تنساق إليه الحوادث كما أدرك النهاية المحتومة لها. وذلك هو (توماس بين) الذي رأى من بدء الحركة إن الانفصال عن إنجلترا أمر الا مناص منه، فقضى خريف سنة ١٧٧٥ كله عاكفا على تسجيل آرائه وعرض كتابه على بعض أصدقائه فاقترح أحدهم هو (بنيامين رش) أن يكون عنوانه (العقل السليم) وساعد (بين) على نشره وفعلا قام (روبرت بل) وهو اسكتلندي صاحب مكتبة ومطبعة في فيلادلفيا بطبع هذا الكتاب ونشره.

وظهرت نسخ الكتاب في السوق في العاشر من يناير سنة ١٧٧٦ دون أن يذكر عليه اسم المؤلف وإنما أشير إليه بأنه (بقلم رجل إنجليزي) ويقع الكتاب في ٤٧ صفحة وثمنه شلنان. ووصل عدد النسخ بعد ثلاثة

شهور من ظهوره إلى ١٢٠.٠٠٠ نسخة وأما التقدير النهائي للبيع فبلغ نصف مليون نسخة ويقول الخبراء أن هذا الرقم بالنسبة لعدد السكان يعادل في أيامنا ما يقرب من ثلاثين مليونا من النسخ في الولايات المتحدة، فقد قرأه كل من يعرف القراءة والكتابة في الثلاث عشرة ولاية على وجه التحقيق. ورغم كل هذا الرواج رفض (بين) أن يتسلم أي مبلغ مقابل حقوق التأليف.

ولسنا نعرف في تاريخ الأدب كتابا بلغ أثره المباشر في نفوس الناس ما بلغه كتاب بين. فقد أهاب بسكان المستعمرات الأمريكية ودعاهم إلى القتال في سبيل استقلالهم دون هوادة أو تردد، إذ نبههم أن الثورة هي المخرج الوحيد لنضالهم ضد إنجلترا وجورج الثالث. قال بين (أيها الناس.. بما أنه لا معدي عن الحرب والقتال في هذه المشكلة فإنني أستحلفكم بالله أن تقرروا الانفصال النهائي وإلا فإننا سندفع ثمنا باهظا لنحصل على إلغاء القرارات، إن كان هذا كل ما نحصل عليه .. إنه من الحرقان تندفع دماء غالية مثل التي بذلناها في معركة (بنكرهل) في سبيل قانون أو في سبيل أرض. إن مسألة اليوم ليست مسألة يتقرر فيها مصير مدينة أو مركز أو ولاية أو مملكة وإنما سيتقرر فيها مصير قارة بأكملها، وليست هذه الأحداث أحداثا عابرة تنتهي بين يوم ويوم أو عام وعام وإنما هي أحداث تتصل بجميع الأجيال المستقبلة، واليوم بل والساعة هي الفرصة المواتية لقيام الاتحاد بين جميع الولايات في إخلاص وثقة. إنه لا يزال عرى اتحادنا مفككا ولا شيء أقوى من الاستقلال في توثيق وحدتنا وصيانة اتحادنا.

فإذا نظرنا في مقدمة هذا الكتاب وجدنا فيه فقرة هادئة نسبيا ولكنها تقطع على القارئ كل حجة، قال بين:

"قد تكون المشاعر التي يعبر عنها هذا الكتاب لا تزال غريبة على القراء بحيث لا تنال لديهم استحسانا عاما لأن طول عهد الناس بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان جعل الخطأ يبدو في مظهر الصواب، فإن تصدى لنقده أحد ضجوا بحجة وجوب احترام التقاليد المرعية إلا أن ضجتهم هذه لا تلبث أن تخف حدتها فالزمن كفيل بتغيير آرائهم أكثر مما تغيرها الحجج والمنطق.

والجزء الأول من الكتاب يعالج نشأة الحكومة وطبيعتها في النظام الدستوري الإنجليزي. وتتلخص فلسفة الحكم عند الكاتب فيما يلي:

"ليست الحكومة حتى في أحسن حالاتها سوى شر لا بد منه وفي أسوأ حالاتها شر لا يطاق احتماله، والحكومة أشبه بالرداء، فهو ضروري لإخفاء العورة وما قصور الملوك إلا صروحا مقامة على أنقاض الجنة فأرقى المدنيات أقلها حاجة إلى حكومة"

وإن سبب قيام الحكومات في هذا العالم ضرورة خلقها عجز القوى المعنوية عن حكمه، ولكن الحرية والأمن هما مقصد الحكومة والغاية منها، ثم أوضح المؤلف الفروق بين الهيئة الاجتماعية وبين الحكومة، وقدم أن الناس اختاروا العيش في المجتمع لأنهم رأوا في التعاون المتبادل بين أفراده قضاء لبعض حوائجهم وإشباعا لرغباتهم، ولأن الفرد وسط المجتمع يتمتع

بحقوق طبيعية كالحرية والمساواة وأن المثل الأعلى للفرد في المجتمع هو العيش في سلام وسعادة دون ما حاجة لحكومة "لو أن الناس استمعوا إلى صوت الضمير الواضح المتسق وعملوا به على الدوام". وإذا كان الجنس البشري قد جبل على الضعف وفيه نقص في الأخلاق فلا بد له من قوة تحد من جماحه وهذه القوة هي الحكومة، وعلى ذلك فإن العبء يقع على المجتمع أكثر مما يقع على عاتق الحكومة – عبء صيانة السلام والتقدم والرفاهية بين الناس. فالعادات الاجتماعية والتقاليد السليمة والروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الناس أقوى أثرا في تنظيم المجتمع من أي نوع من الحكم.

ثم يستطرد بين إلى وصف "النظام النيابي الإنجليزي الذي يتشدقون به" قال: "إننا نسلم جدلا بأن ذلك النظام كان يعتبر خيرا عظيما في عصره عندما نشأ لأنه كان عصر جهالة وعبودية". وعندما يكون الناس رازحين تحت أثقل أعباء الظلم والبطش، فكل تخفيف من الحيف، مهما يكن طفيفا، يعتبره الناس منة عظيمة. ومع كل فهذا النظام بادي النقص عرضة للتقلبات ومن الهين التدليل على أنه لا يحقق مطلقا الخير المرجو منه. فإذا كانت المسئولية هي أهم واجب يقع على عاتق الحكومة فالدستور الإنجليزي خلو منها أو يكاد لأنه يبلغ من التعقيد حدا لا يستطاع معه تحديد الجهة التي تقع عليها المسئولية. والنقطة الوحيدة الجديرة بالثناء في ذلك الدستور هي الحق الوحيد الذي يتمتع به الشعب نظريا على الأقل في انتخاب نواب مجلس العموم. واقترح بين أن ينتخب مجلس تشريعي واحد انتخابا ديمقراطيا لتمثيل جميع الولايات الأمريكية،

كما اقترح أن يكون هنا رئيس الجمهورية الولاية، ووزارة مسئولة أمام الكونجرس.

ووجه بين أقذع ألفاظ الاحتقار إلى الملكية الوراثية فهاجم ذلك النظام برمته وخاصة في إنجلترا قال:

"إن أول من أقام نظام الملكية في العالم هم الوثنيون وعنهم نقل أبناء إسرائيل هذا النظام. وهو أعظم اختراع أبدعه الشيطان لتخليد الوثنية وعبادة الأصنام فقد درج الكفار على أن يؤلهوا ملوكهم بعد موتهم وقلدهم المسيحيون وفاقوهم فألهوا ملوكهم في حياتهم ثم جئنا نحن فزدنا شرور الملكية ما هو أنكى فجعلناها وراثية. فإذا كان في الأولى مهانة وانتقاص لكرامتنا ففي الثانية، وقد أصبحت حقا مشروعا، سبة وافتئات على الأجيال. والدليل القاطع على فساد نظام الملكية الوراثية الطبيعة نفسها وإلا لما اكثرت من أن نخرج للناس وريثا للعرش لا يعدو أن يكون حمارا في صورة أسد".

وفي نظر (بين) أن شرعية توارث ملوك إنجلترا للعرش أمر مشكوك فيه منذ الفتح النورمندي، وقال في شرح ذلك ما نصه: "نزل يوما ما على شاطئ إنجلترا رجل فرنسي مجهول الأصل والنسب على رأس عصابة من اللصوص وقطاع الطرق، ونصب نفسه ملكا على إنجلترا رغم أنف أهل البلاد. فهو في الحق من أصل لئيم تافه ومهما يكن أمره فمن ذا الذي يصدق أن يكون فيه عنصر إلهي؟ ولو أن الملكية أنجبت سلسلة من رجال

عقلاء خيرين لما كان لنا اعتراض عليها، ولكنها عوضا عن ذلك فتحت الباب لكل ملتاث العقل لئيم الطبع ملوث السيرة؛ فالرجال الذين يعتقدون أنهم ولدوا ليحكموا الناس، وأن الطاعة فرض واجب لهم، سرعان ما يداخلهم الغرور والصلف لأن اصطفاءهم من بين الناس وإيثارهم عليهم منذ الصغر تسممان أذهانهم بسم العظمة والسلطان، فإذا تولوا الملك تبين أنهم أجهل خلق الله وأشدها عجزا، كذلك أباح هذا النظام تولية الأطفال والمسنين من الملوك عرش البلاد مما يجر وراءه أكبر الشرور، ففي الحالة الأولى يدير الدولة وصي، وفي الأخرى تقع البلاد فريسة لجنون ملك مخرف متهدم الجسم.

ولما اعترض بعضهم بأن الملكية الوراثية تحول دون الحروب الأهلية والثورات الداخلية أجاب (بين) بأن إنجلترا منذ الفتح النورمندي "نشبت بها ثمان حروب أهلية وتسع عشرة ثورة داخلية، وختم كلمته عن الملكية بقول:

"إن كل ما يشتغل به الملك في إنجلترا هو إعلان الحرب وتوزيع الإنعامات على المقربين وبعبارة أخرى يعمل الملك على سلب مال الأمة وإفقارها وإشاعة الفرقة بين أبنائها. والحق أنها وظيفة ظريفة مجزية تدر عليه ثمانمائة ألف جنيها كل عام غير فوزه بتأليه الناس له. وفي رأينا أن رجلا واحدا شريفا محترما ليعد في نظر الله خيرا من جميع أولئك الأوغاد المتوجين قاطبة"

وقد ذكر (بين) الملك جورج الثالث بكل احترام وإكبار في كتابه، ولكنه عاد بعد مذبحة لكسنتون فكتب "لقد برئت إلى الله من فرعون إنجلترا إلى الأبد، ذلك الرجل الفظ الغليظ القلب، ذلك الخبيث الذي يدعو نفسه أبا الشعب، زورا وبهتانا، والذي لم يختلج له طرف عندما بلغت مسامعه أنباء مذابح شعبه واستطاع أن ينام هادئ البال ودمهم يلطخ جوانب نفسه"..

وفي فقرة أخرى أضاف قوله: "ولكن قد يقول الناس وأين ملك أمريكا؟ وأنا أجيبك أيها الصديق بأنه إله السماوات الله لا يعيث في الأرض فسادا مثل ما يعيث فيها ملك إنجلترا المتوحش"

ولما انتهى من كلامه ونقد الآراء الشائعة عن الملكية في إنجلترا انتقل (بين) إلى موضوع أخر هو (بعض الآراء عن الحالة الراهنة في أمريكا) قدم فيها حججا اقتصادية تؤيد رأيه في الانفصال عن إنجلترا، وأجاب على اعتراض أنصار بريطانيا من المحافظين بأن أمريكا لم تنعم بالرخاء الا بسبب علاقتها بإنجلترا بقوله:

"باستطاعة أمريكا أن تتمتع بنفس الرواج بل بأوفى قسط منه حتى ولو لم تكن لها علاقات بأية دولة أوروبية لأن السلع التي تنتجها أو تتجر فيها وتدر عليها الأرباح الوفيرة هي المواد الضرورية للحياة، وستظل تجد أسواقا لبضائعها ما دامت أوربا تحتاج للطعام. إن قمحنا سيباع في أي سوق في أوربا وأما وارداتنا فلنا أن نشتريها من أي مكان نختاره"

ودحض القول بأن إنجلترا حمت سكان المستعمرات من هجمات الإسبان والفرنسيين والهنود الحمر فقال "إن إنجلترا لا تتورع إذا رأت من مصلحتها أن تحمي تركيا لنفس الأسباب وهي التجارة والاستعمار، وعلى أية حال فإن تكاليف الدفاع عنا "كانت قسمة بيننا"

وأدرك (بين) أن العامل الرئيسي الذي كان يربط إنجلترا بالمستعمرات هو فكرة عاطفية مفادها أن بريطانيا هي الدولة الأم لها. قال وإذا كان ذلك صحيحا فيا للعار لتلك الأم فإن الحيوان لا يلتهم صغاره ولا يقتل المتوحشون أولادهم. وأما التسمية بأنها "الأم"، فقد اتخذها الملك وأتباعه حيلة منهم وخديعة حتى يؤثروا في ضعفاء العقول من بيننا. إن أوروبا بأجمعها هي أسرة الدنيا الجديدة وليست بريطانيا، وأشار إلى أن الأرض الأمريكية كانت الملجأ لجميع المضطهدين في كل بقعة من بقاع أوربا بسبب استمساكهم بالحرية المدنية والدينية فليس بين سكان هذه البلاد أكثر من ثلثها من سلالة إنجليزية حتى سكان هذه المقاطعة التي تعيش فيها، ولذلك فإني أنبذ لقب الأم أو لقب الأهل الذي تلقب به إنجلترا نبذا تاما لأنه لقب زائف يدل على الأثرة والخسة والتفاهة..

وكأنما تنبأ (بين) بالسياسة التي رسمها جورج واشنطن عندما قال بتجنب أي ارتباط سياسى مع أي دولة أجنبية في العالم، وكذلك سياسة توماس جفرسون عندما قال "السعي للسلام والتجارة والصداقة الخالصة مع جميع الأمم دون أن تتقيد معها بأي التزامات"، وأبدى الأضرار التي تنجم عن استمرار التبعية لإنجلترا قال:

"إن كل خضوع أو ارتباط بإنجلترا سيزج بنا حتما في غمار حروب ومنازعات على القارة الأوروبية ويجعلنا أعداءً لبعض الأمم التي نرغب في صداقتها رغبة أكيدة وهي أمم لا نحمل لها ضغنا ولا تشكو منها. وحيث أن أوروبا هي السوق الرئيسية لتجارتنا فيجب علينا ألا نعقد أي تحالف مع أي دولة أخرى. إن المصلحة الحقيقية لأمريكا هي أن تتجنب الدخول في المنازعات الأوروبية وهي لن تستطيع اتباع تلك السياسة ما دامت مرتبطة ببريطانيا وسيقع علينا الغرم دائما لأن أوروبا تكتظ بدول متنافسة يستحيل عليها أن تبقى في سلام مع بعضها البعض إذ كلما نشبت حرب بين إنجلترا وبين دولة أخرى كان فيها خراب تجارة أمريكا بسبب ارتباطها ببريطانيا"

ثم عدّد الأضرار التي تنجم عن الحكم الإنجليزي وختم الفصل بالفقرة الآتية:

"ليس في استطاعة إنجلترا أن توفر العدالة لهذه القارة؛ فإن المسائل سوف تصل من التعقيد والضخامة إلى درجة يستحيل حلها حلا مريحا معقولا على يد دولة تفصلنا عنها مسافات شاسعة تحول دون وقوفها على حقيقة أحوالنا فإذا كانوا لا يستطيعون غزو بلادنا فإنهم لا يستطيعون حكمها. فتصوروا أن يجري إنسان في يده مظلمة أو قصة ما ثلاثة أو أربعة آلاف ميلا ثم ينتظر الجواب أربعة أشهر أو خمسة حتى إذا فاز به انتظر خمسة أسابيع أو ستة أخرى حتى يفسر مضمون الجواب إلا بعد هذا، بعد بضعة أعوام، هو الجنون والبلاهة بعينها. أليس من الهراء أن تتحكم جزيرة

صغيرة باستمرار في أقدار قارة عظيمة. إن الطبيعة لم ترتكب مثل هذا السخف فلم تجعل تابع الكوكب أكبر من الكوكب نفسه"

ثم وجه (بين) نداء حارا إلى المترددين وضعاف القلوب وأنصار التفاهم والتهدئة قال:

"لو إن إنسانا استطاع أن يسترد الماضي! أو استطاع الفجور والعهر أن يستعيد شرفه المعلوم، إذن لكان من المستطاع أن يعود الوئام إلى سابق عهده بين إنجلترا وأمريكا! لقد انقطع آخر حبل يصل بيننا وبينها فإن الشعب الإنجليزي يرفع اليوم صوته بالعداء لنا. إن هناك إهانات وأذى لا يمكن البشرية أن تصفح عنها أو تتناساها وإلا فقدت الأشياء طبيعتها ولو أن عاشقا صفح عن مغتصب عشيقته لصفحت أمريكا عن الدماء التي أراقتها إنجلترا"

وما دام سائر الدنيا يرزح تحت أعباء الظلم والاستبداد فيجب على أمريكا أن تفتح أبوابها ليلجأ إليها الأحرار وأن تجعل أرضها وطنا للإنسانية المضطهدة.

وقد خصص (بين) الفصل الختامي من كتابه للكلام عن النواحى العملية "إمكانيات أمريكا في عصرنا"، وهدف من وراء ذلك إلى تدعيم الثقة بالنفس بين الأمريكيين وإلى إقناعهم بأنهم يملكون القوة العددية والمقدرة الصناعية والثروة الطبية التي يستطيعون بها أن يقاتلوا إنجلترا بل أكثر من ذلك للدفاع عن أنفسهم أمام أي عدوان أيا كان مصدره إذا

اقتضى الأمر. فالمستعمرات الأمريكية تملك فعلا جيشا مسلحا مدربا، وأما القوة البحرية فمن المستطاع بناؤها في وقت قصير جدا لأن المواد الأولية اللازمة لها توجد بكثرة عظيمة كالقطران والأخشاب والحديد والحبال وستكون "صناعة بناء السفن من مفاخر الصناعة الأمريكية، وأنها سوف تميز بها جميع دول العالم" ومهما قبلنا الرأي فلا بد لأمريكا من إنشاء سلاح بحري خاص بها لأنه ضرورة لازمة لحماية شواطئها، لأن البحرية الإنجليزية وهي ترسو على بعد ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ميلا قليلة الجدوى والنفع لنا في الظروف العادية، فما بالك لو حدثت أزمة طارئة تستدعي إسعافا عاجلا فسيكون نفعها لا محالة في حكم العدم"..

ثم انتقل بعد ذلك إلى موضوع الخلافات الدينية التي تورط فيها فأعلن وجهة نظره في الدين في هذه المرحلة من حياته قال:

"وأما عن الدين فإني مقتنع كل الاقتناع بأنه ما من مهمة أسمى من أن تحمي الحكومة المدنية جميع العقائد الدينية وأربابها (وهو رأي يدل على معارضته لقيام كنيسة رسمية وتأييده لفصل الكنيسة عن الدولة)، وإنني أعتقد اعتقادا كاملا مخلصا أن الله جلت قدرته أراد أن تكون هناك مذاهب متعددة حتى يتيح للمسيحيين أوسع مجال لنشر رحمته بين العالمين، ولو أنه جعل الناس أمة واحدة ذات تفكير واحد لضاقت حلقة عقائدنا الدينية وعجزت عن التجدد والبحث. وعلى هذا الأساس اعتبر الفرق الدينية أسماء أفراد تضمهم أسرة واحدة"

ثم عاد إلى تلخيص اعتقاده بأن الحل الوحيد لاستقرار أمور الشعب الأمريكي بسرعة لن تكون الا بإعلان الاستقلال والانسلاخ عن إنجلترا إعلانا صريحا لا رجعة فيه، وفي نهاية كلمته ذكر أربعة أسباب رئيسية يحبذ بها الانفصال هي: (١) أنه ما دامت أمريكا مستعمرة بريطانية فلن تجرؤ دولة أخرى على التوسط بيننا لفض الخلاف القائم. (٢) ولن تمد إسبانيا ولا فرنسا يدها لإصلاح ذات البين بين أمريكا وإنجلترا إذ من البديهي أن يتعارض ذلك العمل مع صالحهما. (٣) ما دام الأمريكيون يعترفون بأنهم رعايا بريطانيا فإن الدول الأجنبية ستعتبرهم ثوارا متمردين لا يستحقون العطف. (٤) أقترح أن توضع مذكرة بشكوى مفصلة تشرح ما تقاسيه أمريكا من الحكم الإنجليزي وتوضح عزمها الأكيد على الانسلاخ عنها نهائيا. ثم ترسل هذه المذكرة إلى جميع الدول ويجب أن تتضمن التعبير عن ميول أمريكا السلمية نحوهم ورغبتها في أن تنشئ علاقات تجارية مع تلك الدول ولو قامت أمريكا بذلك العمل لكان لهذه المذكرة أحسن الأثر في الأوساط الدولية .

وختم (بين) هذه الكلمة بتشبيه يؤيد به حججه قال:

"... وستظل هذه القارة حتى الساعة التي تحزم فيها أمرها على إعلان استقلالها، أشبه برجل يرجئ حل مسألة شائكة من يوم إلى يوم، وهو يعلم علم اليقين، أنه لا بد له من حلها إن آجلا أو عاجلا، ولكنه لا يقدم على ذلك توجسا وتهربا، ويود في قرارة نفسه لو أنها تنتهي، وهكذا يظل في شغل شاغل بها، ترهقه ضرورة إنجازها والخلاص منها"

ولكل هنا أرى أنه بدلا من أن يتهم بعضنا البعض، أو يرتاب الناس بالناس، أن يمد كل إنسان منا يد الصداقة الخالصة لأخيه ونتعاهد جميعا فنضع حدا فاصلا بيننا وبين الماضي ونتفق على تناسيه فندفن بذلك كل خلافاتنا الماضية. فلنتفق على محو كلمتي "ثوري" و"هويج" من بيننا، وعلى ألا يسمع بعدها إلا لفظ المواطن الصالح، والصديق الصدوق أو النصير لحقوق الإنسان وحقوق الولايات المتحدة الأمريكية المستقلة الحرة".

تلك كانت الرسالة الثورية التي حملها كتاب (العقل السليم) إلى صميم الشعب الأمريكي وهو كتاب جرى به قلم ذلك الثائر المتمرد بسليقته لم يترك فيه شاردة ولا واردة من الأدلة والحقائق الواقعة إلا أحصاها، ذلك فضلا عن نداءاته الحماسية العنيفة، المغرقة في التحيز والحزبية.

ونستطيع أن ندرك مدى ما أحدثه كتابه من وقع شديد عاجل بين أهل زمانه بإيراد شيء من تعليقات قادة الرأي المعاصرين للمؤلف؛ فنذكر مثلا أن جورج واشنطن – بعد قراءة الكتاب – انقلب تردده يقينا، إذ كتب إلى (جوزيف ريد) في نورفلك يقول: "يكفي أمثال العبارات النارية التي نشرت في (فلموث) و(نورفولك) مضافة إلى المبادئ السليمة والحجج الدامغة التي جاءت في كتاب (العقل السليم) حتى يحزم كثيرون من الناس رأيهم ويؤيدوا مبدأ الانفصال عن إنجلترا، وكذلك كتب إليه أيضا بعد بضعة أسابيع أن جميع الرسائل الخاصة التي وصلتني أخيرا من فرجينيا تؤكد أن كتاب "بين" أحدث تغييرا بالغا في آراء كثير من الناس، وكذلك كتب

(جون أدامز) إلى زوجته، أرسلت إليك كتاب (العقل السليم) وفيه يشرح مؤلفه الأسباب التي تبرر مبادئه التي ينتظر أن يزداد استمساك الرأي العام بها كلما ازداد الضغط والإرهاب، ووصله رد منها تقول فيه: "أن (العقل السليم) أشبه بشعاع من الإلهام هبط علينا في حينه ليبدد شكوكنا ويحدد السبيل الذي ينبغي أن يختار. وقال (بنيامين رش) عن كتابات (بين) "أنها تنطلق من المطبعة انطلاقا شديد الوقع لم نر له مثيلا في أي بلد آخر ولا في أي عصر آخر، وقال (جنرال لي): أعترف بأنني اقتنعت بآرائه، وقال فرانكلن "لقد أحدث هذا الكتيب أبعد الآثار وأعجبها"، وقال (وليم درايتون): "لقد كان وقع هذا الكتاب على نفوس أعضاء الكونجرس القاري وقع الصاعقة"، ونختتم هذه المقتطفات بالتعليقات التي كتبها (سير جورج ترفليان) في كتابه (تاريخ الثورة الأمريكية) قال ما نصه: "من العسير أن نذكر اسم كتاب غير منزل أحدث أثرا مباشرا شاملا دائما مثل ذلك الكتاب.. لقد أغار عليه كتاب كثيرون فسرقوا آراءه أو عارضوها، وقلده البعض الآخر، وترجم إلى جميع لغات الشعوب التي أفصحت عن أطيب تمنياتها للجمهورية الجديدة وقد دلت التعليقات المستفيضة للصحف على أن كتاب (العقل السليم) كان سببا في اجتذاب آلاف من الأنصار إلى فكرة الانسلاخ عن إنجلترا والاستقلال عنها، وهؤلاء لم يدر قط بخلدهم تلك الفكرة قبل قراءته. لقد أتى ذلك الكتاب حقا بما يقرب من معجزة إذ حول المحافظين إلى أحرار".

وبعد بضعة شهور من ظهور هذا الكتاب أصدرت معظم الولايات أمرها لممثليها في الكونجرس بالتصويت بالموافقة على فكرة الاستقلال ولم

يشذ غير (ماريلاند) التي كانت مترددة، وولاية نيويورك التي عارضت المشروع. وفي الرابع من شهر يوليه ١٧٧٦ أي بعد ستة شهور من ظهور كتاب (بين) اجتمع والكونجرس القاري في دار الولاية (ستيت هاوس) بفيلادلفيا وأصدر إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ورغم أن (بين) لم يشترك في وضع نصوص الإعلان إلا أنه كان دائم الاتصال بـ (توماس جفرسن) وقت كتابة الصيغة النهائية للإعلان، وقد تضمن هذا جميع المبادئ التي نادى بها (بين) إلا مبدأ واحدا هو تحريم الرقيق.

وأما تاريخ حياة بين بعد ذلك فلا يتصل بقصة (العقل السليم) اتصالا مباشرا، ونجتزيء بذكر طرف يسير منها؛ فعقب إعلان الاستقلال مباشرة التحق بالجيش الجمهوري واستمر يكتب كتابات مستفيضة في سبيل القضية الأمريكية مناديا بوجوب توحيد صفوف الأمة توحيدا تاما وتقوية روحها المعنوية واشتهر من كتاباته سلسلة من الكتيبات عنوانها (الأزمة) واشتهر أولها باستهلاله بالأسطر الآتية التي جرت على ألسنة الناس مجرى الأمثال قال:

"هذه هي الأيام التي تمتحن فيها أفئدة الرجال. إنه لن يتخلف عن خدمة الوطن في هذه الأزمة القائمة إلا جندى جبان أو رجل محب لنفسه خائر العزيمة. ولكن الرجل الذي يضطلع بنصيبه فيها الآن يستحق التمجيد والحب من هذه الأمة رجالا ونساءً".

ثم كان أن قدر الكونجرس كفايات (بين) في الدعاية ورفع الروح المعنوية فعينه رئيسا للجنة الشئون الخارجية أو بعبارة أخرى كان (بين) أول وزير الخارجية في الولايات المتحدة. وعلى أثر خلافات نشبت بينه وبين الكونجرس استقال من منصبه وعوض عن ذلك بتعيينه سكرتيرا للجمعية التشريعية في بنسلفانيا. وفي ١٧٨١ أرسل إلى فرنسا مع (جون لورنس) للحصول على قرض مالي تستعين به الحكومة في أزمتها المالية، فعاد في السنة ذاتها يحمل المال والمعونة.

وفي عام ١٧٨٣ كانت الثورة الأمريكية قد بلغت أغراضها فانصرف (بين) إلى الاختراعات الآلية فصمم أول جسر معلق، واشتغل بتجربة قوة البخار فلما عرض اختراعاته على المسئولين تقرر أن يستشار في صلاحيتها المهندسون في فرنسا وإنجلترا لإبداء رأيهم فنيا. فسافر (بين) إلى أوروبا حيث بقي بها خمسة عشر عاما.

ولم يطل مكثه في أوروبا حتى نشبت الثورة الفرنسية الكبرى فأيدها بكل ما أوتي من قوة لأنها تدل على صحة آرائه الديمقراطية، ودافع عنها دفاعا مجيدا، ورد على خطب (ادمند برك) خطيب مجلس العموم البريطاني وهجماته عليها بوضع كتاب (إعلان حقوق الإنسان) الذائع الصيت. فما أن نشر هذا الإعلان حتى اضطر للفرار من إنجلترا خوفا من القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى بسبب الآراء التي تضمنها إعلانه، ولجأ إلى فرنسا فانتخب عضوا في الجمعية الوطنية الثورية نائبا عن مدينة كاليه. وحاول محاولة جبارة أن ينقذ حياة لويس السادس عشر، فاصطدم بزعماء الثورة

من أمثال روبسبير ومارا، فلما استوليا على السلطة قبض عليه وجرد من الجنسية الفرنسية الفخرية وسجن عشرة شهور ولم ينج من المقصلة إلا بمحض الصدفة، وأخلي سبيله بسبب مرضه، وبناء على طلب من السفير الأمريكي (جيمس مونرو) وظل في ضيافة السفير حتى شفي.

وأعظم كتاباته في تلك الفترة هو كتاب (عصر العقل) وأسماه بعضهم (إنجيل الملحد) أورد فيه انتقادات شديدة على كتاب العهد القديم، ورغم ذلك فإن (بين) كان مؤمنا بوحدانية الله واليوم الآخر إلا أن موجة الإلحاد التي اجتاحت فرنسا في عصر الثورة دعته إلى كتابة ذلك الكتاب حتى يحد من طغيانها، فحكم عليه رجال الدين والجمعيات الدينية الأرثوذوكسية بأنه زنديق ومتطرف خطر.

ولما عاد (بين) إلى أمريكا عام ١٨٠٢ تنكر له الناس بدلا من استقباله استقبال بطل قديم من أبطال الثورة الأمريكية، فقد تجنبه الزعماء السياسيون والمتدينون من الناس بسبب تأليفه كتاب (عصر العقل) وبسبب تطرف آرائه السياسية. ولما أقام في بلدة (نيوروتشل) بمقاطعة نيويورك جرد من حقوقه السياسية في الانتخاب بحجة أنه ليس مواطنا أمريكيا، وبلغت الحال أن حاول أحدهم اغتياله. وبعد سبع سنين قضاها مهانا منبوذا عانى فيها الفاقة والإهمال من الناس قضى نحبه عام ١٨٠٩ وهو في سن الخامسة والسبعين ورفضت جماعة الكويكريين أن يدفن في مقابرهم.

وقد ظلت حملة الأكاذيب والترهات والحقد التي لصقت بسمعته في أواخر أيامه متصلة إلى زمن قريب جدا وقد أشار إليه (تيودور روزفلت) "بأنه زنديق قذر حقير"، ولكن (بين) لم يكن زنديقا ولم يكن قذرا حقيرا قط، شأنه في ذلك شأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي لم تكن رومانية ولا مقدسة ولا إمبراطورية. وحتى عام ١٩٣٣ رفضت إحدى محطات الإذاعة في نيويورك أن تذيع نبذة عن تاريخ حياة (بين). ولكن ما أن حل عام ١٩٤٥ حتى اختير اسمه لينقش في سجل الخالدين بين عظماء رجال أمريكا في (بهو المجد) أي بعد تأسيسه بخمسة وأربعين عاما، وفي العام نفسه تقدمت مدينة (نيوروتشل) فردت إلى بطل الثورة اعتباره وحقوقه السياسية التي حرمها منذ عام ١٨٠٦.

هذا هو تاريخ الرجل، ولعله أجدر من أي إنسان آخر بلقب "مؤسس الاستقلال الأمريكي"، فهو أول من استعمل عبارة "الولايات المتحدة الأمريكية"، وأول من تنبأ بأن الولايات المتحدة سوف يدوي اسمها في التاريخ مثلما يدوى اسم بريطانيا العظمى. وهو القائل "إن قضية أمريكا هي في جملتها قضية الجنس البشري عامة" وما من كلمة تبرز متانة أخلاق (بين) أقوى من رده على فرانكلن عندما قال هذا "إن وطنى كل بلد يعتنق الحرية" فأجابه (بين) على الفور بقوله المشهور "إن وطني كل بلد حرم الحرية "

ولم يكن الانتقاص من قدره والحقد عليه عاما حتى أيام حياته فإن (أندرو جاكسون) كان له من الشجاعة الأدبية ما بعثه على القول بأن (بين) ليس في حاجة إلى تمثال تنحته الأيدي، لأنه أقام لنفسه تمثالا في قلوب كل الذين يعشقون الحرية.

حرية التجارة :

٣ـ كتاب ثروة الأمم

لآدم سمث

لم يمض أكثر من شهرين على نشر كتاب (العقل السليم) الذي عجل بإعلان استقلال الولايات المتحدة وبغيره من الأحداث الجسام في الثورة الأمريكية، حتى ظهر كتاب في لندن قدر له أن يحدث أثرا عميقا في ناحية أخرى من نواحي النشاط الإنساني. وهو يختلف عن كتيب (بين) الزاخر بالحماسة في أنه سفر ضخم غزير المادة يقع في جزئين كبيرين، ذلك هو كتاب (بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسباها) لآدم سمث، فلم يستلفت أنظار الناس في أول الأمر لأنه كان أشبه بقنبلة زمنية لم يحدث أثره الفعال في التو واللحظة وإنما أحدثه بعد قرن من الزمان من وفاة صاحبه.

الحق إن عام ١٧٧٦ يعتبر حد فاصلا بين نهاية عهد وبداية عهد آخر، إذ كانت الثورة الأمريكية قد بدأت بينما كانت الثورة الفرنسية في دور الاختمار، والثورة الصناعية قد زاد في نشاطها وتقدمها اكتشاف قوة البخار. وقد وصف أحد الكتاب العصر السابق لتلك الثورة بأنه "العصر المظلم للعهد الحديث".

ففي إنجلترا كانت الحكومة مسيطرة سيطرة فعلية على جميع وجوه النشاط الصناعي في البلاد، فحددت الأسعار وأجور العمال وساعات العمل، ونظمت الإنتاج المحلي، كما سنت القوانين للتجارة الخارجية من حيث التصدير والاستيراد كليهما. ولما كانت إنجلترا في حروب متواصلة اقتضت السياسة القومية أن تحتفظ بجيش قوي وأسطول ضخم، كما اقتضت زيادة عدد السكان الاستيلاء على مستعمرات جديدة في أنحاء العالم، وإضعاف قوة كل أمة أخرى منافسة لها، كفرنسا، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة. وأما في السياسة الداخلية فقد لقيت كل فكرة عن توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الطبقات أشد المقاومة وخاصة من الطبقة الحاكمة. وكان التعليم مقصورا في ذلك العصر على الفئة القليلة المثرية. وأما القانون الجنائي فكان صارما كل الصرامة ولم يكن الشعب يتمتع بحقوقه السياسية إلا نظريا، أما عمليا فقد كان محروما منها.

وظلت الطبقة الأرستقراطية من كبار الملاك، كما كان شأنها في الماضي، مسيطرة على أزمة الحكم، غير أن طبقة جديدة قوية بدأت تظهر إلى جانبهم وهي طبقة التجار الأثرياء وكبار رجال الصناعة، وهؤلاء طلبوا بدورهم مطالب وامتيازات خاصة بهم. وكانت هذه الطبقة تستمسك بعدة مبادئ اقتصادية منها أن تصدير السلع للخارج مصدر للرواج والرخاء، بينما ترى الاستيراد وتسرب النقد خارج البلاد يضر بمصلحتها، كما أنه من الواجب مراعاة أن يكون الميزان التجاري في صالح البلاد دائما، وأن تكون أجور العمال منخفضة وساعات العمل كثيرة. وأهم من ذلك جميعا مطالبتهم الحكومة بأن تحمي التجارة زيادة الضريبة الجمركية على البضائع

الأجنبية زيادة كبيرة، وأنه يجب أن يكون لإنجلترا أسطول تجاري قوي كبير. واستطاعت تلك الطبقة أن تقنع الحكومة بأن حماية التجارة سيعود بديهيا على البلاد بالنفع العظيم، واضطر البرلمان تحت ضغط دعاية واسعة أن يصدر عدة قوانين حققت الكثير من مطالبهم.

ثم كان أن جاء (آدم سمث) ليقوض عامدا كل نظام اعتقد بخطئه وضرره. وتاريخ سمث في صباه يعتبر مرحلة تمهيدية للعمل العظيم الذي آلى على نفسه أن يضطلع به وهو من أصل اسكتلندي دخل جامعة جلاسجو عام ١٧٣٧ وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وتتلمذ فيها على أستاذ كبير يسمى (فرانسيس هتشسون) وكان الأستاذ كثيرا ما يردد عبارة واحدة "توفير أكبر قسط من الرفاهية الأكبر عدد من الناس" حتى أصبحت هذه العبارة عقيدة ثابتة في نفس سمث ومنهجا بارزا في فلسفته، ثم انتقل بعد ذلك إلى جامعة أكسفورد حيث قضى ست سنوات عكف فيها على الاطلاع والنظر في جملة صالحة من الكتب والمؤلفات المختلفة. ولما عاد إلى اسكتلنده ألقى عدة محاضرات حتى عام ١٧٥١ عندما عين أستاذا لكرسي المنطق وعلم ما وراء الطبيعة، ثم أستاذا لكرسي الفلسفة الأدبية في جامعة جلاسجو، وظل يشغل ذلك الكرسي اثني عشرة سنة عرفه الناس محاضرا محبوبا ممتازا. وقد زاد من شهرته كتاب أصدره باسم (نظرية العواطف الخلقية) وقد اعتبر معاصروه هذا الكتاب أعظم شأنا من كتاب (ثروة الأمم). ثم كان أن أغراه حسن المكافأة على الاستقالة من كرسيه ليكون رائدا مرافقا لأحد أبناء الأثرياء في رحلة تستغرق ثلاث سنوات في

القارة الأوربية، وفيها تعرف على عدد عظيم من كبار رجال الاقتصاد والفلسفة والزعماء السياسيين وخاصة في فرنسا.

وحتى عام ١٧٥٩ لم تكن أصول كتاب (ثروة الأمم) غير مسودات متناثرة بين أوراقه. واستغرق ظهور الكتاب وقتا طويلا، وسبب ذلك أنه قضى السنوات العديدة في التفكير والدروس والمطالعة وتقييد شوارد ملاحظاته الشخصية وتدوين محادثاته مع نفر غير يسير من الناس يعملون في شتى مرافق الحياة، ثم في مراجعة ما كتب مراجعة دقيقة متواصلة. وكان يعرض أصول كتابه على بنيامين فرانكلن مندوب المستعمرات الأمريكية وناقشا معا محتوياته في السنوات الثلاث السابقة على ظهور الكتاب أثناء وجود فرانكلين في لندن. وأخيرا صدر الكتاب في التاسع من شهر مارس عام ١٧٧٦ . ومنذ ظهوره أعيد طبعه عدة مرات وترجم إلى معظم اللغات الحية في العالم.

والحقيقة أن هذا الكتاب من الإحاطة والاتساع بدرجة تخرجه عن مجرد كتاب في الاقتصاد؛ فقد وصفه أحد النقاد "أنه تاريخ عام ونقد شامل للمدنية الأوربية". افتتح المؤلف كتابه بمناقشة قاعدة تقسيم العمل، واستطرد منها إلى نشأة النقد واستعماله وأثمان الحاجيات وأجور العمال وأرباح الأسهم وإيجار الأرض المزروعة وقيمة الفضة والفروق بين العمل المنتج والعمل غير المنتج. وانتقل بعد ذلك إلى تاريخ التطور الاقتصادي في أوربا منذ سقوط الدولة الرومانية القديمة، ثم عرض بالتحليل والنقد للسياسة المالية والتجارية التي تتبعها الدول الأوروبية في عصره،

ولمخصصات الأسرة الملكية والأساليب المتبعة في الدفاع والعدالة في البيئات البدائية وأصل الجيوش القائمة ونموها في أوروبا، وتاريخ التعليم في القرون الوسطى، ونقد نظام الجامعات في عصر سمث، وتاريخ السلطة المدنية للكنيسة، وتزايد الديون العامة.. ثم ختم كل هذه المسائل بتحليل دقيق لقواعد فرض الضرائب ونظام الإيراد العام للدولة.

والنظرية الأساسية في كتاب (ثروة الأمم) نظرية ذات نزعة مكيافللية، وهي "أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها. وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري! وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها، وإنما هي على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته. وفي رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلا بد من ترك "كل فرد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقيد بأي قيد؛ فللحصول على غذائنا لا نعتمد على كرم الخمار أو الخباز أو الجزار وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من منفعتهم الشخصية. وإننا عندما نخاطبهم لا نتجه إلى ما فيهم من دوافع إنسانية وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية. ولا نكلمهم عن احتياجاتنا بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة".

وبسبب هذه الآراء قال رسكن عن سمث "إنه الاسكتلندي الغبي الهجين الذي يدعو الناس عامدا إلى ارتكاب التجديف في الدين بقوله وعليك أن تكره الرب إلهك وتعصى وصاياه وتشتهي مال قريبك".

ودلل سمث على رأيه بأن نجاح الصناعة الحديثة لم يتيسر إلا بعاملين هما تقسيم العمل واستخدام رأس المال، وقد نشأ هذان بدافع المصلحة الشخصية أو بـ "النظام الطبيعي للأشياء" كما عبر عنه فلاسفة القرن الثامن عشر لأن الله أحكم ذلك الترتيب بحيث جعل في سعي الإنسان لنفع ذاته منفعة للبشر أجمعين. ويترتب على ذلك بالطبع ألا تتدخل قوة أخرى في ذلك النظام الاقتصادي السماوي إلا بأدنى حد، وهو ما قاله (توم بين) بشكل آخر "إن أعدل حكومة هي أقلها حكما"

وقد وضح سمث وجهة نظره في تقسيم العمل بمثل عملي في صناعة الدبابيس، قال ما نصه: "لو فرضنا أن عاملا غير ماهر في هذه الصناعة، يجهل طريقة استعمال آلاتها، حاول جهد طاقته، لما صنع غير دبوس واحدة في يوم بأكمله. ومن البديهي أنه لن يستطيع صنع عشرين منها" ولكن بتقسيم هذه العملية بجملتها إلى ثماني عشرة عملية صغرى يقوم بها عمال يختص كل منهم بعملية منها رأيت مصنعا صغيرا لهذه الصناعة يشتغل به عشرة عمال ينتجون فيما بينهم قرابة ثمانية وأربعين ألفا من الدبابيس في يوم واحد. وهذه نتيجة لتقسيم العمل وتنسيق عمليات الصناعة".

واستطرد سمث يقول بأن ظاهرة تقسيم العمل موجودة منذ وجود البيئة البدائية قال سمث: "نجد في القبيلة التي تشتغل بالصيد أو الرعي مثلا شخصا بالذات يفوق الآخرين في صناعة القسي والنشاب من حيث الإتقان والسرعة. وهو يقايض بها أصحابه على الماشية أو الصيد البري،

فيجد يوما ما أنه يملك من الصيد أكثر مما لو خرج للاصطياد بنفسه، وبذلك تحفزه مصلحته الشخصية إلى إن ينقطع لصناعة القسي والنشاب فتصبح مهنته الرئيسية..

ولنضرب مثلا آخر في بناء أكواخهم، فنجد أن صانعا ما تخصص في إقامة هياكلها وسقوفها، وكذلك ثالثا يشتغل بصناعة الحديد أو النحاس ورابعا يتخصص بصناعة دبغ الجلود وتنظيفها.. وهكذا يدرك الفرد أنه ما دام يجد سوقا رائجة لما زاد عن حاجته من منتجاته ويبادلها بما ينتجه الآخرون، ففي صالحه أن يتخصص في صناعة ما، وينقطع إلى تحسينها بكل ما أوتي من موهبة وذكاء حتى يصل بصناعته إلى حدود الكمال أو يكاد" .

ثم يستطرد في بحث مسائل النقد وأثمان حاجيات المعيشة، ويقرر نظريته عن العمل وهي نظرية رفضها علماء الاقتصاد عامة، ولكنها صادفت هوى في نفوس الاشتراكيين في العهود الأخيرة ونادوا بها. قال سمث ما نصه: "إن العمل كم لا تتغير قيمته ولذلك فهو وحده أضبط المقاييس، وأهمها تقييم الإنتاج في كل زمان ومكان إذ هو الثمن الفعلي له وأما النقود فهي القيمة الاسمية".

وقد حمل سمث حملة شعواء في كتابه عندما تكلم عن عدم التكافؤ بين طبقة العمال وبين طبقة الرأسماليين عند تحديد الأجور، وكذلك عند معارضته لآراء أنصار مبدأ الحماية الجمركية معارضة شديدة فيما ادعوه بأن

انخفاض أجور العمال يدفعهم إلى مضاعفة الإنتاج والعمل مما يعود بالرخاء على إنجلترا. قال معارضا تلك الآراء: "من المشاهد أن العمال يطلبون رفع الأجور بينما يعمل أصحاب الأعمال على تخفيضها، فالأولون يتحدون لرفع الأجور بينما يتحد الآخرون للعمل على خفضها، وليس من اليسير أن يتنبأ الإنسان بمن سيكون الفائز ومن سيكون المغلوب. فأرباب الأعمال، وهم فئة قليلة، يستطيعون دون عناء تكوين جبهة متحدة ويقرهم القانون على ذلك أو على الأقل لا يحرم اتحادهم، بينما يحرم اتحاد العمال – وليس في القوانين التي أصدرها البرلمان ما يحرم اتحاد أصحاب العمل لتخفيض الأجور – بينما نجد الكثير منها يحرم على العمال الاتحاد للمطالبة بزيادتها. وفي مثل تلك المنازعات نجد أصحاب العمل يستطيعون الصمود في وجه العمال مدة أطول من هؤلاء؛ فصاحب الأرض أو كبار المزارعين وأرباب المصانع يستطيعون أن يعيشوا عاما أو أعواما على الإنتاج الذي ادخروه من قبل دون ما حاجة إلى استخدام عامل واحد. ولكن لا يستطيع أكثر العمال أن يعيشوا دون عمل أكثر من أسبوع واحد، وقليل منهم من يستطيع أن يعيش شهرا، وأقلية طفيفة منهم قد تستطيع العيش سنة كاملة. وستأتي في آجل الظروف التي يصير فيها العامل لازما لصاحب العمل لزوم الأخير للعامل ولكن هذه الضرورة لا تبدو ظاهرة في العصر الحاضر" .

ولا مراء أن سمث كان شديد العطف على طبقة العمال المهضومين كما تدل عليه الفقرة الآتية في كتابه قال:

"إن الخدم والعمال والأجراء يؤلفون الغالبية العظمى في كل مجتمع سياسي. ولا يتصور مطلقا أن يكون تحسين حال الغالبية ضارا بمصلحة المجتمع، وإنما الصحيح أنه لن تتوفر السعادة والتقدم في أي جماعة تكون فيه الفاقة والبؤس نصيب غالب أفرادها.. ألا يكون من الإنصاف أن أولئك الذين يطعمون الناس ويعملون لتوفير الغذاء والمسكن لهم أن ينالهم نصيب من إنتاج أيديهم يمكنهم هم أيضا من أن يتمتعوا بقسط معقول من الغذاء والكساء والمسكن؟.. ولا مراء في أن الأجور العالية تزيد من نشاط عامة الناس؛ فأجور العمل ما هي الا تشجيع على المثابرة، وشأنها شأن كل فضيلة إنسانية تزداد قوة تبعا للتشجيع الذي تلقاه. ويترتب على هذا أنه حيث تكون الأجور مرتفعة نجد العمال أكثر نشاطا وهمة وحرصا على العمل منهم في أي مكان آخر تكون فيه أجورهم منخفضة"

ويقول في فقرة أخرى:

"لقد ارتفعت صيحات تجارنا وأصحاب المصانع بالشكوى من الأضرار التي تصيبهم من ارتفاع أجور العمال إذ تسبب غلاء المنتجات الذي يؤدي إلى كساد تجارتهم في الداخل والخارج. ولكنهم يتجاهلون الإفصاح عن الأرباح الفاحشة التي يحققونها. وهم أشد تجاهلا للآثار السيئة الناشئة من تلك الأرباح وتنصب كل شكواهم على الأجر الطفيف الذي يتقاضاه العمال".

ولقد تنبأ سمث بنظريات (مالتس) قبل أن ينشر هذا كتابه (قواعد السكان) قال:

"إن كل نوع من أنواع الحيوان يتكاثر تكاثرا طبيعيا بنسبة تتفق مع وفرة أسباب معيشته، ولن يستطيع نوع منها أن يتجاوز هذه النسبة. ولكننا نرى في المجتمع الإنساني المتمدن أن ضيق سبل الرزق بين الطبقة الدنيا هو العامل الذي يحد من تكاثر النسل بارتفاع كبير في نسبة وفيات الأطفال الرضع"

فإذا قارنا ما كسبه العمال من الحقوق في العصور الحديثة بالقيود الإقطاعية السائدة في عصر (آدم سمث) لوجدنا هذه القيود مما لا يمكن تصوره وتصديقه؛ فالخطر الذي فرض إذ ذاك على أي تكتل عمالي كان من أقسى العوائق التي وضعت في طريقهم، كما كانت القوانين الخاصة بالتدريب المهني والتوطين أشد وأنكى.

فصدور قانون التدريب المهني للصبيان يرجع إلى عهد الملكة إليزابث، وكما ذكر سمث، ينص على أنه لا يجوز لأي شخص في المستقبل أن يزاول مهنة أو حرفة أو تجارة مسموحا بمزاولتها في الوقت الحاضر في إنجلترا إلا بعد أن يجتاز تدريبا في تلك الصناعة مدته سبع سنوات على الأقل، وفي تلك المدة لا يقدم صاحب العمل لصبيه غير وجبات الغذاء. فانتهز أصحاب العمل العديمي الضمير تلك الفرصة لاستغلال عمالهم استغلالا مرهقا فأخذوا منهم الكثير وأعطوهم القليل. بينما كان المبتدئون

من المتدربين في حالة عبودية سافرة". وفي تنديده بتلك المساوئ أكد سمت أن طول مدة التدريب أمر لا ضرورة له، لأن أغلب الحرف والمهن يمكن أن يتعلمها أو يتلقنها المبتدئ في بضعة أسابيع، وهذا إلى أن لوائح التدريب في ذاتها تتدخل في الحقوق المشروعة للعمال في حرية التعاقد مع الجهة التي يرغب العمل فيها أو الانتقال من عمل غير مجزئ إلى آخر أكثر أجرا، وحرية اختبار العمل الذي يرغبه العامل.

ولا يقل قانون التوطين شدة عن سابقه. كتب سمث ما نصه:

"أستطيع أن أقول بأنه لا يوجد في إنجلترا رجل فقير في سن الأربعين لم يشعر بالإرهاق والظلم في فترة من حياته بسبب ذلك القانون، وقد صدر هذا القانون مثل سابقه في عهد الملكة إليزابث. وكان غرض المشرع من إصداره أن ينظم توزيع المعونة الاجتماعية للمحتاجين، فنصَّ على أن يكون كل (مركز) مسئولا عن رعاية الفقراء من أهاليه، فكان أن منع كل مركز أي إنسان من الاستقرار فيه إلا إذا كان يملك مالا كي لا يتضخم عدد المحتاجين في الناحية! ولما طبق على العمال والأجراء كانت النتيجة قيام طبقة من الناس حكم عليها بالسجن مدى الحياة في موطن ولادتهم إذ أقيمت العراقيل في سبيل حرية انتقال أي عامل للعمل من ناحية إلى أخرى، وبذلك ضرب سمث مثلا آخر عن الأضرار التي تنشأ من تدخل الحكومة الجائر في حرية الإنسان وتعطيل التمشي الطبيعي للنظام الاقتصادي.

وأراد سمث أن يبين لنا الفرق بين "العمل المنتج" و"العمل غير المنتج" فقال ما نصه:

"إن الأمم الكبرى لا تفتقر أبدا بسبب إسراف أفرادها وسوء سلوكهم، وإنما قد تتأثر من إسراف حكوماتها وتهورها. إن كل دخل الدولة، أو الشطر الأكبر منه، ينفق على عمال غير منتجين، مثل ذلك الحشد العظيم من رجال الحاشية في قصور الملوك، وكذلك الهيئات الدينية ورجال الجيش والبحرية، وهؤلاء لا يؤدون أي عمل منتج لا في السلم ولا في الحرب. ومثل هؤلاء الذين لا يؤدون عملا يعيشون على حساب إنتاج الآخرين؛ فإذا حدث أن تكاثروا وزاد عددهم عن الحد المعقول فسوف يأتي اليوم الذي يستهلكون فيه أكبر جزء من الإنتاج القومي بحيث يصبح الباقي منه لا يفي بحاجة الأيدي العاملة المنتجة".

ثم تكلم عن تشغيل الرقيق وأبدى في ذلك رأيا صائبا لم تستمع إليه أمريكا للأسف الشديد قال:

"إن ما علمناه من تجارب الأمم على مر العصور يظهر بأجلى بيان أن العمل الذي يؤديه الرقيق، رغم أنه يبدو رخيصا لأنه لا يكلف غير مؤونة العبد، هو في نهاية أمره عمل مرتفع التكاليف جدا؛ فالرجل المحروم من أن يتملك شيئا لا يكون له في حياته هدف غير سد جوعه وبذل أقل مجهود في عمله، لن يقوم بأي شغل إلا بالقدر الذي يوفر له قوته، فإذا

أريد منه زيادة إنتاجه أرغم على ذلك بالقوة والقسر لأنه لا مصلحة له في أن يجهد نفسه بالعمل"

وانتقل سمث من مشاكل العمل إلى المطالبة بإصلاح القوانين الزراعية لأنه رأى في القوانين السائدة ظلما وعقبة في سبيل التقدم، إذ أن معظم الأراضي في بريطانيا في القرن الثامن عشر كانت أوقافا وحبوسا، ومن حق مالكها أن يضع شروطا لتقسيمها وبيعها تقيد حرية التصرف فيها لعدة أجيال مقبلة من ورثته بعده، وكذلك كان الشأن في قانون الاحتفاظ بملكية الأرض كاملة غير مقسمة، وهو قانون إقطاعي عتيق. ويقضي هذا القانون بأن الابن الأكبر هو الوارث الوحيد لأملاك أبيه.. قال سمث: "ولا يمكن أن نتصور قانونا يهدد حقوق أفراد الأسر الكبيرة مثل هذا القانون الذي يفرض الحرمان والفقر على كل الأفراد ليوفر الثروة الوارث بمفرده"، وحض على حرية انتقال ملكية الأراضي بإلغاء قوانين الحبوس وقوانين عدم التقسيم وجميع القيود التي تحرم حرية تداولها وهبتها وبيعها والتنازل عنها بالوصية.

واشتهر بين فصول هذا الكتاب فصل عن المستعمرات قال عنه أحد القضاة: "سيظل هذا الفصل أحسن ما كتب في موضوعه"، وقد قسمة المؤلف ثلاثة أجزاء: الأول (عن العوامل التي تجعل فتح المستعمرات أمرا ضروريا) وفيه عرض شامل للاستعمار في اليونان القديمة وروما القديمة والبندقية والبرتغال وإسبانيا. والجزء الثاني في (أسباب ازدهار المستعمرات الحديثة) وعدد فيه هذه الأسباب مثل اتساع رقعة الأرض ورخص أثمانها ثم

ارتفاع الأجور ونمو عدد السكان ومعرفة المستعمرين بالزراعة وغيرها من الحرف، وقارن بين سياسة إنجلترا السخية المستنيرة في مستعمراتها وبين السياسة التي اتبعتها البرتغال وإسبانيا. والجزء الثالث في (المنافع التي عادت على أوروبا من كشف أمريكا وطريق رأس الرجاء) واعتبرهما "أنهما أعظم كشفين في تاريخ الإنسانية قاطبة" وندد سمث بكل سياسة ترمي إلى احتكار التجارة في المستعمرات لأنها إهدار للحقوق الطبيعية لسكانها، كما ندد بسياسة الحماية الجمركية في المستعمرات بأنها تلحق الضرر بها وبإنجلترا على السواء لأن في ذلك إرهاقا للمستعمرين وامتصاصا غاشما لثمرة جهودهم، وسوف تنتهي هذه السياسة إلى تذمر المستعمرات بالضرائب التي يقتضيها الدفاع عنها في حالة الحرب.

واستطاع سمث أن يرى حال المستعمرات الأمريكية الثائرة على حقيقتها، وكان أكثر واقعية من أغلب معاصريه، واقترح للدفاع عنها أن يمثلها في البرلمان أعضاء نواب عنها على أساس حصيلة الضرائب التي تجبي منها مفضلا الاتحاد بدلا من الانفصال، فإذا حدث أن زادت إيرادات المستعمرات عن إيرادات إنجلترا، وهو أمر غير محتمل، كان من الضروري أن تنقل العاصمة إلى أمريكا أي إلى ذلك الجزء من الأرض التي ساهمت بأكبر قسط في الدفاع عن الإمبراطورية، ووفرت الرخاء لجمع أبنائها، ولعل في هذه الكلمة الرد المسكت لما قاله توم بين من "أنه من العجب أن تحكم قارة كبيرة بواسطة جزيرة صغيرة" لأنه لو صح حدوث هذا الأمر لكان عكس ما قاله (بين).

فإذا لم يوجد حل للخلافات القائمة بين إنجلترا والمستعمرات الأمريكية يقترح سمث منحها الاستقلال التام، ولكنه عقب على ذلك بقوله:

"إن هذا الاقتراح الذي يؤدي إلى تنازل إنجلترا عن كل حق لها في المستعمرات وتركها وشأنها في انتخاب نوابها وفي سن قوانينها وفي إعلان الحرب والسلم. هذا الاقتراح سيكون أول إجراء من نوعه في التاريخ بأجمعه، ولن تأخذ به أمة من أمم العالم، ولكنا سنجد حكمنا للمستعمرات عصا مقلقا وأن الإيراد الضئيل الذي تدره لن يكون إلا جزءا يسيرا من المصروفات والتكاليف التي يتطلبها الحكم بالقوة"

وتدل الفقرة العجيبة التالية على صفاء ذهن سمث وصدق فراسته عن المستقبل الباهر الذي ينتظر أمريكا قال:

"سيصبح التجار وأصحاب الحوانيت والمحامون من المستعمرين الأمريكيين ساسة ومشرعين يعملون جاهدين في وضع لون جديد من الحكم الإمبراطورية شاسعة يقدرون لها أن تصبح يوما ما – وهم على حق في تقديرهم – من أعظم وأقوى الأمم التي شهدها العالم قاطبة"

ولعل أشهر أركان الكتاب هو القسم الرابع المعنون باسم (أنظمة الاقتصاد السياسي)، وفيه يعرض المؤلف نوعين من الأنظمة هما: نظام التجارة، ونظام الزراعة.. إلا أنه خصص من صفحاته عن التجارة ثمانية أمثال ما خصص للزراعة. وفي كلامه عن التجارة أسهب سمث في تفصيل

مبدأ حرية التجارة، وهو المبدأ الذي اقترن باسمه منذ ظهور كتابه، إذ أن جميع النتائج التي توصل إليها في مشاكل العمل والأرض والسلع والنقد والأثمان والزراعة والأسهم والضرائب تبلورت كلها من الحجج التي تؤيد مبدأ حرية التجارة داخلا وخارجا. لقد رأى وجوب ترك الحرية للتجارة كاملة دون تقييد في داخل البلاد وخارجها. وبهذا وحده يمكن أن يسود الرخاء والنشاط المجتمعي. وحض سمث على إلغاء الضرائب الجمركية والامتيازات والقيود والمسموحات التي يحدها أنصار حماية التجارة وإلغاء الاحتكارات التي تتمتع بها الشركات، إذ أنها جميعا عوائق تعطل التقدم الطبيعي للصناعة والتجارة وتسير وصول الحاجيات لطالبيها من المستهلكين. وحث على التخلص من الفكرة الخاطئة المسماة بـ (الميزان التجاري) وهي الفكرة التي يعتز بها أنصار حماية التجارة، فالنقد ما هو إلا وسيلة وأداة، ولا أعرف بأي مقياس نستطيع أن نضبط في صالح أي جانب يكون الميزان بين دولتين أو أيهما أكثر؛ فالثروة لا تتكون من النقد أو الذهب أو الفضة، ولكنها القدرة الشرائية للنقد، وبذلك يكون النقد ذا قيمة في مدفوعاتنا لا غير.

إن صح مبدأ تقسيم العمل بين الأفراد فهو صحيح كذلك بين الأمم قال:

"إن العوامل الطبيعية التي تجعل أمة ما تتفوق على غيرها في نوع خاص من أنواع المنتجات قد تكون بدرجة تجعل الأمم الأخرى تعترف باستحالة منافستها في صنع تلك السلعة؛ ففي اسكتلنده مثلا يستطاع

إنتاج أنواع جيدة جدا من العنب في داخل "الصوب" بتسخين التربة وتسخين جدران الصوب، وبذلك يمكن إنتاج أصناف جيدة من النبيذ، ولكن بتكاليف تزيد ثلاثين مثلا على ثمن ما يستورد منه من الخارج.. فهل من الصواب أن تفرض ضرائب جمركية مرتفعة على النبيذ المستورد كي تحمى صناعة الأنبذة في اسكتلنده؟"

ولخص سمث فوائد حرية التجارة قائلا:

"يستمسك رب الأسرة الحصيف بأن لا يصنع صنفا في بيته يكلفه أكثر من ثمن شرائه من السوق. فإذا كان هذا الرأي سليما في الحياة الخاصة فهو كذلك في الشئون العامة للدولة. فإذا زودتنا أمة بسلعة أرخص في التكاليف مما لو صنعناها نحن فلنستوردها منهم ونشتريها مقابل سلعة من سلعنا التي تفوق عليهم في صنعها"

وكذلك أشار إلى المنفعة المتبادلة من التجارة الخارجية قال:

"إن انتقال التجارة الأجنبية بين طرفين يعود عليهما بالفائدة الجمة، فبواسطة التجارة تتخلص كل أمة من فائض منتجاتها الصناعية والزراعة الزائدة عن حاجتها وتتزود بدلا منه بالسلع التي هي في مسيس الحاجة إليها، وبهذه الوسيلة لا يحول ضيق السوق المحلية المحدودة دون تقسيم العمل الفني في الصناعة بجميع فروعها والوصول بها إلى أقرب درجات الإتقان، إذ أن فتح أسواق جديدة واسعة لتصريف المنتجات الزائدة عن

حاجة البلاد فيه تشجيع لزيادة قوة الإنتاج عاما بعد عام إلى أقصى حد، وبهذا يرتفع إيراد الدولة وتزداد ثروة الأمة".

ولم يكن سمث متزمتا شديد التعصب لمبدأ حرية التجارة لا يقبل فيه تبديلا أو تحويرا بدليل انه أجاز استثناءات وقيودا في تطبيقه، فقد أشار إلى أنه في بعض الأحوال من المفيد أن نفرض بعض القيود على استيراد المصنوعات الأجنبية لحماية الصناعة الأهلية، وأولها عندما تكون تلك الصناعة ضرورية للدفاع عن البلاد، حتى ولو كان هذا الإجراء لا يجد له مبررا من الناحية الاقتصادية البحتة فضرورة الدفاع عن البلاد أهم بكثير من الرفاهية، وكان ما لاحظه من تأثير الحروب الناشبة في عصره أنه سلم بأن الأمم المثرية التي يكون الاتجار معها مربحا في وقت السلم تكون عدوا أخطر في زمن الحرب من الأمم الفقيرة. كما سلم كذلك بأن فرض ضرائب جمركية الحماية الصناعات الناشئة الأهلية تفيد في الإسراع بالنهوض بها وتنميتها إلى درجة قد تجعل تبريرها من الوجهة الاقتصادية ميسورا ، وأضاف أن كل تخفض للتعريفة الجمركية يجب إن يكون بطيئا وتدريجيا ومعروفا قبل إجرائه بزمان طويل، وذلك لحماية رءوس الأموال المستغلة في تلك الصناعات التي لا تستطيع الصمود أمام المنافسة الأجنبية وحتى تتاح الفرصة أمام عمالها من الانتقال إلى أعمال أخرى. وهذه كلها نقاط منطقة معقولة سلم بها سمث فيما يدلي به المعارضون لمبدأ حرية التجارة من حجج.

إذا كان سمث يطالب بألا تتدخل الحكومة بتاتا في التجارة والصناعة والزراعة أو أي نشاط عادي لأفراد الأمة فما هو رأيه إذن في وظيفة الحكومة؟.. إن سلطتها ومسئولياتها ستتقلص إلى أضيق الحدود. والجواب في رأيه أن المهمة الأساسية للدولة هي الدفاع عن البلاد وصد أي عدوان خارجي، وأما في الداخل فمهمتها الرئيسية هي توفير العدالة للجميع. ومن رأيه كذلك أن تضطلع الحكومة بإقامة الأعمال العامة وصيانتها وتأسيس المؤسسات القومية وهي التي لا يقدم على إقامتها فرد أو أفراد لأن الربح الذي يحققونه منها لا يغطي نفقات إقامتها، إلا أنها ستؤدي إلى منفعة المجتمع عامة وتغطي تكاليفها وأكثر، وعدد سمث باختصار المهام الرئيسية التي يجب أن تقوم بها الحكومة وبينها صيانة الطرق العامة وإضاءة الشوارع وإمداد البيوت بالماء.

وهكذا رأي سمث في تطبيق مبدئه أنه لا حاجة للدولة بذلك الحيوان الخبيث الماكر الذي يسمي باسم رجل السياسة إلا في حدود الدفاع عن السلام في الخارج واستتباب الأمن في الداخل. وقد سمح باستثناء آخر يدل على أنه كان يسق رجال عصره بمراحل وهو أن تقوم الحكومة بنصيبها في تعليم الشعب، وقد أيد سمث رأيه هذا بالتعليقات الآتية قال:

"إن امرئ عاطل المواهب العاقلة لهو أدنى طبقة وأحط قدرا من الجبان، وهو مخلوق شاذ الخلقة مشوه الطبيعة الإنسانية. ورغم أن الدولة لن تستفيد شيئا من تعليم الطبقة الدنيا إلا أنه يجب على الحكومة أن تعنى بها بعض الشيء حتى لا يكون الجهل سائدا بينها. ومع ذلك فالدولة

ستنتفع بتعليمهم انتفاعا عظيما إذ كلما ازداد علمهم أصبحوا أقل عرضة للتأثر بالخرافات وعوامل الاندفاع والتطرف، تلك العوامل التي تؤدي في الأمم المتأخرة إلى الاضطرابات والفوضى. ومن البديهي أن الأفراد في أمة متعلمة راقية أيسر قيادا وألطف معشرا من أفراد أمة جاهلة منحطة، إذ يشعر كل فرد فيهم بشخصيته فيحترم نفسه ويلقى الاحترام من رؤسائه كما يتلقى منه الرؤساء احترامهم؛ ففي الأمم العريقة في الحرية نجد أن ثبات مركز الحكومة يتوقف على حكم الرأي العام على سياستها فمن أهم الأمور لها أن يتحكم الشعب في مشاعره حتى لا يحكم عليها حكما يتسم بالتهور.

وما يزال من أعقد الأمور إلى اليوم، رغم مرور قرنين من الزمان على ظهور كتاب آدم سمث، لأن يحكم المرء له أو عليه دون تمييز أو محاباة، فمثلا نجد (بكل) في كتابه (تاريخ الحضارة) يقول عن كتاب (ثروة الأمم) "إنه من أعظم الكتب قاطبة سواء أكان ذلك في ناحية التفكير المبتكر أو من ناحية آثاره الفعلية"، ويعترف كاتب آخر من المعارضين لمبادئ سمث هو (ماكس لرنر) بأن كتاب (ثروة الأمم) "له من التأثير ما لأي كتاب حديث في تغيير أحوال الإنسان وأوضاعها التي وصلت إليها اليوم" ثم استدرك على ذلك بملاحظة سديدة قال فيها "كان أغلب الذين عنوا بقراءة ذلك الكتاب هم أولئك الذين أفادوا فائدة شخصية من الآراء التي وردت فيه، وهؤلاء هم التجار المحدثون وحلفاؤهم من الأعضاء في برلمانات العالم ولجانهم الثقافية التنفيذية في الجامعات. وعن طريق هؤلاء أثر الكتاب تأثيرا عظيما في جميع من يليهم من شعوب العالم رغم أنها لا تعلم شيئا عن

الكتاب ذاته. كما أنه – عن طريقهم أيضا – أحدث آثاره الهائلة في التفكير الاقتصادي والسياسة العالمية.

وما قرره هذان الكاتبان يتفق مع ما قرره (ماريوت) العالم الاقتصادي الإنجليزي إذ قال: "أغلب الظن أنه لا يوجد كتاب بمفرده في لغتنا أحدث أثرا عميقا في أيامه مثل ما أحدثه هذا الكتاب في التفكير العلمي الاقتصادي وفي الإدارة الحكومية. ولا شك أن آثاره لا تزال مستمرة إلى عصرنا"، وقال (سكوت) وهو اقتصادي آخر: "لقد كان ذكاء سمث خارقا لأنه أحاط بالحياة الاقتصادية بأكملها في نظرة واحدة فاحصة"

ومن ناحية أخرى، نجد أن كثيرا من أحرار المفكرين والمتطرفين منهم، لم يغفروا لسمث أنه كان أداة في ذلك الاستغلال الدنيء الذي انتهجه رجال الأعمال وأصحاب المصانع إذ اتخذوا من مبدأ (حرية التجارة) وآرائه فيه منهجا لهم في أعمالهم. فقد انتهز هؤلاء تلك الفرصة فشوهوا كل مبدأ دعا إليه لحماية العامل والزارع والمستهلك والمجتمع عامة وفسروها على أنها إباحة مطلقة لمصلحتهم الشخصية لا تتقيد بأي قيود أو تدخل من جانب الحكومة.

والجدل حول كتاب سمث أشبه بذلك الجدل القديم حول مشكلة أيهما أسبق في الخليقة الدجاجة أم البيضة؟.. فهل المبادئ التي نادى بها سمث في التجارة والصناعة كانت مبادئ لا بد لها من الظهور يوما ما، حتى ولو لم يكتب سمث عنها حرفا واحدا، أم أن كتاب (ثروة الأمم) عجل

بالتغييرات الشاملة التي جاءت على أثر نشر الكتاب فابتدع فلسفة جديدة ومنهجا جديدا للحركة الاقتصادية؟ وفي رأينا إن الجواب يقع وسطا بين الحالتين.

ولا مراء أن آدم سمث ولد في الظرف المناسب لوجوده؛ فهو يقف بين عصرين تاريخيين، فلما تكلم عن الحرية الاقتصادية الجديدة وجد من العالم أذنا واعية فأحدثت آراؤه أثرها العميق في تغبير اقتصاديات الأمم، وأدرك رجال الأعمال البريطانيون في سورة الانقلاب الصناعي صواب تلك الآراء فسارعوا إلى التحلل من القيود التي تحمي التجارة وميزانها فنهضوا ببريطانيا في القرن التاسع عشر وجعلوا منها أغنى أمم العالم. ولم يقتصر تأثير سمث على إنجلترا بل تخطاه إلى غيرها من الأمم التجارية العظمى. ولن يكابر غير القليلين في أن سمث يستحق عن جدارة لقب "أبو الاقتصاد العصري الحديث"

٤ ـ مقال في قواعد ازدياد السكان

"توماس مالتس"

كان يحلو للناس وبخاصة في أواخر القرن الثامن عشر أن يطلقوا العنان لخيالهم في تصور مجتمع مثالي. وكانت المثالية التي اتسمت بها الثورة في أمريكا وفرنسا دافعا للخياليين من الكتاب للإغراق في خيالهم حتى اعتقدوا أن مرتبة الكمال التي يصبو إليها الإنسان وشبكة الحدوث، وأن قيام الجنة على هذا الكوكب قريب لا ريب فيه.

وبين هؤلاء الكتاب الخالدين في ذلك العصر اثنان هما: "وليم جدوين" في إنجلترا، و"المركيز دى كوندرسيه" في فرنسا، وخلفهما في ذلك حشد من الأتباع جعلوا يتحدثون إلى الجماهير عن انبثاق فجر جديد. ولعل الآراء التي قال بها (جدوين) في كتابه (العدالة السياسية) من خير الأمثلة على أفكار هؤلاء المتفائلين المغرقين في تفاؤلهم. لقد رأى هذا المتفائل المسرف، بعين خياله أنه سوف يأتي على الإنسان حين من الدهر يبلغ فيه هيامه بالحياة حدا ينسيه حاجته إلى القادم، ويبلغ به حب الحياة درجة تحته الموت، ويبلغ به حرصه على الرقاد، وبلغ به حب الحياة درجة

تجنبه الموت، ويبلغ به حرصه على تنمية مواهب عقله درجة يزهد معها في الزواج. وقصارى قوله أن المجتمع الإنساني سطح مجتمعا من الملائكة. وتغنى بذلك ما شاء له خياله أن يتغنى قال: "وقد يستجد من ضروب التحسن ما ينتظر أن يتمشى مع تمتع الإنسان باكتمال عافيته وطول عمره، إذ أن تقوم حروب أو تحدث جرائم، فيستتب العدل والإنصاف – كما يسمونهما – بين الناس، بدرجة تمنع معها الحاجة لقيام حكومة، ويختفي المرض والقلق والخوف والحقد من العالم، ويسعى كل إنسان – في حماسة لا تغيض – وراء ما فيه صالح الجميع.

وأراد جدوين أن يزيل مخاوف الناس من ازدياد عددهم وتوقع النقص في أقواتهم فقال: استمر على العالم رغم تكاثره، قرون وقرون ومع ذلك فستظل تربية الأرض تخرج من الخيرات ما يكفي لجميع سكانها، وتكهن بأن جذوة العلاقات الجنسية ستخبو على مر الزمن. وزاد كوندورسيه على هذا بأنه قد يستطاع في المستقبل المحافظة على تلك العلاقة دون أن يؤدي ذلك إلى سرعة ازدياد السكان.

وكانت هذه الآراء آتية بفقاقيع تغري المرء بفقئها، وجاء ذلك على يد شاب جرئ من القساوسة بدعى (توماس ربرت مالتس)، وهو رجل في الثانية والثلاثين من عمره. تخرج في جامعة كمبردج ويحمل لقب رفيق من كلية يسوع وهي إحدى كليات تلك الجامعة. نشر هذا القس عام ١٧٩٨ مقالا عنوانه "قواعد ازدياد السكان" رد فيه على هؤلاء المثاليين، وسرعان ما أضحى مقاله من ذخائر كتب علم الاقتصاد السياسي.

والمؤلف معاصر (لآدم سمث) و (توماس بين) إلا أنه يصغرهما بكثير، وهو الابن الثاني (لدانيل مالتس) وكان الأب من أعيان الريف ميسور الحال ومن أصدقاء روسو إذ كان أحد منفذي وصية روسو كما كان من أشد المعجبين بـ (جدوين) وآرائه. وكان كل من الأب والابن قد كلفا بالمناقشة حول الآراء المثالية الخيالية السائدة إذ ذاك، فإذا هاجمها توماس تولى أبوه الدفاع عنها. وانتهى الأمر بينهما بأن تنصح الرجل لولده أن يدون آراءه وينشرها، فتمخض ذلك عن المقال الشهير الذي ظل يفعل فعله في تفكير الناس وأحوالهم طوال مائة وستة وخمسين عاما مضت على نشره. ولعل أهميته في عصرنا أبعد أثرا وأبلغ قوة منها في أي عصر آخر؛ فقد جاء بحثه عن أسباب الفقر متمما لما قاله (آدم سمث) منذ ربع قرن عن أسباب الغنى.

نشر المقال أول ما نشر تحت عنوان "مقال في قواعد ازدياد السكان وفي تأثيره على تقدم المجتمع البشري في المستقبل مع ردود على آراء مستر جدوين ومسيو كوندورسيه وآخرين من الكتاب" عام ١٧٩٨، ولم يذكر فيه اسم المؤلف. ولم يكن المقال عند نشره سوى كتيب صغير لا تزيد عدد كلماته على ٥٠.٠٠٠ كلمة ولا بد أن الطبعة الأولى كانت محدودة العدد لأن الموجود منها نادر كل الندرة الآن. قال المؤلف عن مقاله بعد نشره بقليل "كتبته عفو الساعة ولم أرجع فيه إلا إلى مادة قليلة كانت في حوزتي على قدر ما تسمح بها إقامتي بعيدا في الريف، ولم يكن موضوع الرسالة جديدا على الناس فقد بحث مسألة تكاثر السكان أكثر من واحد من

المفكرين في القرن الثامن عشر وبينهم بنيامين فرانكلن، غير أن أحدا منهم لم يعرض لها بمثل القوة والإيمان والدقة التي عرض لها بهما مالتس.

بدأ مالتس مقاله بقضيتين أساسيتين الأولى أن القوت ضروري لحياة الإنسان والثانية أن الشهوة الجنسية لا مفر منها بين الجنسين، وسوف تظل قوتها في المستقبل كما هي في الحال، ولم يخطر ببال المثاليين أن يجئ يوم يستغني فيه الإنسان عن الطعام.

قال مالتس:

"لكن مستر جدوين تصور أن سيحل اليوم الذي تنطفي فيه جذوة العلاقة الجنسية بين الجنسين لأنه بنى أمله في وصول الإنسان إلى درجة الكمال على التقدم الملحوظ الذي أحرزه الإنسان فانتقل به من حالة الفطرة إلى حالة الحضارة وغابت عنه حقيقة أخرى هي إن الإنسان لم يحرز تقدما في كبح شهوته الجنسية لأنها لا تزال على حالها من القوة والاضطرام في عصرنا كما كانت في أول نشأة الخليقة منذ آلاف من السنين"

ثم انتقل، بعد أن افترض سلامة القضية التي قدمها، إلى وضع الأسس التي أقام عليها نظريته الشهيرة قال:

"... إن القوة التي تعمل لازدياد عدد السكان أعظم وأشد من القوة التي تنتج القوت من تربة الأرض لتغذية الإنسان؛ فالسكان يتزايدون إذا تركوا لطبيعتهم المطلقة متوالية هندسية، وأما الغذاء فيتزايد بمتوالية

حسابية. وكل من له نظر بالأعداد سيدرك بالبديهة الاختلاف الهائل بين الأولى والثانية.

ثم انثنى يفصل نظريته ويدعمها بقوله:

"لقد أسرفت الطبيعة في المملكة الحيوانية والنباتية على السواء أيما إسراف في نشر بذور الحياة، ولكنها ضيقت أمامها المجال وقترت عليها في الغذاء وهذا القانون الطبيعي يتحكم فيهما تحكما جائرا، فتتقلص أمامه مملكتا الحيوان والنبات، ولن يستطيع الجنس البشري نفسه فكاكا منه، واذا كان البوار والمرض والموت المبكر من نصيب الحيوان والنبات فالبؤس والشقاء والرذيلة من نصيب الإنسان.

وبين مالتس بما أورده من الحقائق الواقعية في نظره أنها عقبات ستحول حتما دون بلوغ الإنسان مرتبة الكمال التي ينشدها، ولن يفلح أي إصلاح في إزالة قوة القوانين الطبيعية أو تعديلها لأنها قوى عمياء تقف عقبة في سبيل وجود مجتمع يستطيع أفراده العيش في رخاء وسعادة وفراغ ميسور وبال ناعم لا يعتريهم الخوف والقلق الحصول على رزقهم ورزق أولادهم.

وضرب مثلا لتدعيم أرائه بالولايات المتحدة وازدياد سكانها ليثبت صحة متواليته الهندسية، فقال في وصفها "حيث موارد العيش وافرة وأخلاق الناس راضية بدرجة جعلت الزواج المبكر بينهم أمرا ميسورا"، وانتهى من بحثه إلى أن السكان بالولايات المتحدة قد تضاعف عددهم في

الربع قرن الماضي دون احتساب المهاجرين إليها، واستنتج من ذلك أن سكان أي بلد يتضاعف بالمثل كل جيل ما دامت الأمور تجري مجراها دون تحديد أو تقيد التناسل.

ورد عليه معارضوه الذين حرصوا على تلمس مواطن ضعفه فهاجموه من هذه الثغرة في كلامه وأشاروا إلى أن حالة الولايات المتحدة في الفترة التي اختارها إنما هي فترة قائمة بذاتها لا يصح اتخاذها قاعدة لتأييد نظريته، وبالأحرى لا يجب اتخاذها قاعدة تطبق على حالة غيرها من الأمم.

ولما انتهى من تطبيق قياسه في ازدياد السكان بنسبة الضعف كل ربع قرن على الأمة الإنجليزية حول وجهه إلى مشاكل إنتاج المواد الغذائية بها، وانتهى إلى نتيجة عبر عنها بقوله: "إن هذه البلاد تستطيع باتباع أنجع الوسائل وباستصلاح أراض زراعية جديدة والعمل على تشجيع الزراعة تشجيعا جديا مضاعفة إنتاجها الزراعي على أقصى تقدير في الربع قرن التالي".

غير أن المصاعب ستزداد في الجيل التالي تلك الفترة إذ إن السكان سيتضاعف عددهم ومصير أربعة أمثال ما هو عليه في مدى خمسين عاما، ولا يمكن أن نسلم بأن إنتاج المواد الأساسية للغذاء سيصل إلى تلك النسبية، إذ إن أكبر نسبة تصل إليها الإنتاج لا تعدو ثلاثة أمثال ما هي عليه الآن. فإذا غيرنا من كلامه بالأرقام لكانت الزيادة بين السكان متوالية

هندسية ١ ، ٢، ٤، ٨، ١٦ ، ٣٢٢ ، ٦٤ الخ والمتوالية الحسابية للإنتاج هي :١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ الخ.

والنتيجة المنطقية لتفكير مالتس أنه لا بد من وجود عوامل أو قيود تحد من سرعة ازدياد السكان، وأن أشدها تأثيرا هو نقص المواد الغذائية. وهو يقسم القيود المباشرة نوعين: قيود إيجابية تشمل الصناعات الضارة بالصحة والأعمال المرهقة والفقر المدقع والأمراض وإهمال العناية بالأطفال وازدحام السكان في المدن الكبرى والطواعين وانتشار القحط والمجاعات، و"عوامل وقائية" وهي كبح الشهوة البهيمية وانتشار الدعارة.

وانساق مالتس مع منطقه فانتهى إلى نتائج محتومة، وأبدى نصائح عملية ينبغي اتباعها لتلافي وقوع الكارثة، لأنه إذا قدر للجنس البشري أن يتمتع بأقصى قسط من السعادة، فعلى الإنسان ألا يضطلع بالتزامات الأسرة قبل أن يكون قادرا على الوفاء بها. وأما الذين لا يستطيعونها فخير لهم الحياة دون زواج. ويضيف إلى تلك النصائح أن واجب الحكومة في سياستها العامة لإعانة الفقراء عدم تشجيع الطبقة العاملة وغيرها على إنجاب أطفال ما داموا لا يستطيعون إعالتهم.. قال:

"إن رجلا يولد في دنيا قد استولى عليها الناس من قبله وملكوا خيراتها، ولم يجد العون الطبيعي من والديه، وهو حق عادل له أن يطالب به، وما دام المجتمع في غنى عن خدماته فهذا الرجل لا يستطيع أن يدعي

لنفسه حقا في كسرة خبز ولا حق له في الوجود في هذا العالم"، وقد كتب مالتس تلك الفقرة ردا على آراء (توماس بين) في إعلان حقوق الإنسان.

وفي رأيه إن الإحسان سواء أكان من الأفراد أو الدولة لا داعي له إطلاقا لأن الأموال تدفع للفقراء دون أن يقابل ذلك زيادة في المواد الغذائية فترتفع الأثمان ويقل المعروض منها في الأسواق. وهو يعارض كذلك فكرة إنشاء المساكن الشعبية لأن ذلك يشجع على الزواج الباكر، وهذا بدوره يزيد مشكلة السكان تعقيدا، كما أن زيادة أجور العمل تؤدي إلى نفس الكارثة. وفي رأيه أن الخلاص من هذه الحيرة المتعبة هو الزواج المتأخر مع الاعتدال والحد من الغريزة .

والواقع أن كل مشروع لتحسين حالة المجتمع وتخفيف ويلاته سينتهي في نظر مالتس إلى كارثة، ويزيد الشرور التي يحاول أن يزيلها. و كان من أثر موقف هذا القسيس المعادي للمجتمع ظاهرا أن باء بعداء أنصار الإنسانية في عصره وفي العصور التالية. ومع هذا فقد قوبلت آراء مالتس بترحاب وتحمس إذ تلقفتها الطبقة المثرية وذوو السلطة في زمنه فرددوا وراءه القول بأن الفاقة الجماعية وغيرها من المساوئ الاجتماعية يصح إرجاعها الآن إلى أسباب الزواج المبكر وكثرة النسل وليس لسوء توزيع الثروة في البلاد شأن في ذلك، وبالتالي لا يقع عليهم أي لوم.

والفقرة التالية تصور موقف مالتس إزاء برنامج المعونة الاجتماعية الذي تقوم الحكومة به قال:

"إن قوانين الفقراء في إنجلترا تؤدي إلى تفاقم حالة الفقراء عامة في ناحيتين الأولى: هي أنها تعمل على زيادة عدد السكان دون زيادة غلة الأرض لإعالتهم، فالفقير قد يتزوج دون أن يكون له أمل أو شبه أمل في أن يعول أسرته من غير حاجة إلى معونة خارجية، وبذلك نرى أن تلك القوانين هي السبب إلى حد ما في خلق الطبقة الفقيرة التي فرضت لها الإعانة. ويترتب على هذا أن نصيب الفرد من موارد البلاد سيقل حتما بسبب ازدياد عدد السكان، ومن البديهي أن عمل الرجل المنتج الذي لا يعتمد على المعونة الاجتماعية لا يساوي في السوق إلا قدرا من القوت أقل مما يكفيه، فإذا استمر ذلك فسيضطر بعض هؤلاء إلى طلب المعونة من الحكومة. والثانية أن كميات الحاجيات التي تستهلك في ملاجئ الفقراء، وهم طبقة غير منتجة تقلل من الأنصبة التي كان يجب أن تعطى كاملة للطبقة العاملة. وسينتهي كذلك الحال بهؤلاء إلى طلب المعونة الاجتماعية.

وقد لخص مالتس نظرياته هذه في نهاية رسالته قال:

"نستطيع في الظروف المتشابهة أن نحكم بأن الأمة كبيرة إذا عظمت كمية القوت التي تنتجها أو تحصل عليها، أو أنها أمة يسودها الرخاء تبعا لوفرة نصيب الفرد من الطعام أو تبعا للقدرة الشرائية لأجر العامل في يوم. والمشاهد أن الأمم المنتجة للقمح أكثر الأمم كثافة، وتفوقها كثافة الأمم المنتجة للأرز، ولكن الرخاء فيها لا يقاس بقلة السكان أو كثرتهم أو

بفقرهم أو غناهم أو بعدد الشبان أو الشيوخ فيها، ولكنه يتوقف على النسبة بين عدد السكان وبين كمية الطعام الذي تنتجه الأرض.

وما كاد يظهر كتاب مالتس حتى تعاورته زعازع وأعاصير من النقد والاحتجاج والشتائم وخاصة من مصدرين، هما: المحافظون من رجال الدين، وكذلك المتطرفون من رجال الاجتماع. قال بونار أشهر مؤرخي حياة مالتس: "واستمرت السماء تمطره استنكارا وتفنيدا زهاء ثلاثين عاما، وكان مالتس أكثر رجال عصره عرضة للتهجم والتشهير فاتهم بأنه "رجل يحبذ انتشار الجدري والعبودية وقتل الأطفال" ويعارض إمداد المعدمين بالحساء، ويستنكر الزواج المبكر والمعونة الاجتماعية للمعوزين. إنه رجل لم يتورع عن الزواج بعد أن نادى بشرور الأسرة، رجل ناقم على الدنيا وأحوالها، يرى في كل عمل يهدف لخير الناس شرا مستطيرا وأنه جرد الحياة الإنسانية من كل مباهجها..

ولم تعر طائفة أخرى من الكتاب رسالة مالتس إلا اهتماما عابرا في دعابة وتندر؛ فقد كتب هازلت في دعابة: "ولا أعلم أن شيئا يستحق البحث والمعرفة بعد أن قرأت ألواح نوح وأولاده، وأن الأرض مستديرة"، أما كولريدج فقال: "وهل نحن في حاجة إلى كتاب يعلمنا أن البؤس والرذيلة من ذيول الفقر وأن الفاقة في أبشع مظاهرها ستوجد حيث يزيد عدد الأفواه عن عدد الأرغفة، وحيث توجد زيادة في عدد الرءوس عن عدد الأمخاخ!"

ومن الكتاب من كان تعليقه لاذعا مريرا مثل (وليم ستون) من متقدمي المفكرين الأول في الاشتراكية الإنجليزية، قال:

"لا تلعنوا البائسين، فهم الغالبية العظمى لبني البشر، ولا تقحموا عليهم الأكاذيب السافرة بالقول أن سعادتهم مستطاعة بالحد من النسل والحد من الغذاء بينما تتهربون من توضيح الأسباب المعنوية والمادية التي تضمن لهم الطعام والتناسل"

وكلمة لاذعة أخرى من وليم كوبت، قال:

"كيف يستطيع مالتس وأتباعه الأدباء السخفاء أن ينادوا بتحريم معونة الفقراء حتى يحولوا بينهم وبين الزواج؟ كيف يستطيع هؤلاء المغرورون أن يواجهوا العامل المكدود ويطلبوا منه الانضمام إلى الجيش ويضحي بحياته في سبيل الدفاع عن هذه البلاد"

وحدث أن كوبيت هذا لقب مالتس من غير قصد بلقب (قسيس الأبرشية) في محادثة جرت بينه وبين فلاح:

قلت – قل لي بحقك كم طفلا تريد أن تنجب؟

قال – لا أدري كم يكون عددهم، فإن الله لا يخلق إنسانا دون أن يرزقه برزقه

قلت – ألم تسمع عمن يدعى مالتس قسس الابرشية ؟

قال – لا والله لم أسمع به قط

قلت – لو سمع هذا الرجل قولك لغضب أشد الغضب لأنه يريد مجلس العموم أن يصدر قانونا يحرم على الفقراء أن يتزوجوا مبكرين حتى لا ينجبوا أطفالا كثيرين.

وهنا صاحت الزوجة – يا الله من ذلك الأحمق؟

وهنا ضج الزوج بالضحك إذ اعتقد أن كلامي مجرد دعابة وتندر.

وثمة اعتراض ردده خصومه بأن تعاليمه تناقض صفة الرحمة في الخالق فاتهموه بأنه نشر على الناس كتابا حشوه الكفر، وهي أشنع تهمة يمكن توجيهها إلى رجل من رجال الدين. وتحت وطأة ذلك الاتهام اضطر مالتس في الطبعة الثانية أن يرفع ما ورد في الطبعة الأولى من عبارات عن البؤس والدعارة ويكتفي فيها بالحض على الاعتدال الجنسي، حتى يدرأ عن نفسه تهمة "الطعن في إن الله خير"

وفي الاحتفال المئوي بذكري مالتس عام ١٩٣٥ تقدم بونار للدفاع عنه ضد معارضيه الذين شوهوا أقواله وسيرته وأساءوا فهمه. وقال عنه ما مؤداه أن أراء مالتس كانت إيجابية، ولم تكن سلسة، وأن مالتس كان يتمنى من كل قلبه للإنسانية جمعاء ثلاثة أشياء:

أولا – انخفاض عدد الوفيات بين السكان عامة.

ثانيا – رفع مستوى المعيشة بين الفقراء.

ثالثا – خفض عدد الوفيات بين الأطفال.

والحق أن مالتس أدرك بثاقب فكره أن "تحديد النسل" مسألة انتهجتها الأمم، ومارست الإكثار من تطبيقها كلما ازدادت حضارتها وانتشر بينها التعليم وكلما ارتفع مستوى المعيشة فيها. ومن هنا ندرك أن نظرته إلى مستقبل الهيئة الاجتماعية كانت نظرة تفاؤل راعى فيها شيئا من الحذر. وقال عن إنجلترا ما نصه: "وإن مجرد نظرة عابرة على مجتمعنا تجعلنا نعتقد أن الحد من التناسل منتشر بين جميع الطبقات إلى درجة ملحوظة"، وقد بحث بعين المحقق حالة الطبقات الاجتماعية المختلفة مثل الطبقة الوسطى والتجار والفلاحين والعمال والخدم، كل على حدة لأنها طبقات تختلف باختلاف أحوالها الاقتصادية. ولاحظ أن الخوف من هبوط مكانة الإنسان في مجتمعه تجعله يحجم عن الزواج المبكر، فضرب لذلك مثلا قال: (خذ رجلا مثقفا تثقيفا عاليا ولكن دخله لا يكفيه بقدر يجعله في صفوف الصفوة من الطبقة الوسطى. هذا الرجل يدرك تمام الإدراك أن إقدامه على الزواج وتكوين أسرة سيهبط بمستواه الاجتماعي إلى مستوى المزارعين أو الطبقة الدنيا من التجار، فهبوط المكانة في المجتمع عدة درجات في السلم الاجتماعي، وخاصة إلى الدرجة التي تنتهي فيها التربية، ويبدأ فيها الجهل، ذلك السقوط يرى فيه أغلب الناس شرا حقيقيا وضررا بالغا ولا يتصورونه بغير هذه الصورة).

ويستطيع الإنسان أن يدرك من تعليقات معاصريه أن مالتس لم يكن بالرجل المغمور في حياته؛ فقد كان من تأثير الطبعة الأولى من مقاله أن سارعت الحكومة إلى عمل تعداد عام لسكان إنجلترا عام ١٨٠١ وهو أول إحصاء مهم منذ حرب الأرمادا الإسبانية، وكانت الحكومة قد حاولت مرارا أن تحصي سكان البلاد، ولكنها تراجعت أمام المعارضة بحجة أن هذا العمل فيه خروج على تعاليم الكتاب المقدس، وأنه عمل غريب على أخلاق الإنجليز. ومن النتائج الثانوية لأثر مقاله أن قامت الحكومة بإجراء تعديلات في قوانين الفقراء لتصلح بعض الأخطاء التي نبه إليها مالتس.

ولم يكن تأثير آراء مالتس على العلوم الطبيعية بأقل منه على العلوم الاجتماعية؛ فقد اعترف تشارلس دارون وألفرد رسل ولاس في صراحة أنهما مدينان لمالتس بفكرة جديدة في نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي. كتب داروين يقول:

حدث في أكتوبر عام ١٨٣٨ – أي بعد خمسة عشر شهرا من بداية بحثي العلمي – أن تناولت كتاب مالتس عن السكان لأقرأه على سبيل الترفيه عن نفسي، ولما كنت مستعدا ذهنيا لقبول فكرة " التنازع على البقاء" التي استعملها مالتس في كتابه، وذلك بسبب طول ما لاحظته من هذه الظاهرة في عالم الحيوان والنبات خطر لي في التو واللحظة أن التنازع على البقاء فيهما سيؤدي حتما إلى بقاء الأنواع الممتازة واندثار الأنواع الضعيفة فيهما وكذلك إلى نشوء أنواع مستحدثة. ومن هنا وجدت أنني توصلت إلى نظرية جديدة أستطيع الارتكاز عليها في بحثي.

وكذلك كتب ولاس يقول:

"لقد كان كتاب مالتس أول كتاب قرأته يعالج مشاكل الحياة من الناحية الفلسفية، وبقيت مبادؤه الأساسية عالقة بذهني دائما ووفقت بعد عشرين عاما على ضوئها إلى الاهتداء للسر الذي طالما بحثت عنه وهو العامل الفعال في تطور الأنواع العضوية".

ولم يتأثر مالتس بتاتا بحملات رجال الدين، أو رجال الاجتماع الثائرين على مقاله عندما نشره عام ١٨٧٩ فقد استولى موضوع دراسته على كل مشاعره، وعقد الرجل العزم على مواصلة البحث فيه، فما لبث أن قام برحلة جاب فيها أوروبا عام ١٧٩٩ بحثا وراء جمع مادة جديدة يزيد بها أبحاثه؛ فزار السويد والنرويج وفنلندا وقسما من روسيا، وهي البلدان الوحيدة المفتوحة للسياح الإنجليز إذ ذاك. ثم قام برحلة أخرى إلى فرنسا وسويسرا في فترة السلام التي سادت أوروبا عام ١٨٠٢. وفي تلك الفترة أصدر كتابا آخر عنوانه (بحث في أسباب غلاء مواد المعيشة في الوقت الحاضر) وجعل أساس بحثه أن الأسعار والأرباح تتعين بما سماه (كثرة الطلب).. وبعد انقضاء خمس سنين على ظهور مقاله الأول أصدر طبعة ثانية وهي كتاب ضخم بقطع الربع بلغت صفحاته ٦١٠ صفحات، فصل فيه نظرياته في مقاله السابق. والطبعة الثانية تقتصر عن المقال الأول في قوة العبارة وطلاوة الأسلوب وإيمان الشباب بصواب الرأي، فأصبحت كتابا علميا جافا في الاقتصاد مثقلا بالوثائق والحواشي وليس فيه من جديد سوى التوسع في فكرة (الاعتدال الجنسي) مع احتفاظه بالقواعد

الأساسية السابقة، وصدرت في حياة المؤلف أربع طبعات، وفي الطبعة الخامسة تضخم المقال السابق حتى وصل إلى ثلاثة أجزاء تضم ألف صفحة وأصدر عام ١٨٢٠ كتابه الثاني الضخم وهو (قواعد الاقتصاد السياسي من الوجهة التطبيقية).

وعدا ذلك فإن حياة مالتس كانت هادئة مستقرة، فظل يتابع دراساته وكتاباته الاقتصادية دون حرج حتى عام ١٨٠٤ وفيه تزوج وهو في سن الثامنة والثلاثين. وفي السنة التالية عين أستاذا لكرسي التاريخ الحديث والاقتصاد السياسي بكلية جديدة أنشأتها شركة الهند الشرقية في (هبليبرى) خصيصا ليدرس بها موظفو الشركة. وهذا أول كرسي أنشئ لعلم الاقتصاد السياسي في أية كلية أو جامعة في إنجلترا. وظل مالتس يشغل هذا الكرسي زهاء ثلاثين عاما حتى وفاته عام ١٨٣٤ وخلف وراءه ثلاثة أبناء بلغ اثنان منهما سن الرشد في حياته.

ولم يخف قط ضرام النار التي أشعلها مالتس، إذ لا تزال حدة المناقشات حول تراثه بين التأييد والتسفيه على أشدها. وقد ظهرت حديثا مؤلفات تؤيد نظريات مالتس مثل كتاب (تحدي مستقبل الإنسان) و(الطريق إلى البقاء) وكذلك (حدود الأرض) و(كوكبنا المسلوب).. وقد رد كتاب آخرون عليها في مقالات بعنوان (ناطور مالتس) و(كل ما شئت) و(شرور مالتس) و(لا حاجة للناس بالجوع)، فما هي وجهة النظر الصحيحة إذن عن نظريات مالتس في العصر الحاضر؟

ثم ظهر عامل مهم لمعالجة ازدياد السكان في منتصف القرن التاسع عشر، وهو إقبال الناس على استعمال أساليب لمنع الحمل التي تحد من كثرة النسل في الأسرة، ولم تشذ عنهم إلا أقلية إما لجهلها بتلك الأساليب، أو أنها امتنعت لسبب ديني. واشتهرت هذه الحركة بالحركة المالتسية الجديدة أو بحركة تحديد النسل أو (الأبوة المحدودة)، ودعا أحدهم تلك الحركة بأنها "أعظم حركة تتصل بظاهرة تكاثر السكان في العصر الحديث"، وقد حمل عليها مالتس حملة شعواء واستنكر حركة تحديد النسل بالوسائل الاصطناعية واعتبر ناس عصره أن هذا الإجراء غير شريف وشاذ ومناف للطبيعة، ورغم ذلك أصبح هذا العامل من الأسباب الرئيسية لوقف سرعة ازدياد السكان في المجتمع الحديث، فأضيف بذلك عامل اصطناعي رابع إلى العوامل الطبيعية الثلاثة التي توقف زيادة السكان وهي "الدعارة والبؤس والاعتدال الجنسي"

وعندما كان مالتس مشتغلا بوضع نظرياته، قدر تعداد العالم إذ ذاك ببليون نسمة عام ١٨٠٠، ثم ازداد عدده حتى بلغ في المائة والخمسين سنة الماضية قرابة بليونين ونصف بليون. وظهر من هذا الإحصاء أن نسبة كبيرة من الزيادة ترجع إلى طول الأعمار وليس من ازدياد غير عادي في النسل؛ إذ أن حياة كثير من الناس قد أنقذها تقدم الطب والوسائل الصحية والشئون الاجتماعية. وظهر كذلك من ناحية أخرى أنه كان من نتائج الثورة الصناعية في إنجلترا ازدياد إنتاج المصنوعات ازديادا واسع النطاق، فبادلت بسلعها سلعا أجنبية كالأطعمة والمواد الأولية استوردتها

من دول غير صناعة . هذا إلى جانب ما تم من التحسين في صناعة النقل التي وفرت لها المرونة والسرعة.

أما السكان الزائدون عن طاقة الدول فقد امتصتهم الهجرة إلى القارات المتخلفة اقتصاديا، وبهذا تكون التنبؤات القاسية التي قال بها مالتس قد أرجئ حدوثها، أو أن تكون قد مضت إلى غير رجعة فيما يختص ببلدان الغرب على الأقل.

ومع ذلك فما زالت في الكرة الأرضية مناطق فقيرة متخلفة تنطبق عليها نظريات مالتس تمام الانطباق؛ فالشرق الأدنى وأغلب بلدان آسيا وأمريكا الجنوبية والوسطى تعاني كلها كثرة النسل، وبالتالي ترتفع فيها نسبة الوفيات، وفي تلك المناطق نجد أن الناس الذين أنقذهم الطب وتقدم أساليبه الصحية تهددهم الفاقة والمجاعة.

وبالضد من تلك الحالة نجد أغلب الأمم المتحضرة المتمدينة قد دخلت فعلا من حيث ازدياد السكان مرحلة الاستقرار أو النقص، وخاصة في فرنسا والسويد واسكتلنده والنمسا وإنجلترا وويلز وآيرلنده. وقد دخلت تلك الأمم مرحلة الاستقرار بسبب انتشار العقم ونقص عدد الشبان وازدياد مدة حياة الإنسان.

وأما الطعام فقد زاد إنتاجه زيادة هائلة منذ عصر مالتس، واتفق رأي الخبراء على أنه من المستطاع الحصول على كميات أعظم من الطعام باستخدام أساليب جديدة ومجدية في الإنتاج، وتحسين وسائل الري وتعمير

الأراضي البور، واستبدال الأطعمة النباتية بأطعمة حيوانية، وبالسيطرة على الحشرات الضارة بالزراعة. ويمكن أن ندلل على خطأ نظرية مالتس بوفرة إنتاج القمح في الولايات المتحدة وكندا وزيادته على حاجة أهلها، غير أن هذا لا يغير من أن الملايين من سكان الشرق وغيرهم يعيشون على ما يكاد يسد رمقهم من الطعام. وفي وجود ما يقرب من ثلثي الجنس البشري معرضين لسوء التغذية والمجاعات وضعف الصحة والمرض ما يجعل المشاكل التي أثارها مالتس منذ قرن ونصف قرن من الزمان ما زالت حقيقة حيوية واقعة في عصرنا كما كانت في عصره.

وحتى هؤلاء النقاد الذين حاولوا أن يثبتوا فساد نظرية مالتس وفشلها في نقط شتى بسبب التقدم الذي حدث فيما بعد، والذي لم يستطع مالتس إن يتصوره، وحتى هؤلاء لم ينكروا عليه أنه قد ترتبت على آرائه نتائج لها شأن عظيم، وقد أبدى (هيهاوس) بعض ملاحظات دقيقة قال: "إن نظرية مالتس كانت من أهم الأسباب لفشل تنبؤاته، فقد نشرت بين الناس الاعتقاد بأن السكان يزدادون بسرعة فائقة، فكان ذلك نفسه سببا من أهم الأسباب في وقف ذلك الازدياد".

ومن بين التعليقات التي كتبت على رسالة مالتس (قواعد ازدياد السكان) تعليق كتبه (جون مايناردكينز) أنصف فيه مالتس وقدره تقديرا عظيما، قال:

"لا مراء أن هذا الكتاب يحتل مكانة جديرة به بين الكتب العلمية التي أثرت في تقدم الفكر الإنساني، إذ أنه ينبع من صميم التقاليد الإنجليزية العريقة في إنسانها، من تقاليد التفكير الإنجليزي والاسكتلندي، وهي تقاليد فيها وجدان عميق متصل الحلقات منذ القرن الثامن عشر إلى عصرنا الحديث. وهذه التقاليد تذكرنا بها أسماء شهيرة مثل لوك وهيوم وآدم سمث وبيلى وداروين ومل، وتتسم بحب الحقيقة وإشراق الأسلوب وسلامة التفكير البعيد عن النواحي العاطفية والميتافيزيقية، كما تسم بالنزاهة ورعاية المصلحة العامة.

إن ثمة تسلسل في كتابات هؤلاء الكتاب جميعا، لا من حيث الإحساس فحسب، بل من حيث الآراء والمبادئ التي نادوا بها. والى هذه الطائفة الممتازة ينتسب مالتس.

٥ ـ كتاب العصيان المدني

"هنري دافيد ثورو"

يتبادر إلى الذهن عند ذكر اسم (ثورو) صورة إنسان شغوف بالتأمل في أحوال الطبيعة، عزوف، محب للعزلة وللحياة في الهواء الطلق وللبساطة في العيش وهو إلى ذلك معدود بين الشعراء، قبل ميله إلى التصوف، ويعد أحد الكتاب الثائرين ذوي الأسلوب الرائع في اللغة الإنجليزية. وقليلا ما يذكر الناس أنه كتب مقالات تعتبر من أشد الكتابات تطرفا في التاريخ الأمريكي. وقد وصفه بعض كتاب سيرته بأنه داعية لأشد مبادئ العصيان تطرفا صدرت عن قلم كاتب في هذه القارة؛ فقد تخطى قول توماس جفرسون إن أحسن الحكومات أقلها حكماء عندما قال، أن أحسن الحكومات هي التي لا تباشر الحكم مطلقا.

تفضي بنا هذه الجملة إلى التحدث عن مقاله المشهور (العصيان المدني) الذي نشر أول ما نشر في مجلة لم تعمر طويلا غير معروفة في مايو ١٨٤٩ وهي مجلة (الفن الجميل) لصاحبتها (إليزابث بيودي) وكان عنوان المقال في أول الأمر "مقاومة الحكومة المدنية"، ثم غير إلى "عن واجب العصيان المدني" أو مجرد "العصيان المدني" ولم يستلفت المقال انتباه الناس

عند نشره، ولم يقرأه سوى عدد من الناس، غير أن آلافا من القراء دأبوا على قراءته كما تأثرت به حياة آلاف الناس في المائة سنة التي أعقبت نشره.

فهل كان ثورو فيلسوفا يتجه في فلسفته إلى الفوضى وأنه لا حاجة للناس بحكومة؟ وقد يواتينا الجواب على هذا السؤال عندما نحلل للناس المقال وندرك ملابساته ودوافعه الرئيسية.

لم يكن في أوائل حياة ثورو ما يستشف منه أدنى إشارة إلى أنه سيصبح يوما ما ثائرا اجتماعيا، فقد ولد عام ١٨١٧ من سلالة بين الفرنسية والاسكتلندية ببلدة كونكورد بولاية مساتشوستس، ونشأ في وسط أسرة محافظة أصيلة ذات موارد محدودة. وتلقى علومه في كلية (هارفرد) حيث أمضى أربع سنوات لم يظهر فيها نبوغا أو تفوقا، غير أننا نلمح في بعض تصرفاته روح الثائر عندما نجده يلبس سترة خضراء في كنيسة الكلية، لأن القانون يحتم اللون الأسود.

وانصرف في تلك الفترة إلى أن درس في مكتبة الكلية، ولما ظهرت ميوله إلى التأليف والكتابة شجعه على المضي فيها اثنان من مشاهير أساتذته هما (ادوارد. ت. تشانج) و(جونز فيري) وما كادت تمر سنون دراسته حتى عاد والغبطة تملأ فؤاده إلى كونكورد حيث الغابات والحقول الخضراء المحببة إلى قلبه، فأقام بها بقية حياته إلا فترات قصارا، ومارس عدة أعمال منوعة فاشتغل معلما ولكنه فشل غير إنه عاد ففتح مدرسة

بالاشتراك مع أخيه جون استمرت ثلاث سنوات. ثم اشتغل في فترات بمساعدة أبيه في صناعة أقلام الرصاص وتوزيعها على المستهلكين كما عمل مفتشا للعوايد في البلدية وألقي عددا من المحاضرات، كما حاول أن يتكسب من التحرير والكتابة.

ونزل ثورو ضيفا في فترتين قصيرتين على (رالف والدو أمرسون) فتعرف في بيته على أعضاء (نادي المتسامين) واشترك مع هذه النخبة الفاضلة من كتاب نيو إنجلند ومفكريها في النقاش والحوار، وكان للكاتب أمرسون أكبر الأثر عليه وعنه أخذ بعض آرائه التي ينادي بها في مقاله "العصيان المدني".

وكان ثورو زاهدا في المال وجمعه، كما كان عزوفا عن العمل سوى ما يوفر له من الرزق ما يسد به رمقه ويزوده بأسر حاجياته. وكان أشد ما يتحرق إليه أن يوفر لنفسه وقتا يتفرغ فيه إلى ما يعتبره أمورا مهمة، وأهمها أن يطوف بربوع بلدة كونكورد ومراتعها ليتعرف عن كثب على أسرار الطبيعة مستغرقا في تأملاته بين القراءة والتحرير، ويفعل ما يحلو له بحرية تامة. وكانت حاجات معاشه من البساطة بحيث لا تدفعه إلى العمل الشاق الذي يعانيه أهل بلده؛ فقلب الأوضاع الدينية المألوفة إذ خصص يوما واحدا للعمل، وأمضى بقية الأسبوع في الراحة والاستجمام. وجملة القول أن كل عمل تولاه ثورو كان على نقيض آراء آدم سمث ونصائح فرانكلن في كتابه (رتشرد المسكين) وكل ما جرى عليه عرف الأمة الأمريكية من العمل المتواصل والثراء السريع.

ويكفي لتصوير فكرته عن الحياة البسيطة البعيدة عن التزويق والتنميق أنه قضى سنتين كاملتين على ضفاف (بحيرة والدن) قرب كونكورد، حيث بنى كوخا وزرع حوله الفول والبطاطس، وعاش هناك يأكل أبسط طعام كالأرز والذرة والبطاطس ومحار البحر. عاش منفردا معتزلا المجتمع فتهيأ له الفراغ الذي أراده؛ فعكف على القراءة والتحرير وكتب للناس كتابا من أعظم ما كتب في الأدب الأمريكي هو (والدن أو الحياة في الغابة) عام ١٨٥٤[١].

ومن البديهي أن يكون كتاب (والدن) هو قصة حياة ثورو في عزلته وفيه وصف فصول السنة وصفا رائعا كما وصف المناظر الطبيعية وحياة الحيوان في الغابة التي تحيط به. وكتاب (والدن) أكثر من مجرد قصة لتجارب كاتب كلف بمظاهر الطبيعة، وهي في ذلك شبيهة بقصة (الصياد الكامل) التي كتبها (ايزاك وولتن) إذ لم تكن مجرد دليل لإرشاد الصيادين في الصيد، ذلك لأن تعليقات ثورو في كتابه على المجتمع لتفاهاته وقيوده، وعلى الحكومة وتحكمها تحمل مغزى ذا أهمية عالمية للإنسانية بأجمعها. وقد استهوت هذه التعليقات والانتقادات بتوالي الزمن جمهورا كبيرا من القراء لا يقل عمن استهواهم وصفه الأطوار الطبيعة. ومن هنا كانت قصته (والدن) وثيقة تشمل أشد الآراء تطرفا، وهي لا تقل في تطرفها عن مقاله السابق في (العصيان المدني) بل أنها وثيقة الصلة به.

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ أمين مرسي قنديل وقدم له وعلق عليه وذيله بمعجم للأعلام وأسماء النبات والحيوان وغيرها ونشر عام ١٩٥٣.

وفي عام ١٨٤٣ عندما كان في زيارة قصيرة لبلدة كونكورد أثناء الفترة التي بدأ فيها حياته على ضفاف بحيرة والدن، حدث أن ألقي القبض عليه وأودع السجن لأنه رفض أن يدفع الضريبة الشخصية وكان في رفضه هذا يحذو حذو (برونصن الكوت) والد الفتيات الصغيرات، الذي أودع السجن منذ سنتين بسبب المخالفة نفسها. وقد لجأ كلاهما إلى هذه الوسيلة احتجاجا على الحكومة لتأييدها إباحة الرق، ولم يطل حجز ثورو في السجن أكثر من ليلة واحدة لأن إحدى عماته دفعت عنه الضريبة فأفرج عنه على غير إرادة.

ولم يقص ثورو وقائع هذا الحادث إلا بعد مضي أعوام على حدوثه وذلك في مقاله "العصيان المدني"، فكشف عن اصطدامه بالقانون حول دفع الضريبة. وقد كتب المقال بادئ ذي بدء في هيئة محاضرة ألقاها عام ١٨٤٨ ولكنها لم تنشر إلا في السنة التالية. وقبل ذلك كانت الحرب ضد المكسيك (١٨٤٦ – ١٨٤٧) قد انتهت، وبانتهائها نشب خلاف خطير بين الأحزاب السياسية حول إباحة الرقيق في الولايات الجديدة التي ضمتها الولايات المتحدة عقب الحرب. ومما أغضب ثورو «قانون الرقيق الآبق" الذي كان على وشك الصدور. كل تلك الأحداث مضافة إلى قضية الضريبة أوحت إليه آراء مقاله.

كانت فكرة الحرب كريهة إلى نفس ثورو، وبخاصة حرب المكسيك لأنه اعتقد أنها لم تنشب إلا لرغبة الحكومة في تطبيق قوانين الرقيق على الولايات الجديدة. وقد تساءل ثورو عن السبب في أن يطلب إليه دفع

عون مالي لحكومة مجرمة ترتكب مثل هذا الظلم والعدوان. ومن هنا تبلورت في ذهنه فكرة العصيان المدني. ورأى ثورو أن الفرصة حانت لتحليل ماهية الدولة وماهية الحكومة، ونوع العلاقة التي تربط الفرد بالحكومة وبين الحكومة والفرد؟ وانتهى من فحص تلك المسائل إلى فلسفته القائلة بالاستقلال الفردي في المجتمع.

كتب ثورو:

"إن الحكومة في أحسن حالاتها ما هي إلا وسيلة، ولكن أغلب الحكومات وسيلة غير ضرورية، إذ يصح أن توجه إليها جميع الاعتراضات الجدية التي توجه إلى وجود جيش قائم مستديم، غير أنه اعترف بأن حكومة الولايات المتحدة حكومة حسنة نسبيا، ومع ذلك فهذه الحكومة لم تشجع أي مشروع إلا تشجيعا سلبيا، بعدم التعرض للقائمين به. فهي لا تحترم حرية الشعب وهي لم تفلح بعد في تهدئة ولايات الغرب (غرب الولايات المتحدة إلى المحيط الهادي) وهي لا تنشر التعليم بين الشعب. ويرجع الفضل في نجاح الأعمال العظمى في البلاد إلى الميزات السامية التي يتميز بها الشعب الأمريكي. وكان كفيلا أن يفعل أكثر مما فعل لو لم تتعرض الحكومة لشئونه. وهذا ما يثبت أن الحكومة ليست إلا وسيلة يقصد بها الحيلولة دون تدخل فرد في شئون آخر. ونحن نكرر القول بأن أقصى صلاحية لأية حكومة رهن بإطلاق حرية الأفراد إلى أقصى حد.

إلا أنه عاد بعد قوله بعدم الضرورة لوجود حكومة، فغيَّر موقفه لأنه اعترف بأن الإنسان لم يبلغ بعد ذلك الحد من الكمال الذي يستغني به استغناء تاما عن وجود حكومة.. قال:

"إنني أتكلم بلسان المواطن العملي بعكس الذين يقولون أنه لا حاجة بهم لأي نوع من أنواع الحكومة، فأقول إني أطالب توا بإزالة الحكومة، ولكني أطالب كذلك توا بحكومة أصلح، والطريق إلى ذلك أن يستفتي الناس في شكل الحكومة التي تنال إجماعهم، فإذا حدث هذا فسيكون خطوة سديدة نحو إقامة الحكومة التي تريدها".

وقد وضح ثورو توضيحا مستفيضا حقوق الأقلية وموقفها، كما وضح خطأ الحكم على أساس الأغلبية إذ في رأيه أن الأغلبية تحكم ولا لأن حكمها دائما هو الصواب، ولا لأن الأقلية تقبل ذلك الحكم، وإنما تحكم الأغلبية بفضل ضخامة عددها. ولكن حكومة الأغلبية وفرض رأيها في جميع الشئون دون استثناء لا يمكن أن يسمى عدالة حتى في نظر أبسط الناس فواجب كل مواطن ألا يتنازل عن رأيه ليكون ألعوبة في يد المشرع. ويجب أن نعلم أننا أشخاص أولا، قبل أن نكون رعايا، ولا بد لنا أن نحترم ما هو عدل وحق قبل أن نحترم القانون.

وحط ثورو من شأن طبقة السياسيين قال: "أن أغلب المشرعين والسياسيين والمحامين والوزراء والموظفين يخدمون الدولة بعقولهم وتفكيرهم، ولما كانوا جميعا لا يراعون الاعتبارات الروحية فقد لا يفرقون – على غير

علم منهم – بين عبادة الشيطان وعبادة الله، ولكن من الناس أيضا من يخدم الدولة بضميره وروحانيته مثل الأبطال وزعماء الوطنية والشهداء والمصلحين العاملين. ولا مفر لمثل هؤلاء من مجابهة الدولة والاعتراض عليها، وسرعان ما تعتبرهم من الخارجين عليها وتعاملهم معاملة الأعداء.

ثم استطرد ثورو إلى مهاجمة الحكومة في عصره قال: "إني لا أستطيع أبدا أن أعترف بأن تلك المؤسسة السياسية هي حكومتي، لأنها حكومة تستبيح استعباد الرقيق، وعبر عن أنه من واجب المواطنين أن يقاوموا كل فساد فيها بكل ما أوتوا من قوة ولو أدى ذلك إلى عصيان قوانينها عصيانا سافرا.. قال:

"إذا كان سدس مجموع أمة من الرقيق، وهي مع ذلك تدعي أنها أخذت على عاتقها أن تكون ملجأ للحرية، فاني أرى أن الوقت الذي فيه يشق أحرارها عصا الطاعة غير بعيد، وأن واجب الشعب الأمريكي ألا يبيح استخدام الرفيق ولا أن يشهر حربا على المكسيك حتى ولو أدى ذلك إلى فنائه بوصفه شعبا.

وقد رثا ثورو كذلك لأولئك الأفراد الذين يظنون أنهم أدوا واجبهم بمجرد الانتهاء من الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات العامة قال:

"إن كل تصويت نوع من اللعب كالشطرنج أو النرد مع فارق طفيف هو المسحة المعنوية الرقيقة التي تعلوه، فهو لعب بالحق وبالباطل وبالمسائل الخلقية والمراهنة من شروطه غير أن ذمة صاحب الصوت لا دخل لها في

هذا الرهان. وليكن مفهوما أن مجرد الإدلاء بصوت ولو كان إلى جانب الصواب ليس له أية فائدة عملية إذ أنه لا يخرج عن تعبير ضعيف عن رغبة الناخب أن يسود العدل والحق، وبذلك لا يكون تصويت جماهير الناخبين ذا قيمة محسوسة.

كذلك ناقش ثورو الموقف الذي يجب أن يقفه كل مواطن إزاء القوانين الجائرة، وتساءل هل من الأفضل للفرد أن ينتظر حتى تأتي أغلبية تغير القانون أم الأفضل أن يرفض الطاعة لتلك القوانين فور صدورها؟ وكان جوابه الحاسم عن ذلك أنه إذا أرادت الحكومة أن تجعل مني أداة لاضطهاد الغير فمن الخير أن أخرق القانون. ومهما يكن من أمر، فكل ما يجب عليّ عمله ألا أناصر ظالما على ظلم يأباه ضميري.

وصرح بأنه من صميم طبيعة الحكومات أن تعارض كل تغيير وإصلاح، وأن تضطهد كل معارضيها. وإلا، لما صلبت كل يوم مسيحا ولعنت كل يوم كوبرنيقا أو لوثرا، ولما أعلنت كل يوم أن أمثال وشنطن وفرانكلن ثائرون مجرمون.

وحرض (ثورو) المناهضين لفكرة الرقيق بقوله: يجب على هؤلاء ألا يتعاونوا مع حكومة ولاية مساشوستس روحيا وماديا، وينبغي أن يتكتلوا لمناصرة الحق بأشخاصهم بدلا من أن ينتظروا حتى يفوزوا بأغلبية صوت. وفي يقيني أنه ما دام الله معهم، فلا حاجة بهم إلى أغلبية ما. ثم بعد هذا

فان رجلا واحدا يتبع سبيل الحق بمفرده دون جيرانه هو في حد ذاته أغلبية بشخصه..

ونبه مواطنيه أن في ميسورهم التعبير عن عصيانهم المدني للحكومة تعبيرا رمزيا بالامتناع عن دفع الضرائب. ولو أن ألفا من الناس أو أقل عبروا عن استيائهم من الحكومة بهذه الطريقة لسارعت إلى عمل الإصلاح، حتى ولو أدى بهم ذلك إلى تحمل العقاب "فإن حكومة يسجن الناس في عهدها ظلما يكون السجن أجدر مكان لكل حر.. فلو فرضنا جدلا أن الحكومة زجت بأنصار الحق والعدل في السجون بدلا من أن تنصاع فتوقف الحرب وتحرم الرقيق فستضطر الحكومة آجلا أو عاجلا أن ترجع إلى الصواب في عملها، لأنه إذا وفى المواطن ما عليه من الضرائب لحكومة غير عادلة في تصرفها فهو بعمله هذا يتغاضى عن المظالم التي ترتكبها الدولة".

ورأى (ثورو) أن الطبقة المثرية لا تستطيع أن تغامر بثروتها فتعصى الحكومة، لأن الرجل الغني قد باع نفسه للمؤسسة الذي استفاد منها ثراءً. ومن الأكيد أنه كلما زادت الثروة تناقصت الفضيلة، لأن المال وسيلة الرجل الغني إلى قضاء حاجاته، ولهذا استطاع ثورو أن يعلن عصيانه لأنه لا يحمل على كامله عبء الثروة. قال: "إن خسارتي باجتلاب عقوبة عصيان الحكومة أقل بكثير مما لو أطعتها، ولو أنني سلكت السبيل الأول لاحتقرت نفسي".

وقد أدرك (ثورو) الأسباب الاقتصادية الثقيلة التي كانت تحول بين ولاية مساتشوستس وبين اتخاذ إجراء ضد إباحة الرقيق قال:

"وحقيقة الأمر أن الذين يعارضون الإصلاح في ولاية مساتشوستس ليسوا هم المائة ألف من السياسيين في الجنوب، ولكنهم المائة ألف من التجار والمزارعين في هذه الولاية الذين تشغلهم أرباح التجارة والزراعة أكثر مما تشغلهم دوافع الإنسانية، والذين ينقصهم الاستعداد الإنصاف الرقيق والمكسيك مهما كلفهم الأمر".

وتمسك ثورو ست سنوات بمبادئه فلم يدفع الضريبة الشخصية ولم تزعزع مدة سجنه القصيرة من عقيدته، بل على العكس جعله ذلك أقل احتراما لحكومة الولاية قال:

لقد تبنت غباء الحكومة وجبنها وهو جبن أشبه بخوف المرأة المهجورة على فضياتها، ورأيت أنها لا تميز بين أصدقائها وبين أعدائها بدرجة يرثى لها، فزالت من نفسي البقية الباقية من احترامي لها. إن الحكومة تعجز عن أن تواجه معنويات الفرد العقلية أو الأخلاقية، وكل ما تستطيع فعله هو التغلب على جسده وحواسه فقط. إنها لا تتسلح بسلاح التفوق في الذكاء والشرف بل كل ما لديها هو تفوقها في القوة المادية. لقد خلقت عيوفا لا أنصاع للقوة الغاشمة وسأعيش كما يحلو لي أن أعيش.

على أن ثورو فرق بين الضرائب وقال: "ما امتنعت يوما ما عن أن أدفع ضريبة صيانة الطرق العامة أو ضريبة التعليم لأنني أريد أن أكون

على وئام مع الناس بقدر ما أنا متمرد على الحكومة"، وكان الحد الذي رسمه للامتناع عن أداء الضريبة خاصا بالضرائب التي تدفع التمويل الحرب ضد المكسيك واستخدام الرقيق قال: "وإني سأقف موقف العصيان من الحكومة وأنبذها جانبا بكل ما في من قوة في هاتين المسألتين". ولم يخف ثورو قط أنه لا يريد أن يجعل من نفسه شهيدا أو قديسا قال: "إنني لا أريد أن أثير النزاع بيني وبين أي رجل أو أية أية. ولا أريد أن أكابر أو أماري أو أن أدعي إنني رجل أفضل من الآخرين؛ فكثيرا ما التمست لنفسي المعاذير مهما وهمت في سبيل طاعة قوانين البلاد، وليس أحب إلى نفسي من طاعتها. والحق أني أكاد أتهم نفسي في هذا الشأن، إذ كلما حال الحول لأداء الضريبة خلدت إلى فكري وألقيت نظرة شاملة على الأعمال التي أدتها الحكومة العامة والحكومات المحلية ومقدار تقبل الناس لها حتى ألتمس لي منها وجها أيا كان أبرر به خضوعي للقانون".

ثم عاد ثورو وصرح بأن الأنظمة في بلاده لا ترتفع إلى مستوى مثله العليا غير أن "الدستور على ما فيه من عيوب دستور معقول مقبول. وأن القانون المدني والقضاء لهما أكبر الاحترام بين الناس وحتى حكومة هذه الولاية وكذا الحكومة الأمريكية تستحقان الإعجاب وهما أمران نادران جديران منا بالثناء والشكر".

ورغم قسوته على حكومة الأغلبية فإنه كان يشعر بالاطمئنان لدرجة ما إلى حكم الرأي العام. وفي رأيه أن كفاية المشرعين تقصر عن معالجة والمشاكل الثانوية في الضرائب والمالية والتجارة والصناعة والزراعة، فلو أننا

اقتنعنا بالكلمات التي تلقى في الكونجرس، وآمنا بتوجيهها وتقبلناها برمتها دون أن يكون لصوت الرأي العام وخبرته الطويلة أثر في تعديلها وصقلها لسقطت مكانة أمريكا بين أمم العالم.

وختم ثورو مقاله بكلمة عن رأيه في الحكومة المثالية، وفقرة رنانة عن اعتقاده في قيمة الفرد ومكانته المحترمة في المجتمع. قال:

"والحق الصراح أن قيام سلطان الحكومة لا بد له من تأييد المحكومين وولائهم؛ فليس للحكومة أي حق على شخصي أو مالي إلا بالقدر الذي أتنازل لها عنه. وليس الانتقال من الحكم المطلق إلى الملكية المقيدة، ثم الانتقال من هذه إلى الديمقراطية إلا تدرج مطرد نحو احترام شخصية الفرد احتراما حقيقيا. فهل تكون الديمقراطية كما نعرفها اليوم آخر مراحل التطور في نوع الحكم؟ أليس في الإمكان أن نخطو خطوة أخرى نحو الاعتراف بحقوق الإنسان وتنظيمها؟ إنه لن يكون هناك حكومة حرة مستنيرة إلا إذا اعترفت الدولة بأن الفرد قوة مستقلة ذات شأن خطير، وبأن كل سلطتها وقوتها مستمدة منه. وعلى هذا الأساس فقط يجب أن تعامله الدولة وتنظر إليه. إنني أشعر بالاغتباط الشديد كلما تخيلت في ذهني صورة حكومة تقوم على أساس توزيع العدالة على جميع أفرادها بالقسطاس، وعلى أساس معاملتهم بالحسنى كمعاملة الجار للجار، حكومة لا تنظر إلى بضعة نفر من أفرادها نظرة عداء إذا وقفوا منها موقفا سلبيا فقطعوا ما بينهم وجابوها، غير أنهم رغم ذلك يؤدون كل ما عليهم من واجبات الجار للجار والإنسان لأخيه الإنسان. إن دولة كهذه حملت مثل

هذه الفاكهة لا يضيرها ولا يهمها أن تسقط منها تلك الثمار بمجرد نضجها. مثل هذه الحكومة تمهد سبيل التطور نحو دولة أمجد شأنا وأكمل نظاما، وهي دولة أستطيع أن أتصورها كذلك وإن لم أرها بعد قائمة.

والمبدأ الأساسي الذي حاول أن يثبت صحته في مقاله هو أن الدولة نشأت لخدمة الفرد، ولم ينشأ الأفراد لخدمة الدولة. ومن حق الأقلية أن ترفض الانصياع لرأي الأغلبية إذا رأت أن ذلك يهدر القيم الخلقية. وأكثر من ذلك، أنه ليس للدولة الحق في أن تعتدي على الحرية الخلقية بإرغام المواطنين على تأييدها في الإخلال بالعدالة، بل يجب أن يكون وحي الضمير الإنساني هو المرشد الهادي للمرء.

ولم يحدث مقال "العصيان المدني" على أبناء جيله إلا أثرا تافها بدليل عدم وجود أي ذكر له في كتابات معاصريه. وأغلب الظن لو أنه صدر بعد ذلك بعشر سنين، أي في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية لصادف هوى في النفوس، ولكنه ظل مدفونا تحت أكداس مكدسة من مطبوعات أنصار تحرير الرقيق، وبقي مجهولا منسيا حتى حل القرن العشرون.

وهنا ينتقل المسرح إلى جنوب أفريقيا والهند عندما وقعت نسخة من كتاب ثورو عن العصيان المدني في يد محام هندوكي في إفريقيا هو (موهنداس كرامشند غاندي) عام ١٩٠٧ وكان الأخير يفكر تفكيرا جديا في الالتجاء إلى المقاومة السلبية لحماية بني جلدته في إفريقيا. وهنا يجدر بنا أن نروي القصة كما رواها المهاتما بعد مضي اثنتي عشر عاما في خطاب إلى

(هنري سولت) وهو من أوائل المترجمين لحياة ثورو قال: وعرفت أول ما عرفت شيئا عن كتابات (ثورو) في عام ١٩٠٧ أو بعد ذلك بقليل على ما أذكر، وكنت إذ ذاك أقود حملة المقاومة السلبية التي اشتد فيها النضال، فإذا بي ألفي كتاب العصيان المدني من صديق. فما أن قرأته حتى تأثرت به أشد التأثر فترجمت فقرة منه إلى الهندوكية نشرت في جريدة (الرأي العام الهندي في جنوب إفريقيا) التي كنت أصدرها في ذلك الحين ثم نشرت مقتطفات كبيرة من المقال في القسم الإنجليزي لتلك الجريدة.

وكان المقال من حيث صدق تعبيره ومدى إقناعه ما جعلني أشعر بحاجتي إلى الاستزادة من المعرفة بثورو فقرأت سيرته التي دبجها قلمه كما قرأت كتابه (ولدن) وبعضا من مقالاته القصار وقد استوعبت كل ذلك في لذة لا يعدلها سوى الفائدة التي انتفعت بها منه.

وقد أورد (هنرى بولاك) وهو أحد خلصاء غاندي والمقربين إليه، القصة نفسها بشكل آخر قال: ولست أذكر على وجه التحقيق ونحن في عام ١٩٣١ إن كنت أنا الذي عثرت بكتاب ثورو (من طبعة سكوت) عام ١٩٠٧ أم كان غاندي هو الذي عثر به. ولكننا عند قراءته شعرنا بعدالة حركة المقاومة السلبية والعصيان المدني. وبعد التداول مع مستر غاندي اتفقنا على ترجمة المقال إلى لغة الجوجرات ونشرت الترجمة فعلا في صحيفة (الرأي العام الهندي) كما نشر فيها باللغة الإنجليزية أيضا، ثم طبع الكتب على حدة ونشر على الجمهور. وفي العام نفسه أعلنت الجريدة عن

مسابقة لكتابة مقال عن الناحية الخلقية للمقاومة السلبية، على أساس مقال ثورو وتعاليم سقراط التي كان يدرسها مستر غاندي.

وكان غاندي غير مرتاح لعبارة "المقاومة السلبية" التي استعملها إلى ذلك الحين، فلما عثر على عبارة (العصيان المدني) فضلها على غيرها واستعملها للدلالة على حركته، ورأى فيها مبدأ يدعو إلى الحزم والثبات وإلى الإيمان بالحق والعدل دون ما التجاء للعنف. وهي سياسة تتفق مع فلسفة غاندى تمام الاتفاق. وأصبح العصيان المدني في يد غاندي إنجيلا يدعو به إلى عدم المقاومة. هذا، وقد نحت غاندي من اللغة السنسكريتية عبارة ترادف "العصيان المدني" تكون شعارا لأنصاره وهى (سايتا جرافا) مكونة من كلمتين ترجمتهما "القوة الروحية" أو "القوة التي تولد من الحق والحب أو عدم الالتجاء إلى العنف".

وكان النضال الذي تزعمه ثورو ضد استخدام الرقيق في الولايات المتحدة وألهم غاندي بالاعتقاد بأن قوة حركة (سايتا جرافا) لا تقاس بضخامة عدد أنصار المقاومة، وإنما تقاس بالإخلاص في تحمل التضحيات بنفوس راضية، قال غاندي: "إذا كان تنفيذ العقوبات مستحيلا ضد قلة عنيدة من الناس، فهي أشد صعوبة إذا نفذت على عدد أكبر من الأبرياء الذين لم يرتكبوا إثما وإنما يرفضون دفع الغرامة القانونية استمساكا بمبادئهم. لو أن هذه الأحكام نفذت على أشخاص متفرقين لجأوا إلى هذه الطريقة العملية للاحتجاج لما أثار ذلك اهتمام أحد، غير أن القدوة الحسنة لها قوة فعالة في اجتذاب الأنصار، فتفشو الحركة بين الناس

وتنتشر، ويصبح الذين ضحوا في سبيلها موضع الثناء والتهنئة بدلا من أن يكونوا موضع الاشمئزاز والرثاء. إن رجالا فرادى مثل (ثورو) انتصروا في قضية تحريم الرقيق لأنهم تقدموا الصفوف بأشخاصهم فكانوا قدوة للعالم أجمع.

ولم يكن غاندي إلا مرددا لآراء (ثورو) عن قوة فئة قليلة ثابتة على إيمانها، وعلق (شري ذاراني) على ذلك بقوله: "لم يقتصر ثورو على اختراع سلاح العصيان الذي اعتبره غاندي ركنا ركينا في حركته بل نبه إلى القوى الهائلة الكامنة في استخدام سلاح "عدم التعاون" وهو الذي استغله غاندي فيما بعد استغلالا واسعا لهدم حكومة فاسدة باغية.

وظل غاندي طوال عام ١٩١٤ في إفريقيا الجنوبية في حرب متواصلة لا هوادة فيها على حكومة إفريقيا وقواتها بقيادة (سمطس) والتي لجأت فيها الحكومة إلى جميع ألوان الاضطهاد والعنف والسجن وغيرها من الوسائل لقمع حركة جالية قليلة مكروهة من الشعب. ولكن الأساليب التي اتبعها غاندي كعدم التعاون وعدم المقاومة، والعصيان المدني أو (ساتيا جرافا) كتب لها النصر أخيرا، واضطر (سمطس) أن يجيب الهنود إلى جميع مطالبهم فألغى قانون البصمة وقانون ضريبة الرءوس وقيمتها ثلاثة جنيهات على كل هندي، واضطر إلى الاعتراف بصحة عقود الزواج بين الهندوس وعند المسلمين، ورفع قيود حظر هجرة الهنود المتعلمين إلى جنوب إفريقيا. كما تكفلت الحكومة بحماية الحقوق المدنية للجالية الهندية.

وقال مؤرخ أخر من مؤرخي حياة غاندي "أن حملة العصيان التي قادها في جنوب أفريقيا لا تعتبر أول تطبيق عملي لمبدأ المقاومة السلبية فحسب، بل تعتبر كذلك مثلا أعلى لتنفيذ حركة العصيان المدني الذي قام به جمهور منظم بغية رفع الجور الذي حاق به.

قال (شري ذاراني) عن غاندي: "إن تفسيره لحركة العصيان المدني يتلخص في أن كل الذين يطيعون القانون في جملته يملكون الحق كذلك في أن يعصوا القوانين التي تنحرف عن العدل والصواب. وفي هذا يختلف أنصار العصيان المدني عن المجرم الخارج عن القانون لأن الأول يخرج على القانون علنا ويحدد تاريخا لعصيانه. وفي طبيعة هذا العصيان أنه لا يشجع على خرق القانون أو إشاعة جو من الفتنة والاضطراب إذ أننا لا نلجأ إليه إلا بعد أن تفشل جميع الوسائل السلمية من الالتماس والمفاوضة والتحكيم فشلا تاما وتعجز كلها عن إصلاح ما نزل به من ظلم وجور.

وعاد غاندي إلى الهند في أوائل عام ١٩١٥ وظل هناك يتزعم الحركة التي انتهت بتحررها ويتحرر باكستان عام ١٩٤٨ عندما اغتالته يد مجرم هندوكي، وتكررت في الهند حوادث جنوب إفريقيا من مشاغبات ومذابح وسجن ومصادرة للحريات وإصدار قوانين استثنائية قاومتها الحركة وناوأتها، فتكررت حركات العصيان المدني الذي جعل منه غاندي سلاحا ماضيا فعالا. وكانت مراتب العصيان على درجات تبدأ بإثارة الاضطراب والمظاهرات والمفاوضات والتحكيم إذا أمكن، فإذا لم تنجح هذه الأساليب جاءت الخطوة التالية وهي ذات طابع اقتصادي مثل الإضرابات الجزئية

ومراقبة تنفيذها، ثم الإضرابات العامة والمقاطعة التجارية والإضراب السلبي بالجلوس في الطرق والميادين وعدم دفع الضرائب إذا اقتضى الأمر.

وفي عام ١٩٤٧ منحت إنجلترا الحكم الذاتي للهندوك في الهند، وللمسلمين في باكستان ضمن دائرة الكومنولث.

ولا شك في أن المستقبل سيشهد حركة عصيان مدني من جديد كما فصلها ثورو وكما نفذها غاندي تنفيذا وصل بها إلى درجة الكمال. وتستطيع الأمم المكبوتة في العالم إذا استخدمت هذا السلاح أن تشعر حكامها بقوتها مهما بلغوا من البطش والقوة. والمثل على ذلك قائم بين أيدينا في جنوب إفريقيا حيث تناضل الأجناس الملونة نضالا جبارا ضد حكومة (ستريجدم) وهو صورة طبق الأصل النضال الصادق الذي تزعمه غاندي.

قال غاندي: "مهما كانت شدة استبداد الحكومة فإنها لن تستطيع الصمود إلا بموافقة المحكومين وتأييدهم لها، وهو تأييد يسعى إليه الحاكم ويحرص على الوصول إليه ولو بالقوة. ولكن اللحظة التي تطرح الرعية عنها خوفها من الحاكم المستبد تكون نفس اللحظة التي تؤذن بزوال سلطانه.

وقد استنكر ثورو أي شكل من أشكال الحكم الذي يفرض الطاعة على الأفراد دون نظر أو تقدير لحرية الفرد. وتقف مبادؤه على أسس تناقض مبادئ الاشتراكية والشيوعية كل المناقضة، كما تناقض كل مبدأ

يجعل حقوق الدولة فوق حقوق الأفراد، ولا بد من التسليم بأن مبادئ (ثورو) دخلت معركة خاسرة عندما قامت في منتصف القرن العشرين أنواع من الحكم تناقض تلك المبادئ..

ورغم ذلك فإن مسألة علاقة الفرد بالحكومة، أو بالحري مدى طاعته للدولة، وطبيعة هذه الطاعة أصبحت من المسائل الكبرى التي تشغل الأذهان في عالمنا الحاضر.

قال (بارنتون): "نجد في كتابات (ثورو) أن اكتمال فلسفة القرن الثامن عشر التي أطلقها (جان جاك روسو) ونادى فيها بأهمية الفرد ووجوب إطلاقه قد ازدهرت أكمل ازدهار في نيو إنجلند. إن ثورو كان مثالا مجسما للحرية الفردية في مجتمع جامد العرف والتقاليد، كما كان أعنف ناقد للإجراءات الاقتصادية التي تقف حائلا دون تحقيق أماني الحرية الإنسانية. والحق أن ثورو كان مجددا لأنه مات قبل أن يرى بعينيه مساوئ الاستغلال تقضي على مبادئه. كما كان محدودا حقا لأنه لم يدر بخلده قط أن ذلك المستقبل الزاهر الذي عقد عليه كل آماله والذي ينعم فيه الأفراد بكامل حريتهم، لا يزال مأربا بعيد الشقة عظيم المشقة.

جهاد في سبيل المستضعفين:

٦ـ قصة كوخ العم توم

"هاربيت بيتشر آستو"

أجمع النقاد والمقرظون على رأي واحد بشأن هذا الكتاب، إذ أعربوا في تعليقاتهم عما كان له من الوقع الشديد على أبناء عصره، وعن أثره البعيد المدى في إشعال نار الحرب الأهلية الأمريكية؛ فمن ناحية يقول ناقد متطرف معاصر: بأنه صورة شوهاء رسمها تعصب أنصار تحرير الرقيق، ومؤامرة حيكت لإثارة الشقاق بين الطبقات المختلفة، كما وقف كاتب مشهور ومحاضر معروف في مطلع هذا القرن يقول إن "كتاب كوخ العم توم" قد جر من الكوارث ما لم يجره كتاب آخر على الإطلاق.

وفي ناحية أخرى نجد فريقا كبيرا من المعجبين يعبرون عن إعجابهم بمثل ما جاء في رسالة من الشاعر (لونجفلو) إلى الكاتبة يقول فيها: وان كتاب كوخ العم توم يعتبر في رأيي أعظم انتصار سجله تاريخ الأدب، فضلا عما تركه من الأثر الخلقي العميق، هذا وقد رحب به آخرون على

أنه انتصار للحقيقة والواقع، وأنه كتاب خالد، وأن مؤلفته امرأة عبقرية دون منازع.

ولم يحدث قط أن كتابا عالج مسائل الساعة التي تشغل أذهان جيله، أو نشر على الناس في اللحظة المواتية، مثل هذا الكتاب. وكانت مسألة الساعة هي مسألة الرقيق، وقد بلغ النضال بين أنصاره وأعدائه درجة كبيرة من الشدة، وقد تحرجت الأمور تحرجا كبيرا وبخاصة بعد صدور قانون الرقيق الآبق، في تلك الفترة. وكان أنصار التحريم يقيمون الدنيا ويقعدونها بحملاتهم الشديدة على إباحة الرقيق طوال العشرين سنة السابقة بشكل انقسم فيه الكونجرس فريقين، ودخل رجال الدين حومة المعركة، في الولايات الشمالية والجنوبية يهددون من فوق منابرهم بأدلة من الكتاب المقدس تحرم استخدام الرقيق أو تحلله. وأصبح الجو الخلقي مشحونا بكهرباء هذه المنازعات. فجاء كتاب وكوخ العم توم ، فأطلق الشرارة الأولى التي أشعلته وأحدثت انفجارا مدويا.

ولم تكن الساعة مهيأة لتقبله فحسب، بل كأنما كانت الأجيال السابقة عليها تعمل على إعداد شخص بالذات عن طريق الوراثة والبيئة ليعلن حرب الجهاد ضد استرقاق بني الإنسان.

فالمؤلفة ذاتها ابنة أشهر رجال الدين في القرن التاسع عشر هو (ليمان بيتشر) وأخت (هنرى وورد بيتشر) من رجال الدين الأفذاذ الذي فاق أباه صيتا وشهرة، وهي كذلك زوجة قس وأخت وأم لعدد آخر من

رجال الدين. هذه هي (هاربيت بيتشر استو) التي أمضت حياتها كلها في جو شديد من التدين. وهي زيادة على ذلك نشئت على التعاليم الكلفينية المتزمتة على غرار (جوناثان ادواردز) و(صمويل هوبكنز) وغيرهما من غلاة المتطهرين في ولاية نيو إنجلند عاشت هاربيت في بيئة تشتعل حمية دينية، فلم يكن لها بد من التشبع بروح التبشير. فإن لم يكن بلسانها فبقلمها، وذلك واضح في كل كتاباتها ومنها كتاب كوخ العم توم، تلك النزعة الدينية التي بعثت فيها تحمس الرسل الأولين للدين وألهمتها ذلك البيان الساحر الذي يعدل الإنجيل أو يكاد.

ولدت هاربيت بيتشر استو في بلدة (لتشفيلد) من أعمال ولاية (كينيكت) عام ١٨٠١ وتلقت علومها في مدرسة هارتفرد على مستوى أعلى مما كان يدرس للفتيات في ذلك العصر عادة. وكانت مادة الدين تشغل ثلثي مواد الدراسة، ولها ولع شديد بالقراءة والاطلاع بفضل شعر بيرون وكتابات سكوت اللذين أثرا تأثيرا بينا في أسلوبها الكتابي فيما بعد.

وكان أبوها (ليمان بيتشر) كثير الحركة والتنقل، جم النشاط فانتقل هو وأسرته من ليتشفيلد إلى أبرشية بالقرب من مدينة بوسطن عندما كانت هاربيت في الرابعة عشرة من عمرها، ثم عاد فانتقل مرة أخرى إلى بلدة سنسناتي حيث دعي لرياسة جمعية (لين) اللاهوتية التربوية، وهناك استقر بهم المقام وظلت هاربيت تعيش فيها مع أسرتها حتى عام ١٨٥٠ واشتغلت بالتدريس، ثم تزوجت من أحد أعضاء هذه الجمعية هو (كالفن

استو) وأنجبت هناك ستة من أطفالها السبعة، واشتغلت بكتابة القصص القصار والطوال نشرتها لها بعض المجلات.

وقد انتفعت بمقامها في (سنسناتي) أيما انتفاع، فالمدينة واقعة على ضفة نهر الأوهايو المقابلة لولاية (كنتكي) حيث المزارع التي يستخدم فيها الرقيق، وبطبيعة موقعها كانت مركزا للخصومة والجدل الثائر بين أنصار التحريم وأنصار التحليل. وكثيرا ما اقتحمت الغوغاء شوارع المدينة تحطم دور الصحف المناصرة للتحرير، وتنزل الأذى بالمعتقين من العبيد. وكانت مسرحا للخطب العنيفة والألفاظ الجارحة بين كل من طرفي الخصومة. وكانت جموع الفارين من العبيد تلجأ إلى سنسناتي مختبئين في القطارات التي تصلها في طريقهم إلى كندا حيث يستردون حريتهم. وكانت دار جمعية (لين) نفسها مرجلا يغلي بالعداء الشديد للاسترقاق، ولم ينقذها من هجمات الغوغاء غير أوحال الطرق الوعرة التي تمتد ميلين خارج المدينة.

وكثيرا ما استمعت هاربيت من أفواه الزنوج الهاربين قصصهم الرهيبة، عن تشريد أسرهم والفظائع التي يرتكبها مراقبو الرقيق وشناعات النخاسين والفزع الشديد الذي يخامرهم خوفا من ضبطهم وإعادتهم.

وتصادف أن رأت (مسز استو) كيفية استخدام العبيد رأي العين؛ ففي زيارة قصيرة بصحبة بعض أصدقائها لبلدة (مايزفيل) في كنتكي عام ١٨٣٣ رأت عددا من المزارع تتوسطها قصور ملاكها الفخمة، وشاهدت كذلك مساكن العبيد فيها. فأوحت إليها هذه صورة (مزرعة شلبي) التي

وصفتها في رواية (كوخ العم توم) وتوالت ملاحظاتها وزادت معلوماتها عن نظام استخدام الرقيق. وقد زودها أخوها (تشارلس) وهو من رجال الأعمال، وكان يقتضيه عمله السفر إلى نيوأورليانز وأراضي ردرفر بمزيد من القصص المروعة عن الأرقاء وسوء معاملتهم في أقصى الجنوب. والحق أن هاربيت مدينة لأخيها عن نموذج شخصية (سمون ليجري) وهو أحد شخصيات (كوخ العم توم) وقد بنت تلك الشخصية على غرار أحد سفلة المراقبين وأشرارهم الذين التقى بهم تشارلس على ظهر باخرة في نهر المسيسبي.

ومع هذا لم تكن هاربيت من أنصار تحريم المسافرين طوال إقامتها في مدينة سنسناتي، ولعلها كانت متأثرة برأي والدها في كلامه عن المتحررين إذ كان يصفهم بأنهم "خلقوا من خليط من الخل والأحماض وماء النار والكبريت والبارود والفحم التي تنفجر فتنتشر حولها المواد القاتلة، والحقيقة أن (مسز استو) ظلت وسط ذلك النزاع المستفحل حول مشكلة العبيد من المتفرجين المحايدين، ولم تشترك اشتراكا فعليا في حركة المعارضين حتى اليوم الذي عادت فيه إلى ولاية (نيو إنجلند) حيث عين زوجها (كالفن استو) أستاذا بكلية (بودوين) في (ولاية مين) ونقل إليها أسرته نهائيا عام ١٨٥٠.

وكان الرأي العام في ولاية (نيو إنجلند) تجتاحه موجة من الاستياء بسبب صدور قانون الأرقاء الهاربين، ضاعفتها حوادث تتصل بتطبيق هذا القانون وقعت في مدينة بسطن إذ كان القانون يبيح مطاردة الرفيق الهارب

داخل الولايات التي تحرم استخدام الرفيق، وينص كذلك على أنه من واجب الموظفين الرسميين في تلك الولايات أن يستعملوا سلطتهم في القبض على العبيد الهاربين وتسليمهم إلى أسيادهم. وكثيرا ما حدث أن قبض على أرقاء معتقين قانونا من مدد طويلة وأعيدوا إلى أسيادهم وشردت أسرهم بسبب هذا الإجراء.

وحدث أن وصل مسز استو خطابا من زوجة أخيها (ادوارد بيتشر) وفيه تتوسل إليها، أن تكتب شيئا يجعل الأمة بأكملها تشعر بشناعة ذلك الجرم الذي يسمى الاسترقاق، فشمرت استو عن ساعد الجد كما هو شأن أسرتها قائلة: "سأستمد العون من الله فيما أكتب إذا امتد بي الأجل" وكان أخوها إدوارد حينذاك يحمل حملات شعواء من فوق منبره في بسطن على تجارة الرقيق، وكذلك أخ آخر لها هو هنري في كنيسة بروكلين يعقد قرضا للرقيق ليدفع فديته ويحرره.

وكان أول فصل كتبته في قصتها هو ذروة القصة، وفيه وصفت (موت العم توم) وروت أن هذا المنظر بكل تفاصيله بعث في خيالها وكأنه حقيقة تراها العين، عندما كانت تحضر الصلاة في الكنيسة. وفي عصر اليوم ذاته سارعت إلى غرفتها وأوصدتها ثم عكفت تدون هذا المنظر حتى انتهت منه. وحدث أنها أتمت كتابة القصة على قصاصات من ورق التغليف لما نفد ما لديها من ورق الكتابة. وهذا المنظر هو الفصل الذي تضمنته روايتها تحت عنوان (الشهيد) ثم قرأت ما كتبته على أطفالها وزوجها الذين تأثروا به أيما تأثر، وعندها قال لها زوجها: "يا هاتي! إن هذا

المنظر هو ذروة القصة التي عاهدت (أزايل) على كتابتها ضمي إليه بداية مناسبة ثم تدرجي حتى تصلي إلى هذه الذروة وعندها يكون ختام قصتك.

وبعد عدة أسابيع كتبت هاربيت استو إلى (جماليل بيلي) رئيس تحرير (العصر الوطني) وهي جريدة مناصرة لمبدأ تحريم الرقيق في وشنطن. وكان بيلي قد تعرف بأسرة بيتشر في سسناتي حيث كان يصدر جريدة (فيلانتروب) أو نصير الإنسانية، وهي جريدة تحررية. غير أن عدوان الغوغاء عليه اضطره إلى الفرار من المدينة، وروت له في رسالتها عزمها على كتابه قصة مسلسلة تسمى (كوخ العم توم) في ثلاثة أو أربعة أعداد، فاشترى منها (بيلي) حق النشر بثلاثمائة دولار. وبدأت الصحيفة تنشر القصة المسلسلة في يونيه عام ١٨٥١.

ولكن القصة التي قررت لها مسز استو أن تنتهي منها في شهر، امتدت إلى أكثر من ذلك بكثير؛ فالمناظر والحوادث والشخصيات والحوار التي اختزنتها ذاكرتها من خبرات الماضي، أو من مطالعاتها ازدحمت على قلمها السيال. وكلما أوغلت في قصتها حلق بها الخيال، وازدادت حماستها إلى درجة الهوس. وظلت الحلقات الأسبوعية تتري طوال سنة كاملة قبل أن تصل المؤلفة المجهدة إلى نهاية قصتها. ولما وضعت القلم عن يدها قالت في إيمان: لقد كانت يد الله تكتب هذا الكتاب ولم أكن إلا أداة في يده.

والفكرة الأساسية في قصة (كوخ العم توم) غاية في البساطة وعدم التعقيد رغم كثرة عدد الشخصيات التي تتناولها، إذ بدأت المؤلفة قصتها

بوصف أحد ملاك الرقيق في (كنتكي) هو مستر (شلبي) وكان رجلا خيرا ولكن الديون تراكمت عليه فاضطر لوفائها أن يبيع بعضا من أجود عبيده، ومنهم العم توم لتاجر من تجار الرقيق في نيو أورليانز ويدعى (هيلي)، ويحدث أن تسمع فتاة خلاسية تدعى (الايزا) الحديث بين (هيلي وشلبي) من مخبئها وتعلم أن طفلها (هاري) سيباع مع الرقيق الآخر فتنتهز فرصة حلول الظلام وتحمل طفلها وتعبر به مياه نهر أوهايو المتجمد وتلجأ إلى كندا حيث تتمتع بالحرية، ويتبعها بعد ذلك زوجها (جورج هاري) وهو عبد يشتغل في مزرعة مجاورة، وينضم إليهما، وبعد محاولات وأخطار بينهم وبين مطارديهم، ينجون بفضل جماعة (الكويكريين) وغيرهم ممن يطغون على الرقيق ثم يصل الجميع إلى كندا ومنها يعودون إلى موطنهم في إفريقيا.

ولكن العم توم كان أقل من هؤلاء توفيقا في هربه، إذ أنه رفض أن يهرب حتى لا يقيم العراقيل في وجه سيده (شلبي) كي يبقى بجوار زوجته وأولاده. وفي أثناء نقله إلى نيو أورليانز بالباخرة في نهر المسيسيبي ينقذ حياة طفلة تسمى (أيفا) من الغرق؛ فيشتريه أبوها من تاجر الرقيق اعترافا منه بجميله. ويقضي توم عامين سعيدين في خدمة سيده الجديد في قصره بمدينة نيو أورليانز مع الطفلة الجميلة الوادعة (أيفا) وخادمها الصغير الشقي (توبى) ويحدث أن تقضى أيفا نحبها ويفكر (سان كلير) في أن يعتق العبد توم وبقية عبيده. ولكن تشاء الأقدار أن يقتل (سان كلير) في حادث شجار فتأمر زوجته ببيع توم في سوق العبيد فاشتراه مزارع سكير عربيد فظ يدعى (سمون ليجري) من مزارعي النهر الأحمر. ورغم وداعة توم وحسن خلقه ومحاولته جهد طاقته إرضاء سيده غليظ القلب، فانه لم يفلح

إلا في إثارة غضبه وجر الكراهية والأذى على نفسه. وحدث في مزرعة هذا الرجل أن امرأتين من الرقيق هما (كيسي وإميلين) هربتا من المزرعة واختفيتا عن الأنظار. ويتهم (ليجري) العم (توم) بمعاونتهما على الهرب، ويشتبه في أن توم يعلم مكان اختفائهما. وعندما أنكر توم ذلك أنزل به أشد العقاب وضربه ضربا مبرحا حتى أغشى عليه. وبعد ذلك بأيام قليلة جاء (جورج شلبي) وهو ابن سيد توم السابق ليسترد توم، ولكنه جاء متأخرا، إذ قضى توم نحبه بعد أن ضرب ضرب التلف. فثار جورج واعتدى على (ليجري) ثم عاد إلى (كنتكي) حيث أعتق جميع عبيده تخليدا لذكرى توم، وأوقف حياته بعد ذلك على مناصرة قضية تحريم الرقيق.

ورغم أن صحيفة (العهد الوطني) لم تكن عظيمة الرواج، إلا أن القصة قوبلت بترحاب وحماسة شديدين في شهور قليلة. وقبيل نشر النهاية ظهرت القصة في شكل كتاب، وتولت دار طباعة صغيرة يملكها شخص يدعى (جون. ب. جيويت) في بسطن طبع الكتاب في عجلة وسرعة ظاهرة الأسباب، منها أن القصة طويلة، وأن المؤلف امرأة، وأخيرا لأن موضوع القصة موضوع شائك غير محبب النفوس الجماهير. واحتاط (جيوبت) حتى لا يقع في أزمة مالية فعرض على أسرة استو أن تتقاضى نصف الأرباح على أن تدفع نصف تكاليف الطبع، ولكن أسرة استو فضلت أن تحصل على عشرة في المائة من ثمن النسخ المبيعة بدلا من ذلك العرض، وقد كلفهم هذا الاختبار ضياع ثروة طائلة من أيديهم.

ولم تكن المؤلفة ولا الناشر يقدر النجاح لقصة (كوخ العم توم) فقد قدرت المؤلفة أن يصل إليها من الربح ما يضمن لها شراء ثوب جديد من الحرير، وبلغت نسخ أول طبعة خمسة آلاف نسخة، كل نسخة من جزءين مصدرة بصورة كوخ من أكواخ العبيد، طبعت من أصل محفور على لوح من الخشب.

وفي يوم صدور الكتاب بيع منه ثلاثة آلاف نسخة دفعة واحدة وارتفع العدد فوق ذلك في اليوم التالي، بينما ازداد الطلب على الكتاب. ولم يمض أسبوع حتى ارتفع عدد النسخ المبيعة إلى عشرة آلاف نسخة، ولم تمض سنة حتى كان مجموع ما بيع منه قرابة ٣٠٠.٠٠٠ نسخة في الولايات المتحدة وحدها. واشتركت ثمان دور كبيرة للطباعة ليل نهار في طبع الكتاب لمواجهة الطلب المتزايد عليه، كما ظلت مصانع الورق هي الأخرى تواصل عملها دون توقف لإمداد المطابع بورق الطباعة، ورغم كل ذلك المجهود عجز الناشر عن تلبية جميع الطلبات بما يقدر بآلاف النسخ. ويدل ذلك على أن كل من يستطيع القراءة والكتابة في البلاد قد قرأ القصة.

وفاق رواج قصة (كوخ العم توم) خارج أمريكا ما لقيه فيها، وكانت بداية ذلك أن موظفا صغيرا من شركة (بنتام) باع نسخة من كتاب الناشر الإنجليزي مقابل خمسة جنيهات، ثم توالى طبع النسخ المسروقة بشكل سافر، لأنه لم يكن هناك قوانين دولية لحماية حقوق المؤلف والناشر. وسرعان ما اشترك في هذا العمل ثمان عشرة من دور الطباعة الإنجليزية

واجهت الطلب المتزايد على الكتاب بأربعين طبعة مختلفة الأشكال والأحجام، وقدر بعضهم أن مليونا ونصف مليونا من النسخ بيعت في إنجلترا والمستعمرات وحدها لم تربح منها مسز استو قلامة ظفر. وفي الوقت ذاته بدأ الناشرون في القارة الأوروبية يجنون الذهب من ورائه إذ ترجم الكتاب إلى ما يقرب من اثنتين وعشرين لغة؛ فراج في فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا رواجا عظيما يعدل ما لاقاه بين الأمم الناطقة بالإنجليزية.

وزيادة على ذلك فإن القصة حورت إلى مسرحية ونالت إقبالا من الجمهور لم تحرزه أية مسرحية على المسرح الأمريكي من قبل، وتنوعت المسرحيات بتنوع فرق التمثيل المتجولة التي مثلتها على أغلب مسارح الدنيا حوالي القرن الماضي. وهنا أيضا لم تنل المؤلفة أي ربح مادي من وراء هذه المسرحيات لأن قانون حق النشر المعمول به عام ١٨٥٢ لم يخولها أي حقوق على هذه التمثيليات. وواقع الأمر أن المؤلفة لم تكن تحب المسرح، ورفضت مرارا الإذن باقتباس القصة للمسرح.

وجملة القول أن النجاح الساحق الذي أحرزه كتاب (كوخ العم توم) لا يعدله نجاح أي كتاب في تاريخ النشر الحديث إلا أن يكون الكتاب المقدس الذي فاق رقمه القياسي رقم هذا الكتاب. وقد أصبحت القصة بجميع صورها التي ظهرت في الأدب والمسرح والشعر والموسيقى جزءا لا يتجزأ من تراث الملايين الحريصين عليه في شتى بقاع البسيطة.

وكان عظم وقعه على تفكير أهل عصره لا يعدله إلا شدة إقبال الناس على اقتنائه، وقد وصف أحد أبنائها أو أحد أحفادها في زمن لاحق ذلك الإقبال قال: "لقد كان أشبه بحريق هائل أضاء أرجاء السموات وأثار موجة هائلة من الانفعال اكتسحت كل ما اعترضها اكتساحا فعبرت عرض المحيطات في قوة جارفة كأنما أمست الدنيا برمتها لا يشغلها شاغل سوى التفكير فيه والحديث عنه.

وهبت من الولايات الجنوبية (وهم ملاك الرقيق) عاصفة هوجاء من الغضب والحنق والتسفيه والسخرية على رأس المؤلفة حتى أصبح اسمها مرادفا للأمير الشرير، وفاضت أنهر الصحف بمقالات شديدة في نقدها وإبراز خطئها ومغالطاتها في تصوير حالة العبيد. ونورد مثلا لذلك تعليقات صحيفة (الرسول الأدبي في الجنوب) قالت: وإن الكتاب ليس إلا خطأ إجراميا شائنا من كل المظاهر السامية للخيال الإنساني، وأن المؤلفة بتحريها الحقائق ولم تدع مجالا للرحمة في قلوب نقادها في الجنوب، ولم تقف محنتها عند ذلك بل انهالت عليها آلاف من رسائل السباب والشتائم. على أنه في أول الأمر كان انتشار الكتاب مباحا في الجنوب، ولكن رد الفعل الذي أحدثه هناك جعل انتشار الكتاب خطرا داهما على صاحبه.

ومن سخرية القدر أن مسز استو كانت تعتقد وتؤمل أن تكون قصتها سببا من أسباب حل مسألة الرقيق التي طال عليها الزمن حلا سلميا، وبلغ التفاؤل بأحد أصدقائها حدا عظيما فكتب إليها: "إن كتابك سيكون عاملا على سيادة السلام والمحبة وتوحيد الشمال والجنوب" والحق

أن مسز استو صورت في كتابها حجج الفريقين المتخاصمين تصويرا عادلا فوصفت في روعة الرعاية والحنان الأبوي الذي يلقاه العبيد، كما وصفت القسوة والفظاظة في جهة أخرى. وقد رسمت شخصيتين عظيمتين لسيدين فاضلين رحيمين بعدهما في الجنوب هما مستر شلبي ومستر سانكلير؛ كما صورت الطفلة المدللة (أيفا) تصويرا جعلها في صفوف الملائكة بين أطفال الأدب جميعا. وأما سيمون ليجري فهو الرجل الشرير في قصتها الذي ارتد من المسيحية إلى ديانته اليهودية الأصلية. وأما جانب الدعاية والترفيه فيمثله في القصة شخصان هما (مس أوفيليا) و(ماركس) ولم يفت المؤلفة أن تنبه إلى أن الشماليين لا يعلمون عن حقيقة حال العبيد شيئا وأنهم يعطفون عليهم عطفا فكريا مجردا.

ورغم ما شهدت به المؤلفة من حسن معاملة بعض الجنوبيين لعبيدهم لم ير في ذلك أهل الجنوب ترضية كافية تشفي حقدهم عليها. وظلت الشتائم تتناولها من كل جانب، واتهمها البعض بأنها تشوه الحقائق. ودلل البعض الآخر على ذلك بأن قوانين الجنوب تنزل أقسى العقوبات مرتكبي جرائم قتل السود مثل ما تنزله بالمجرمين على قتل البيض، وأن اللوائح تحرم فصل أطفال العبيد عن أمهاتهم إذا لم يكونوا بلغوا سن العاشرة. وأخيرا فالعبيد ثروة لا يستهان بها بحيث يكون من الحمق تعريضهم لأذى شديد يصل بهم إلى التلف.

وأما في الولايات الشمالية، فكان استقبال الكتاب بين بين؛ فالبعض عارضوه رغم مقتهم واستنكارهم استخدام الرقيق خشية أن تثير مشكلتهم

حربا أهلية. والبعض الآخر من الشماليين الذين يستغلون أموالهم في تجارة القطن بالولايات الجنوبية كانوا يخشون ضياع أموالهم هناك. وقد عبرت عن رأيهم صحيفة التجارة في نيويورك في مقال بذئ مليء بالسباب شكك في تحري المؤلفة الحقائق. فإذا نظرنا نظرة عامة نجد أن جمهور القراء الشماليين قد استقبلوا الكتاب بأنه اتهام عادل لجميع نظام الرقيق. ولم يحدث أن كتابا ما أيقظ الضمير القومي وعواطف الإنسانية بمثل ما فعل هذا الكتاب، فإن صيحته الدينية المدوية نفذت إلى جميع القلوب فأمنت بأن تجارة الرقيق لم تكن سوى تجارة محرمة في الأنفس البشرية.

وكان الأثر الأول للكتاب تعطيل تطبيق قانون الرقيق الآبق، فباستثناء الولايات الجنوبية، أجمعت الولايات الأخرى على عدم التعاون مع رجال الجنوب في القبض على الأرقاء الهاربين. والطامة الكبرى بعد ذلك أنه خلق موجة هائلة من الشعور الاجتماعي ضد تجارة الرقيق، وهذا ما جر إلى الاعتقاد بأن الكتاب كان عاملا فعالا في نشوب الحرب الأهلية الأمريكية، ولا مرية في أنه كان من أسباب تلك النكبة، كما قال أبراهام لنكلن مخاطبا المؤلفة عندما استقبلها في البيت الأبيض عام ١٨٦٢: "أهلا بالسيدة الصغيرة التي كتبت الكتاب الذي أشعل نار هذه الحرب الكبيرة، أو كما قال عنه (تشارلس سميز) في حديث له: "لو لم يكتب كتاب (كوخ العم توم) لما انتخب لنكلن رئيسا للولايات المتحدة".

أما الكتاب من حيث قيمته الأدبية فلم يلق اهتماما من أدباء عصره، ولو أن المتأخرين منهم ناقشوه ونقدوه من الناحية الأدبية، فقال

عنه المؤرخ (جيمز فورد رودس): "أن أسلوبه لا يرتفع عن المستوى العادي، ولغته بعيدة عن سلامة العبارة، وتسف أحيانا إلى مستوى العامية، وأما الدعابة فيه فمتكلفة. وقال ناقد آخر من الجنوب هو (ستارك ينج) عما ورد في الكتاب من لغة العبيد: "إن المؤلفة رأت كثيرا من السود ولكنها عجزت عن أن تجعلهم يتكلمون لأنها لا تملك الأذن الحساسة لتدرك التناسق الموسيقي والحيوية التي يمتاز بها كلامهم". وأما (فان ويك بروكس) فإنه يشير إلى نقائص الكتاب قائلا: "إن عباراته واضحة الركاكة في التركيب، وهو مليء بالنواحي العاطفية، ومع هذا فقد وصفه بأنه من أعظم الوثائق الإنسانية. وفي العصر الحديث قالت الكاتبة (كاترين أنتوني) أنها تعتقد أن القصة في حد ذاتها، وفي تصوير الحياة الأمريكية تستحق مكانة عالية بين القصص. ويبدو لي أن الكاتبة تحنو على الجنوب وأهله ولكنها تكرهه بسبب مناصرته لاستخدام الرقيق. ومع هذا فقد وصفت أرض الجنوب وصفا رائعا في شعور يفيض بالحب والعطف. ويكفي أن يقال عنها أول كاتبة أمريكية نظرت إلى الرقيق نظرة جدية وكتبت قصة جعلت البطل فيها من السود. ورغم أن الفكرة الرئيسية فيها هي المغزى الخلقي فإن حماسة الكاتبة في سرد القصة قد انحرفت شيئا ما عن غرضها الرئيسي". أما من الناحية التاريخية فتعتبر القصة بلا شك من الوثائق في تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي أكثر مما تعتبر أدبا أو فنا، وهي أكثر من مجرد قصة، كما قال عنها ناقد لاذع العبارة "إنها قصة ملطخة بدماء القتلى والفجور والحب الآثم والانتحار والتعذيب الشاذ والبذاءة وعربدة المدمنين ومشاغبات الحانات الوضيعة".

أصبحت مسز استو بفضل قصتها من مشاهير الشخصيات الدولية، ففي العام اللاحق لنشر كتابها قامت بأول سفرة من سفراتها الثلاث زارت فيها إنجلترا واسكتلنده. وهناك أقيمت لها استقبالات تكريم وترحيب اشترك فيها مئات من أعضاء الطبقة الأرستقراطية والملكية وأعاظم الرجال والمفكرين مثل الملكة فكتوريا والبرنس ألبرت، ودكنز، وجورج ألبوت، وكنجزلي ورسكن وماكولي وجلادستون. وقابلها الشعب في كل مكان نزلت فيه بالترحاب لأنه رأى فيها أكبر نصير للمستضعفين. أما في أدنبره فقد قدمت إليها هدية مالية هي مجموع ما تبرع به الناس (تبرع عيني) بلغت ألف جنيها ذهبا رغبة في مساعدتها لمواصلة كفاحها ضد استعباد الرقيق، ولم يحدث قبلئذ أو بعدئذ أن كاتبا أمريكيا أثار حماسة الجمهور أو استقبل بمثل ما استقبلت به الكاتبة من الحفاوة والهتاف في الجزائر البريطانية قاطبة.

وحاولت مسز استو أن تدلل على أن الصورة التي رسمتها للرق في كتابها صورة صادقة بعيدة عن الغلو وأنها ليست نسيجا من الأكاذيب، كما نميز بعضهم كتابها، فنشرت كتابا ثانيا أسمته "مفتاح كوخ العم توم" قالت فيه: "أنه يجمع التفصيلات الإنسانية والقصص والوثائق التي بنيت عليها القصة، مع قصص رائعة مؤثرة أخرى، لا تقل روعة عن قصص الكتاب الأصلي، وقسمت كتابها الجديد أربعة أقسام. شرحت في القسم الأول منه أخلاق شخصيات القصة لتقيم الدليل على أنها مستمدة من الحياة وتنطبق على الطبيعة. وعالجت في القسم الثاني منه قوانين الرق، وأثبتت أن هذه القوانين لا تحمى الرق في كثير أو قليل. وأعقبت ذلك بما وقع لبعض العبيد من الماسى وفشل الرأي العام في حماية الرقيق من بطش

أسياده، وناقشت التأثير السيئ لاستخدام الرقيق في حالة العمل الحر في الجنوب. وختمت الكتاب بتوجيه الاتهام إلى الكنائس ورجالها بسبب انقسامهم في موقفهم إزاء مسألة الرقيق وهو موقف فاتر.

وأبرز عيوب كتاب (المفتاح) ومواضع الضعف فيه ترجع إلى أن مادته جمعت بعد نشر كتاب (كوخ العم توم) وأن أغلب ما جاء فيه كان مبنيا على السماء، ولذلك لم يكن للكتاب الجديد أي رواج بين الناس ولم يزد شيئا في قوة الرواية الأصلية. وبمناسبة نشر كتاب المفتاح حدث حادث طريف ثارت فيه العدالة لنفسها بما لا يكاد يتصوره إنسان. حدث أن الناشر الإنجليزي الذي اغتصب نسخة من كتاب (كوخ العم توم) وطبعه انتهز صدور كتاب (المفتاح) فطبع منه خمسين ألف نسخة ظنا منه أنه عثر على منجم جديد غني بالذهب فخاب ظنه وانتهى أمره إلى الإفلاس.

ولم يصدر عن قلم المؤلفة الفياض بعد ذلك عن الرق إلا كتاب واحد هو قصة (دريد أو قصة المستنقع الموحش) نشر عام ١٨٥٦ ورغم أنه بيع منه في أربعة أسابيع مائة ألف نسخة إلا أنه لم يصل قط إلى الرواج العظيم الذي بلغته قصة (كوخ العم توم) وكان الموضوع الرئيسي لتلك القصة سوء الأثر الذي يتركه نظام الرقيق في الرجل الأبيض سواء أكان هذا الأبيض صاحب مزرعة تستخدم الرقيق أم المزارع المسكين الذي لا يستطيع استخدامه، كما أبرزت مشكلة التناسل بين البيض والسود والمآسي التي ترتب عليه إبرازا مؤثرا. والقصة تعج بصور تصف حياة الفاقة بين البيض ودعاة النهضة من القساوسة وصور من الحياة في المزارع

الواسعة، ولكن تنقص تلك القصة الشخصية الأساسية شخصية البطل التي تتركز حولها مشاعر القارئ واهتمامه كما هي الحال في "قصة العم توم".

ودأبت مسز استو بعد ذلك طول حياتها الجديدة التي امتدت إلى خمسة وثمانين عاما على التأليف ونشرت سيلا متواصلا من الروايات والقصص والتراجم والمقالات الأدبية والدينية. وبلغ إنتاجها خلال ثلاثين سنة من عمرها كتابا في كل عام. ولكنها تركت موضوع الرقيق في مؤلفاتها الأخيرة.

وكان أهم ما اشتركت به في "الحرب الأهلية"، ذلك النداء الذي وجهته إلى نساء إنجلترا وذكرتهن فيه بإقبالهن العظيم على كتابها (كوخ العم توم) عندما نشر منذ ثماني سنين أو تسع، ووجهت إليهن اللوم لتحيزهن في الحرب الأهلية إلى جانب الولايات الجنوبية. وكان من نتائج رسالتها أن عقدت في طول إنجلترا وعرضها اجتماعات عامة بغية تغيير الرأي العام وسياسة الحكومة إلى تأييد فكرة الوحدة الأمريكية التي تؤيدها الولايات الشمالية. وقد كان لرسالة مسز استو أكبر الأثر في سياسة الحكومة الإنجليزية بحيث أوقفت تدخلها في الحرب الأهلية وهو تدخل لو تم لأصاب الولايات الشمالية منه ضرر بالغ.

وأما عن تقدير مكانة هارييت استو في تاريخ بلادها فقد كتب "كيرك مونرو" يقول: "إن مسز استو لا تحتل مكانا مرموقا في مقدمة

الصفوف بين شهيرات النساء في تاريخ العالم فقط، ولكن تأثيرها في تشكيل مقادير الأمة الأمريكية في عصر من أحرج عصورها، كان أكبر من تأثير أي شخص آخر. ومن البديهي أنه لا يمكن أن يكون تحريم الرقيق نتيجة لجهود فرد واحد بذاته، وأوضح مونرو في تحليله للعوامل التي تضافرت على إنجاح أنصار التحريم قال: "ولكن أعظم هذه جمعها وأبعدها أثرا (قصة كوخ العم توم) الساحرة.

وقد يكون من الإنصاف أن نورد هنا رأيا يكاد يكون قاطعا ويعدل رأي مونرو في تقدير قيمة الكتاب على قدر المستطاع بعد انقضاء أكثر من قرن على ظهوره وذلك هو رأي الكاتبة كونستانس رورك، فقد كتبت تقول عن الكتاب:

"رغم ما أصاب هذا الكتاب من تنكيل ولطمات انهالت عليه، وما استهدف له من هجمات لم تنقطع، ورغم ما به من عيوب بادية في ضعف حبك القصة، فما يزال يحتفظ بصفات ترتفع به عن كونه مجرد رسالة دينية على حد قول كتاب عصرنا، وهي صفات تنفي عنه تهمة المغالاة والتهويل التي يرمي بها عادة. وكذلك تعوز القصة القوة وصفاء الفكرة وهما ما تتميز بهما مؤلفات عظماء الكتاب، لأن الانفعالات التي تفيض بها ليست طبيعية أبدا وتسم بالإفراط وضيق الأفق والتفكير المريض وعاطفية، إن شئت، تجري في موجة هائلة طاغية من أثر الهستريا، غير أن لها من الاندفاع والقوة ما جعلها واسعة مترامية الأطراف. والقصة في اتساعها واتزانها غير المقصود، وفي توالي حوادثها تحفز القارئ على الاستغراق في حوادثها

المتداخلة وتجعلنا ندرك أنها قصة ترتفع إلى مستوى الملاحم، وأن بها قبل كل شيء ذلك الاتجاه نحو أهداف مجهولة مما يتلاءم مع موضوع قصة عظمى، وقد سردتها المؤلفة في انفعال شديد غير أنها عمدت إلى اقتضاب الحوادث أو تشويهها لأنها كانت تسعى إلى غرض معين.

وقال (فان ويك بروكس): ومع أن القصة بعدت الآن عن العصر الذي كتبت فيه وارتفعت عن ملابساته في صورة شعبية عظمى لأحداث عصر معين في تاريخ أمة.

رجل الطبقة الكادحة:

٧ـ كتاب رأس المال

كارل ماركس

قال (فردريش إنجلز) في ختام خطبته التي ألقاها في تأبين كارل مار كس أنه "يجب أن نعرف قبل أي شيء آخر أن ماركس كان ثائرا، وأن هدفه الرئيسي في الحياة أن يشترك اشتراكا فعليا بشكل أو آخر في هدم كيان المجتمع الرأسمالي ومحو جميع أنظمة الدولة التي وضعها ذلك المجتمع.. بهذه الكلمات عبر زميل ماركس وتلميذه وأقرب أصدقائه إليه تعبيرا أوجز فيه القوة المحركة في حياة ذلك الثائر الاجتماعي الشهير.

كان العصر الذي ولد فيه ماركس عصرا مضطربا مشبعا بعوامل التحفز للثورة والعصيان، إذ ما تزال ذكريات ثورة فرنسية ماثلة في أذهان الناس، وثورة أخرى تختمر وتوشك على الانفجار. أما عشرات السنين التي تلت مولده فتتسم بانتشار موجة من الحقد والتذمر والطعن في النظم الاجتماعية السائدة، ولم يحل عام ١٨٤٨ إلا وكانت تلك الحالة النفسية قد وصلت إلى حد التأزم، فانفجرت وعمت الثورات أرجاء أوروبا. وحتى

في إنجلترا هددت حركة الدستوريين الثورية مركز الحكومة القائمة إذ ذاك. وألح الناس في كل مكان، وألحفوا في المطالبة برفع المظالم التي جاءت في أعقاب العصر الصناعي الحديث، كما شددوا في وجوب العمل على محو بقايا نظم الإقطاع. وبذلك كانت أحوال الزمان مهيأة لتقبل مبادئ كارل ماركس الهدامة وتمرده السافر على كل نظام.

ولد ماركس عام ١٨١٨ في مدينة (ترير) في حوض نهر الرين الألماني، وكان أبوه محاميا ناجحا. ولد من أبوين يهوديين ولكن حدث وهو ما يزال طفلا أن اعتنقت الأسرة بأكملها الدين المسيحي، وظل هو مستمسكا بالمسيحية حتى نهاية حياته مناهضا للسامية في أرائه، مما يحمل على الظن بأن هذا السلوك المتطرف كان نتيجة القيود الشديدة المفروضة على أبناء جنسه.

درس ماركس القانون والفلسفة في بون وبرلين، وكان جل أمانيه إن يفوز بمركز أستاذ، ولكن آراءه المتطرفة أقفلت في وجهه باب الأمل، فانصرف إلى احتراف الصحافة والتحق محررا بجريدة حديثة العهد (راينيشى تزايتنج) أو صحيفة الرين، ظهرت عام ١٨٤٢، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لتحريرها. ودأب ماركس يهاجم الحكومة البروسية هجوما عنيفا. وكان التطرف الصارخ الذي يغلب على الجريدة سببا في مصادرتها بعد أقل من عام من صدورها.

فمضى ماركس إلى باريس ليدرس بها مبادئ الاشتراكية، واشتغل محررا بجريدة قصيرة الأجل مثل سابقتها تسمى "الكتاب السنوي الفرنسي الألماني" وتعرف أثناء مقامه بباريس بنفر من زعماء المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين. وكان أهم حادث مر به وأثر في توجيه مستقبله تأثيرا عظيما تلك الصداقة المتينة التي ربطته بـ (فردريك إنجلز) والتي دامت طوال حياته. وكان إنجلز هذا ألمانيا مثل ماركس وعلى جانب من الثراء فأبوه من أصحاب مصانع المنسوجات القطنية ومن أشد الناس تحمسا لمبادئ الاشتراكية مثل ماركس نفسه، هذا وإن إنجلز نشر عام **١٨٤٥** كتابه المسمى (حالة الطبقة العاملة في إنجلترا) كان قد وضع المبادئ الأساسية لكتاب (رأس المال) الذي نشره ماركس فيما بعد.

ولما اشتدت حملة ماركس على الحكومة البروسية وهو في باريس اضطرت الحكومة الفرنسية إلى إبعاده من أراضيها لأنه أجنبي غير مرغوب فيه؛ فلجأ إلى بروكسل حيث بقي بها ثلاثة أعوام، ثم عاد إلى ألمانيا لفترة قصيرة، ولكنه نفي مرة أخرى فعاد إلى باريس أثناء اشتعال ثورة **١٨٤٨**. وفي تلك السنة اشترك مع إنجلز في إصدار (البلاغ الشيوعي) الشهير وهو من أعنف ما عرف من البلاغات وأخطرها أثرا في تاريخ المطبوعات المتطرفة و"البلاغ" ينتهي بالشعار الثوري الخطير وهذا نصه:

ولا حاجة بالشيوعيين أن يخفوا عن العالم مبادئهم ونياتهم، ولهذا فإنهم يعلنون على رءوس الملأ أنه لا نجاح يرجى لتحقيق أهدافهم إلا بوسائل العنف ليقوضوا جميع النظام الاجتماعي الحالي من أساسه، فلترتعد فرائص

الطبقة الحاكمة رعبا أمام الثورة الشيوعية. إن الطبقة العاملة لن تخسر غير السلاسل التي تكبلها على حين أن أمامها العالم بأجمعه لتربحه. "يا عمال العالم أجمع تكتلوا واتحدوا".

وكان ماركس شعلة نشاط ومحرضا مهاجما أينما حل، دائب التنظيم الحركة العمالية، يحرر المنشورات الفوضوية ومثيرا خطرا يحرض على الفتنة والاضطراب. فلما فشلت ثورات ١٨٤٨ – ١٨٤٩ضاقت القارة الأوربية بماركس، فهاجر إلى إنجلترا في صيف عام ١٨٤٩ وله إذ ذاك من العمر واحد وثلاثون عاما، وقضى بقية حياته في لندن. وتزوج قبل ذلك التاريخ من (جين فون وستفالن) ابنة أحد الموظفين البروسيين فأمضت معه في حياة الزوجية قرابة أربعين سنة كانت له أخلص رفيق قاسمته حياة الفقر المدقع والحرمان والنكبات التي توالت عليه. ولم يعش من صغارهما الستة غير ثلاثة بلغوا سن الشباب انتحر منهم اثنان.

ولا عجب أن تكون الأعوام القاسية التي مرت به قد تركت طابعها العنيف في آراء ماركس وأملت عليه ذلك الحقد وتلك المرارة الواضحة في كتاباته. ولم ينقذ أسرته من الموت جوعا غير المساعدات المالية المتكررة التي قدمها فريدريش إنجلز. وأما ماركس فكان دخله لا يزيد على جنيه واحد في الأسبوع من جريدة (التريبون) في نيويورك مقابل مقالات عن الحالة السياسية الأوروبية مضافا إليه ما كان يتكسبه من موارد غير ثابتة من كتاباته.

ورغم البؤس الذريع، ومطالبة الدائنين الملحفين والمرض وشدة الحاجة التي كانت تحيط به في مسكنه بحي (سوهو) القذر في لندن كان ماركس دائب النشاط والحركة في رفع شأن قضية الاشتراكية. وعكف في المتحف البريطاني، العام بعد العام، وهو يقضي كل يوم حوالي ست عشرة ساعة في جمع المادة الهائلة لكتابه الذي سمى فما بعد (رأس المال). وقد استغرق في تأليفه قرابة الثمانية عشر عاما إذا أسقطنا أيام المرض ومشاغله الأخرى. وكان إنجلز طول تلك المدة الطويلة يعول أسرة ماركس، فقطع الأمل من الانتهاء من الكتاب حتى قال: قد نذرت أن يكون اليوم الذي ترسل فيه أصول الكتاب إلى المطبعة يوم سكر أغيب فيه عن وعيي، وكثيرا ما كان هو وماركس يشيران إلى الكتاب في حديثهما بعبارة (ذلك الكتاب الملعون) واعترف ماركس بأن الكتاب "كابوس فظيع".

وأكبر حدث في حياة ماركس إبان تلك السنين تأسيس الجمعية الدولية للعمال، عام ١٨٦٤ وتعرف اليوم بالدولية الأولى، فكانت هذه أول محاولة لتوحيد صفوف العمال في جمعية دولية. عدم ميل ماركس للظهور علنا إلا أنه كان القوة المحركة وراء كل نشاط عمالي والمحرر لجميع المطبوعات من خطب وقوانين وبرامج، ولكن المنازعات الداخلية في هذه الجماعة، والتنافس على الرياسة وسقوط سمعتها بعد فشل حركة القوميين، في باريس عام ١٨٧١ أدت إلى حلها. وتبع ذلك بعد قليل انعقاد (الدولية الثانية) التي مثلت فيها الأحزاب الاشتراكية الغربية، ثم أعقبها انعقاد (الدولية الثالثة) أو (الكومنترن)، وفيها اجتمع ممثلو الشيوعية العالمية.

وقاربت مدة الحمل الطويلة للكتاب على الانتهاء وحان ميعاد الوضع؛ ففي أواخر عام ١٨٦٦ أرسلت مخطوطة الجزء الأول من الكتاب إلى هامبورج ، وفي خريف السنة التالية أصدرته المطبعة. والكتاب في الأصل باللغة الألمانية ولم يترجم إلى الإنجليزية إلا بعد عشرين عاما من صدوره، وأول لغة ترجم إليها كانت الروسية، وربما كان ذلك نذيرا بحوادث المستقبل. وصدرت الطبعة الروسية عام ١٨٧٢.

وكانت إنجلترا من أوائل الدول التي ظهرت فيها مساوئ النظام الرأسمالي في أيام ماركس، ولذلك نرى أن أغلب الأمثلة التي اعتمد عليها في شرح نظرياته الاقتصادية مستمدة من النظام الاقتصادي في تلك البلاد. والأمثلة المريعة عن أحوال العمال كانت عامة لأن النظام الرأسمالي بلغ أسوأ مظاهره في العهد الفكتوري الوسط. فوصلت حالة العمال الاجتماعية في المراكز الصناعية حدا من البؤس يعز على الوصف. وقد اعتمد ماركس في أبحاثه على تقارير المفتشين الحكوميين فأثبتها في كتابه بالخط العريض. وأما النساء العاملات فكن يسحبن المراكب بالحبال المشدودة إلى أكتافهن كما كن يشددن كالحيوان إلى عربات نقل الفحم داخل مناجمه، وسخر الأطفال الذين بين التاسعة والعاشرة في مصانع النسيج حيث كانوا يعملون بين اثني عشرة وخمس عشرة ساعة في اليوم. وقيل عندما اتبع نظام العمل الدورى ليلا أن الفرش التي كان يأوي إليها الأطفال ظلت دافئة من سرعة تداولها بين أفواجهم التي تسخر في العمل ليلا، فانتشر بينهم السل والأمراض وارتفعت نسبة الوفيات بينهم ارتفاعا شنيعا

ولم يكن ماركس الوحيد الذي احتج على هذه الحالة المريعة، فقد كتب نفر من مشاهير الرجال ذوي القلوب الرحيمة المحبين للإنسانية أمثال دكنز ورسكن وتوماس كارليل، فأفاضوا كل الإفاضة في وصف تلك الحال وصفا قويا وطالبوا بوجوب إصلاحها حتى نهوا مجلس العموم إلى إصدار قوانين لإصلاح المفاسد الجارية وقتئذ.

و كان ماركس يتباهى بأنه عالج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية على أساس علمي، قال إنجلز: كما أن داروين اكتشف قانون التطور في تاريخ الإنسان الطبيعي فكذلك اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشرية، وقال ماركس: إن الظواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التي تسجل بها العلوم الطبيعية.. وهو كثير الإشارة إلى مراجع العلماء في علوم الحياة والكيمياء والطبيعة.. وواضح من هذا أنه كان يأمل أن يصير داروين علم الاجتماع أو نيوتن الاقتصاد. كما اعتقد أنه بالتحليل للمجتمع يستطيع أن يغير كيان العالم من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

وكانت الطريقة العلمية التي أشار إليها في أبحاثه عاملا في تقبل الجمهور لآرائه، إذ كانت تسيطر على أذهان الناس نظرية التطور في القرن التاسع عشر بدرجة اعتقدوا معها إمكان تطبيقها على كل مظاهر الحياة، فلما ربط ماركس نظريته التاريخية في تنازع البقاء بين الطبقات وبين نظرية داروين في التطور، ضمن لها ذلك الاحترام العلمي الذي أبعدها عن الطعن والتشكك.

وفي رأي ماركس والمؤيدين له أن أجل زيادة أضافوها إلى علوم الاقتصاد والتاريخ والاجتماع هي قولهم بذلك المبدأ الذي عرف بالمادية الديالكتية، وهو اصطلاح عويص غامض ورغم أنه شرحه شرحا وافيا في كتاباته المبكرة إلا أنه فصله وطبقه في كتابه (رأس المال).

وقد اقتبس ماركس تلك النظرية من الفيلسوف الألماني (هيجل) وملخصها أن كل شيء كائن في العالم في حالة تنوع دائم متواصل، وأن التقدم والارتقاء شجة للأثر والتأثر بين قوى يدفع بعضها البعض فمثلا نشأ من قيام الثورة الأمريكية ضد النظام الاستعماري البريطاني تكون الولايات المتحدة، أو كما قال لاسكي: "إن قانون الحياة نضال بين ضدين يترتب عليه ظهور شيء جديد"

ومن هذه المقدمة استطاع ماركس أن يصوغ نظريته المعروفة باسم المادية التاريخية أو التفسير الاقتصادي للتاريخ. قال ماركس وإنجلز: إن تاريخ المجتمع الحاضر كله ما هو إلا تاريخ نزاع بين الطبقات؛ فالعبيد والأحرار والدهماء ورجال الطبقة العليا والسيد والتابع والمعلم والصانع. وفي الجملة كل هؤلاء وقف الواحد منهم ضد الآخر في حرب لا هوادة فيها.

وقد زاد إنجلز ذلك إحكاما وهو يكيل المدح لماركس قال:

لقد كشف ماركس عن حقيقة بسيطة ظلت دفينة إلى يومه تحت ركام من أضاليل المثاليين، حقيقة بسيطة هي إن الضرورة الأولى والأساسية،

والشغل الشاغل لبني الإنسان هو الطعام والشراب والملبس والمأوى التي لا يستطيع بدونها أن يشغل باله بالسياسة والعلم والفن والدين وغير ذلك. وهذه الحقيقة تعني أن إنتاج المواد الضرورية الحيوية لبني الإنسان وما يتبعه من تطور مظاهر الاقتصاد القومي القائم في عصر ما، أو أمة ما، هو الأساس الذي بنيت عليه جميع أنظمة الدولة من قانونية وفنية وحتى المعتقدات الدينية نفسها..

وجملة القول – في رأيه – أن التنازع على الطعام والمأوى هما العاملان اللذان يهيمنان على شئون الجنس البشري أجمعها.

وعلى حسب قول ماركس يكون تاريخ الجنس البشري أولا وقبل كل شيء هو قصة استغلال طبقة لطبقة أخرى، وأن المجتمع القبلي قبل التاريخ كان مجتمعا لا طبقات فيه، ولكن في عصور التاريخ المدون نشأت الطبقات وأصبحت الجمهرة العظمى من الشعب عبيدا لسادتهم، ثم انتقلت إلى مرتبة الأجراء في العصر الإقطاعي، وتطورت حتى أضحت طبقة من العبيد المأجورين في عهد الرأسمالية. وكان ماركس يعتقد اعتقادا جازما بحسب تطبيق نظرية المادية أن الخطوة التالية ستكون ثورة العمال واستطلاعهم على السلطة في الدولة، ثم يعقب ذلك نظام الملكة الجماعة، وفي النهاية يعود الجنس البشرى إلى مجتمع لا طبقات فيه.

وفي كتاب (رأس المال) فصل آراءه المعارضة لنظام الرأسمالية وشرح الأسباب التي حفزته على القول بأن تحطيم النظام الرأسمالي واختفاءه

السريع من الأمور التي لا مفر منها. وهنا تقدم بنظرية اعتبرها الشيوعيون عامة علم تجديد، بعد نظريته الأولى، خدم بها العلوم الاجتماعية، وهي نظرية وتقسيم العمل، ولم تكن هذه أيضا من بنات فكره واختراعه بل كان تابعا فيها (لآدم سمث) و(دافيد ريكاردو) اللذين قررا أن العمل هو الأساس لجميع القيم. وقد اقتطف ماركس من كلام (بنيامين فرانكلن) الذي عاش قبله بقرن من الزمان قال فرانكلن: إن التجارة ليست إلا تبادلا بين عمل وعمل، وبذلك يكون من المعقول أن يكون العمل هو المقياس الأساسي في تقييم الأشياء، واستعار من تعريف سمث لرأس المال قوله: أنه كمية من العمل تكدست ثم اختزنت، ورأى ريكاردو أن قيمة أي كل حاجة من حاجياتنا يجب أن تقاس وتسعر على أساس الجهد الذي صرف في إنتاجها، وباستعمال هذا المعيار استطاع ماركس أن يترقى بنظريته (فائض القيمة) التي نشرها لأول مرة في مقال عنوانه (نقد الاقتصاد السياسي) صدر عام ١٨٥٩، ثم أعاد نشرها في كتابه (رأس المال) بعد تنقيحها. ومقتضى تلك النظرية أن العامل الذي لا مال عنده لا يملك سلعة غير سلعة عمله الخاص، وهو مضطر لسعيها لتحاشي الجوع. وبمقتضى النظام الحالي يتقدم إلى صاحب العمل فيشتريها منه بأقل سعر ممكن، ونرى من ذلك أن القيمة الحقيقة لسلعة العمل أعلى دائما من الأجر الذي يتقاضاه العامل. فلنفرض مثلا أن عاملا يتقاضى أربعة شلنات في اليوم يفرض عليه أن يشتغل مقابلها عشر ساعات بدلا من ست ساعات وهي المدة التي تساوي أجر أربعة شلنات، وبذلك يكون صاحب العمل قد سرق أربع ساعات. فإذا صح هذا التفسير كان ربح صاحب

المال والفوائد والإيجارات كلها مبالغ حصلت من فائض قيمة العمل، وهو ما سرقه صاحب العمل من عماله، وتكون النتيجة المنطقية لهذا الكلام إذن هي أن النظام الرأسمالي ما هو إلا خطة أثيمة مدبرة لاستغلال الطبقة العاملة ونهبها.

ورغم أن نظريتي ماركس عن (القيمة) و(فائض القيمة) كانتا نافعتين في أغراض الدعاية والتحريض، إلا أن علماء الاقتصاد في العصر الحاضر يعتبرونهما خطأ، وليستا من الصواب في شئ. ومن أهم العوامل في نقضهما هو ازدياد استعمال الآلات التي أحدثت فروقا ظاهرة في مقدار العمل اللازم لإنتاج السلع المختلفة. فقد نبه (فريهوف) إلى أنه إذا توصل كيميائي إلى كشف طريقة جديدة لزيادة خصوبة الأرض فإن ذلك سيؤدي إلى ازدياد الكفاية الإنتاجية لعشرة ملايين من العمال الزراعيين، وفي هذه الحالة يكون الكيميائي هو الذي خلق هذه الكفاية الإنتاجية وليس العامل، وناقد آخر يضيف نقضا جديدا لهذه النظرية إذ يقول: إن الغواصين يغوصون لصيد اللؤلؤ لأنه غالي القيمة، وليس ارتفاع قيمة اللؤلؤ ناشئا عن أن العمال يغوصون لصيده، ثم إن ماركس لا يعترف بأن العلم والأساليب الصناعية والفن والتنظيم لها نصيب في زيادة القيم والأثمان.

وحقيقة الأمر أن رجال الاقتصاد لم يتوصلوا أبدا إلى طريقة القياس القيم رغم مرور قرنين من الزمان في التفكير والتأليف في هذه المسألة. ويبدو أن جمهور الاقتصاديين يرون أن القياس الصحيح هو الطلب

والمنفعة.. وقد علق (بارزون) بأن الاقتصاديات الحديثة قد هدمت نظرية ماركس ولكنها لم تقدم من القواعد العلمية السليمة ما يقوم مقامها.

وقد مهدت نظرية (فائض القيمة) الطريق أمام ماركس للانتقال إلى الخطوة التالية، وهي أنه بسب شدة المنافسة يحاول صاحب العمل هذا أن يحصل على مزيد من (فائض القيمة) من تشغيل عماله بشتى الأساليب كإطالة ساعات العمل أو خفض الأجور أو تكليف العمال القيام بأعمال إضافية دون أجر مناسب، أو بالإكثار من استعمال الآلات ليستبعد العمل اليدوي، ويزيد في سرعة الإنتاج أو باستعمال آلات لا تحتاج إلا إلى مجهود جسماني قليل في إدارتها، فيستطيع بذلك أن يستخدم النساء والأحداث بأجر أرخص من الرجال.

وينتهي ماركس إلى نتائج يصفها بقوله:

إنهم يعملون على تشويه العامل حتى يصير شبحا لإنسان، ويهبطون بمكانته إلى مستوى تابع حقير للآلات، ويقضون على ما تبقى له من لذة يشعر بها في عمله، ويحيلون حياته إلى كد متواصل كريه إلى نفسه، ويحولون بينه وبين تفهم الإمكانيات العقلية العظيمة التي تكمن وراء الطرق الصناعة الحديثة التي تعتمد على العلم كقوة مستقلة، كما أنهم زادوا في سوء الأحوال التي يعمل فيها العامل بإخضاعه إلى إجراءات تعسفية استبدادية أثناء عمله كريهة إلى نفسه. وهم يحيلون حياته إلى جحيم من

العمل المتواصل ويقذفون بزوجته وأطفاله لتقضي عليهم وتطحنهم عجلات عربة الرأسمالية المريعة.

ويستمسك ماركس بأن استعمال الآلة – بقصد زيادة الإنتاج والإسراع فيه – لم يحقق للعامل أي تخفيف من أعباء عمله، بل أثر فيه تأثيرا سيئا فسبب ازدياد البطالة بين العمال (لأن الآلة حلت محلهم في العمل) واستغلال الأحداث والنساء، وازدياد الإنتاج عن الحاجة، وقتل كل لذة للعامل في عمله، وقال:

إن الآلة أعظم سلاح لقمع إضراب العمال، والإضراب أحد مظاهر الاحتجاج الذي يعلنه العمال بين وقت وآخر ضد سيطرة الرأسمالية. وإنها من بدء استعمالها خصم عنيد للعمال استطاع بها الرأسماليون أن يطأوا بأقدامهم كل مطلب من مطالب العمال التي تهدد بإيجاد أزمة في نظام المصانع الحديث. ومن الممكن أن يكتب تاريخ الاختراعات الآلية التي ظهرت حتى عام ١٨٣٠. وللتدليل على أنها زودت رأس المال بالسلاح الماضي للقضاء على تمرد الطبقة العاملة..

وفسر ماركس نظرية (مالتس) تفسيرا ملتويا انتهى منه إلى إن سرعة ازدياد السكان يأتي في أعقاب سيطرة رأس المال دائما. ويحتاج نظام الإنتاج إلى جيش احتياطي من الأيدي العاملة، يستخدم عند الحاجة إلى التوسع في الإنتاج، وخاصة عندما تنشأ صناعات جديدة، أو عندما يراد النهوض بأخرى قديمة؛ فمن الطبيعي إذن أن هذه القوة العاملة الاحتياطية

لا بد لها أن تتحمل فترات طويلة من البطالة.. ثم تحدث بعد ذلك أكبر نكبة يصاب بها رأس المال وهي انخفاض الأسعار والكساد وانتشار الذعر.

ولما كان أجر العامل لا يكفيه إلا لسد أدنى حاجاته المعاشية فهو في هذه الحالة لا يستطيع شراء السلع التي تنتجها المصانع فتختنق الأسواق بالمنتجات ويترتب على ذلك أن يتعطل جزء من عمال القوة الاحتياطية، ويعقب هذا ظهور أزمات مالية حادة من جراء الكساد.

ويضطر صاحب رأس المال كي يتخلص من السلع المختزنة في مخازنه، وهي زائدة على حاجة السوق المحلية، إلى البحث عن أسواق خارجية في البلاد المتخلفة اقتصاديا لتمتص السلع الزائدة عما يستطيع العمال شراءه منها. ويترتب على هذه المحاولات لفتح أسواق أجنبية، وكذلك على البحث عن المواد الأولية التغذية المصانع حتى لا تتعطل عن العمل، قيام المنازعات الدولية بالضرورة ونشوب الحروب الاستعمارية.

والنتيجة النهائية للمنازعات والمنافسات التي تقوم بين أصحاب رءوس الأموال هى تركيز بعض الصناعات في يد نفر قليل، وقيام الاحتكارات. وعبر عن ذلك بقوله: أن ظهور رأسمالي واحد يقضي على عشرات ممن هم أصغر منه شأنا، مما يؤدي إلى اختفاء الطبقة الوسطى بمثل ما تختفي به طبقة صغار الرأسماليين الذين يقضي عليهم من هم أكبر منهم، وفي النهاية يسيطر نفر قليل قوي من كبار الرأسماليين يقفون وجها لوجه أمام الطبقة العاملة. فإذا حدث هذا تكون الفرصة المواتية للعمال قد

حلت، ومن أروع الفقرات وأبرزها في كتاب (رأس المال) وصف الخطوات التي تؤدي إلى الحل النهائي لتلك المشكلة قال: وعندما يتناقص عدد كبار الرأسماليين باستمرار يحدث ما يقابله من اطراد الفاقة بين الطبقة العاملة وازدياد الظلم والاستعباد والانحلال والاستغلال بينهم وكلها تزيد في حدة عداوة الطبقة العاملة وبغضها، وهي طبقة يتكاثر عددها يوما بعد يوم، فيرغمها هذا على التدرب على النظام ويوحد صفوفها وشئونها على غرار الأساليب الآلية نفسها التي يستخدمها الرأسماليون في الإنتاج، فيصير الاحتكار الرأسمالي في حد ذاته أكبر عائق في سبيل طرق الإنتاج التي ازدهرت في ظل الرأسمالية وبوساطتها. وسيقف التركيز في الإنتاج ووسائله أمام النظام الاشتراكي وجها لوجه في تحد سافر، لأن وجود الأخير خطر يناقض الغلاف الرأسمالي الزائف. فإذا انشق هذا الغلاف أذنت ساعة القضاء على الملكة الرأسمالية فيجرد لصوص الملكية من ملكيتهم.

وسيؤدي صراع الطبقات إلى انتصار الطبقة الكادحة؛ فإذا استولى هؤلاء على الحكم أقاموا لهم دكتاتورية عمالية. وتنبأ ماركس بأن هذه بدورها مرحلة انتقال نحو القضاء على نظام الطبقات وخلق مجتمع جديد حر تسوده المساواة، إلا أن ماركس لم يذكر شيئا عن الفترة التي يجب أن تنتهي بعدها تلك الدكتاتورية، وهي نقطة مهمة من حيث روسيا السوفيتية التي لا يزال الشعب فيها منذ ثمانية وثلاثين عاما في قبضة سلطة استبدادية لا يبدو أن هناك نية لتخفيف قبضتها. وإنا لنجد عبارة ماركس عندما يصف مجتمعه الطبقي غامضة كل الغموض، إذ أن الدولة العمالية بعد أن ينتهي دورها في نشر التعليم والتنظيم – على حد قوله – سوف ينتهي

سلطانها من تلقاء نفسه بانتهاء مهمتها، وسنقضي دور النضال والقوة وبانقضائه يسود السلام وينتشر الرخاء بين الناس، فتصبح المهمة الرئيسية للمجتمع أن يوفر الحرية لترقي كل فرد من أفراده كما يصبح شعاره "الأخذ من كل فرد بحسب قدراته إلى كل فرد حسب احتياجاته"

وقد عقب كثير من النقاد على تناقض هذا الحلم الجميل، حلم المجتمع الفاضل مع الفترة السابقة عليه، فترة الصراع الدموي القاسي بين الطبقات. كتب (هولت) يقول:

"أن المجتمع اللا طبقي الماركسى مجتمع خامل كسب مثل جنة العهد الفكتوري نفسه لا يمكن أن تصدقه العقول ولا تتحمس له النفوس، إذ بانقضاء الثورة العالمية واختفائها لا يجد الجنس البشري في عظام الماركسية النخرة أي حافز يحرك وجدانه للقيام بعمل مجد أو بذل جهد جهيد".

ورغم ما وجه إلى الماركسية من نقد وتجريح فإن لها قوة الدين في نفوس الملايين من الشيوعيين المخلصين. وحلت محل العقائد الأخرى جميعها. وقد صرح ماركس بأن جميع الديانات القديمة مثل المسيحية، تعلم الناس القناعة بنصيبهم في الحياة الدنيا وتشيد بالاستسلام والخنوع والتواضع، فكأنها تخدر أعصاب الشعب وتعمل فيه عمل الأفيون وتعصب عيون الطبقة العاملة عن مصيرها وتسد عليها طريقها إلى الثورة.

ترى ما هو مبلغ الصدق في أقوال ماركس؟ لقد شغل هذا السؤال بال عدد كبير من علماء الاجتماع ورجال الدين والكتاب والمفكرين طوال

القرن الماضي؛ فكلما تقدم الزمن تكشف للعالم ما في نظريات ماركس ونبوءاته من خطأ فاحش، فلم يعد ثمة اقتصادي غير ماركسي النزعة يأخذ مأخذ الجد بنظريته في القيمة وفي فائض القيمة مع إنهما ركنان أساسيان في صرح تفكيره. ولم يحدث في أية أمة ذلك الصراع بين الطبقات الذي سينتهي بالطبقة العاملة إلى الثورة المزعومة التي تنبأ بها ماركس. وقد تناول أحد مشاهير الكتاب الماركسيين هو (سدني هوك) تلك الفكرة وقرر إنها إحدى أعمدة العقيدة الماركسية.. قال: "إذا تطرق الشك إلى نظرية صراع الطبقات فبان فسادها فإن صرح النظريات الماركسية ينهار من أساسه"

وعلى عكس ما قدر ماركس في تفكيره، نجد أن النظام الرأسمالي قد اتجه – على الأقل – في أكثر الأمم استنارة اتجاها مخالفا لما توقعه له، فبدلا من ازدياد البؤس والفاقة والآلام بين الطبقة العاملة، حدث عكس ذلك. فقد أنشئت النقابات القوية وأصدرت الحكومات التشريعات العمالية التي أوقفت الرذائل التي تقترن بالمنافسة الرأسمالية والاحتكار عند حد. ورغم طعن ماركس واحتقاره للاقتصاديين والإنسانيين ودعاة الإصلاح في محيط العمال والمنظمين لحركة المعونة الاجتماعية وأعضاء جمعية الرفق بالحيوان والدعاة إلى منع المسكرات وغيرهم من دعاة الإصلاح من كل صنف ولون، فقد نجح هؤلاء الناس في القضاء على أسوأ رذائل الرأسمالية ودفعوها إلى العمل دون ما ضجة أو جلبة إلا ما تستوجبه مثل هذه الآلة المعقدة التي صنعها الإنسان بيديه.

وقد ورد في تقرير حديث (للمؤسسة المالية للقرن العشرين) ما نصه:

"لقد ثبت أن الأمم الصناعية الكبرى التي اتبعت في سياستها الاقتصادية مبدأ الرأسمالية الفردية وثبتت عليه، قد حققت أو كادت، جميع الأغراض التي يهدف إليها الاشتراكيون، فأشاعت الرخاء في مجتمع لا طبقي ووصلت إلى مستوى من الرفاهية المادية يفوق كل ما تتصوره أغلبية شعوب العالم".

وقد كان هدف ماركس أن يضعف الشعور بالقومية في نفوس العمال، كي يحل محله الشعور بالتضامن الدولي بين عامة عمال العالم، وليس أدل على الفشل في الوصول إلى هذا الغرض المنشود مما حدث في الحربين العالميتين إذ أبرزتا بأجلى بيان التحمس للقومية والوطنية التي أظهرتها الشعوب، وظهرت هذه الروح في أتم مظاهرها في روسيا والصين والبلاد الشيوعية خاصة. وقد تنبأ ماركس أن أول اشتعال الثورة العمالية سيكون في البلدان الصناعية الكبرى مثل إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة واستثنى روسيا لأنها في رأيه لم تبلغ من النضج ما يمكنها من القيام بهذه الثورة، وهو تقدير لم تحققه الحوادث التي جرت بعد عصره.

كان للمنهج الجدلي (الديالكتي) الذي اصطنعه ماركس تأثير كبير في عدد عظيم من المؤرخين المتأخرين، على أن أحدهم وهو (وليم هنري تشمبرلن) نقد هذا المنهج في تعليقه عليه قال:

"لقد عجزت الطريقة المادية التاريخية التي أسسها ماركس عن تعليل ما نراه من فروق واضحة بين الشعوب التي في مستوى واحد من حيث

الرقي الاقتصادي، فلم تدخل في حسابها العوامل الحيوية فيها كالجنس والدين والقومية، وأهملت كليا الأهمية العظمى التي تتصل بالشخصية الفردية، ومن المشكوك فيه أن يستطاع تفسير حدث تاريخى واحد تفسيرا صحيحا على ضوء نصوص نظريته.

ومهما يكن، فرغم المغالطات الظاهرة في آراء ماركس، فإنه من العسير علينا اليوم أن نقلل من شأن تأثيره على عصرنا، إذ لا شك في أن حملته على الرأسمالية كانت خيرا وبركة عليها. فيفضل تشهيره بمساوئ النظام الصناعي، وتهديده بثورة العمال على الرأسماليين صدرت تشريعات هامة لصالح العمال. وكان لتنديد الشيوعيين والاشتراكيين بعيوب الرأسمالية أبلغ الأثر في تصحيح مساوئها، وبذلك تضاءلت أو محيت عوامل الثورة التي كانت ستؤدي إلى الثورة العمالية التي تكهن ماركس بنشوبها يوما ما. ولكن المشكلة العظمى التي واجهت وتحدت كبار المفكرين في العالم الحديث هي انتشار المبادئ الماركسية في مساحات شاسعة من الكرة الأرضية، مثل روسيا والصين وأمم أخرى، وانضواء شعوبها التي تبلغ تسعمائة مليونا من النفوس تحت راية الشيوعية، وماركس يذكر الشعب الروسي والثوار الروس وقتئذ بكل احتقار ويخصهم بلاذع القول، ومن الغريب أن يجيء وصفه لسياسة روسيا القيصرية التي شاهدها مطابقا لسياسة روسيا الشيوعية في عصرنا قال:

"أن سياسة روسيا تتجه اتجاها واحدا لا تتحول عنه وإنما تتغير وسائلها ومناوراتها ولكن هدف سياستها الذي لا تحيد عنه أبدا هو السيادة العالمية".

والواقع أن الدولة الروسية الحالية لا تنفذ إلا قليلا من آراء ماركس ومثله العليا في الشيوعية، فقد قال الرئيس ترومان عام ١٩٥٠ أن روسيا ليست شيوعية، ولا ستالين نفسه شيوعي حقيقي، وإنما يوجد بها دكتاتورية الحزب الشيوعي أو نظام شيوعي بكل درجاته ولا تمت إلى الدكتاتورية العمالية في كثير أو قليل. وأن الحكومة العمالية التي تكهن ماركس بأنها ستزول من تلقاء نفسها تزداد قوتها وتشتد قبضتها على الشعب الروسي كلما تقادم بها الزمن فزعماء الشيوعية وفي مقدمتهم (لينين) رأوا أنه من الأيسر عليهم أن ينادوا بمبادئ ماركس دون ممارستها. وبينما يتشدقون بمدح الفلسفة الماركسية نراهم قد بدلوا وعدلوا في تعاليمه التي ورثوها منه كلما اقتضت الظروف والضرورة. وروي عن ماركس أنه قال عندما شاهد ما يفعله أتباعه: "أعترف بأنني لست ماركسيا"، ومن المحتمل أن يكون قد داخله الشك الكثير في أن تطبق مبادؤه تطبيقا صحيحا عندما ينتصف القرن العشرون. ومن الطريف أن تنتشر دعاية مستملحة عن ماركس بين الاشتراكيين وهي: أنه لو عاش ماركس في عهد ستالين لما عمر طويلا.

ولم يصدر غير الجزء الأول من "إنجيل الطبقة الكادحة" في حياة ماركس، ونشرت بعد وفاته في ١٨٨٣ مذكراته وكتاباته دون ترتيب أو تصحح في جزءين آخرين نشرهما (إنجلز) فأخرج الجزء الثاني عام ١٨٨٥

والثالث عام ١٨٩٤ أي قبل وفاته بعام واحد. وهما يحتويان على الأساليب والطرق المختلفة لتطبيق نظرياته التي تتصل "بتداول رأس المال" وطرق الإنتاج الرأسمالي. ولكن شهرة ماركس تستند أساسا إلى الجزء الأول من كتبه فقط، إذ أن الجزءين الباقيين أضعف شأنا وأقل رواجا منه بين القراء. وله غير ذلك من المؤلفات كتاب (نظرية فائض القيمة) ويعتبر الجزء الرابع المتمم الكتاب (رأس المال) أصدره (كارل كوتسكي) وجملة من مخطوطات ماركس، وظهرت تلك الطبعة في ألمانيا من عام ١٩٠٥ ، ١٩١٠.

وكتاب (رأس المال) من الكتب العسيرة الفهم، قال عنه (بارزون) "أنه كتاب سيء التأليف، غير منسق، مشوه الترتيب والمنطق مهوش المادة. وأشار آخر هو (كرتوشي) إلى "غرابة ترتيبه وخلطه بين النظريات العامة، ومزجه بين حدة النقاش والتهكم اللاذع، وجمعه بين الأمثلة التاريخية والاستطراد الخارج عن الموضوع"، والكتاب في نظره "مختل التوازن" مهوش الترتيب فيه تطويل محل ، وثمة آخر هو (ستاندن) يعترف بأن "التصميم الأساسي للأجزاء الثلاثة الأولى في ضخامتها مدعاة للإعجاب، ولكنه يستدرك على ذلك فيقول: "ولكن الكتاب بوضعه الحالي يدعو إلى الملل والسأم لكثرة خروجه عن الموضوع، وثقل سياقه، بسبب كثرة اللف والدوران"

وكارل ماركس من الشخصيات التاريخية التي تضاربت فيها الآراء تضاربا شديدا لم يحدث مثله في شأن أي شخصية أخرى، إذ الآراء فيه

على طرفي نقيض لا وسط بينها، فهو في نظر البعض ذلك الملك المحبوب الذي أوقف حياته وأنكر ذاته في الأخذ بيد الطبقة المحرومة التي عاشت في القرن التاسع عشر، وثمة ناقد آخر سليط اللسان كتب يقول: "إن ماركس يتنكر" تحت اسم الإنسانية وتقدمها نشر الموت والبؤس والانحلال واليأس في العالم بشكل لم يسبق أن اقترفه إنسان قط في العالم"

ترى ما هو السر إذن في استهواء ماركس لملايين الناس الذين يعيشون على سطح هذه الأرض؟ وما سر سطوته العجيبة عليهم؟.. وأجاب أحدهم (نايل) عن ذلك السؤال بقوله: "إن ماركس هو الزعيم الرمزي والقائد الروحي للمعدمين الذين لا يملكون شيئا في معركتهم ضد أولئك الذين يملكون شيئا"، وأما (بارزون) فيرى أن قوة ماركس تكمن في أنه يشارك المستضعفين شعورهم، فيحس بنفس أحاسيسهم، وأن المساواة عقيدة تختلط بلحمه ودمه، إلى جانب هذه العقيدة الإغراء بالسلطة والتلويح بالمطامع العريضة، فهذان الأمران كفيلان بهدم النظم الخلقية السائدة في سبيل نظام مثالي أرقى، تصوره وارتآه". وثمة جواب آخر على هذا السؤال يجيب به (هارولد لاسكي) إذ يقول: "وحقيقة أمره أن أشد إحساساته التي تحركه هى إحساسه العميق بالعدالة، قد يكون من أخلاقه السخط والحقد والكبرياء، إلا أن الأصل في نشاطه رغبته الصادقة في أن يرفع عن كاهل الشعوب أعباء الظلم التي أثقلت ظهورها وأرهقتها، وكتب (فريهون) عن ماركس ومكانته العالمية قال: "أن عظم ما قدمه ماركس للعالم الحديث سواء أكان اشتراكيا أم رأسماليا، هي الصورة التي رسمها المجتمع لا فاقة فيه ولا مرض ولا ألم، وان هذا المجتمع أن لا ريب فيه. إن

تلك الصورة المثالية تقف متحدية جميع النظم الاشتراكية، ورغم أن نظاما اشتراكيا مثل النظام الأمريكي الحالي يستهجن نظرياته الاقتصادية غير أنه لا يستطيع إلا أن يتقبل نظريته الخاصة، ذلك المثل الأعلى الذي رسمه ماركس ومن سخرية الأقدار أن يبعث رجل عانى مرارة الفقر في قلوب المحرومين نور الأمل في حياة يكون فيها المستقبل لا فاقة فيه ولا عوز. هذا هو العمل المجيد الذي قام به ماركس، وهذا هو العمل الذي قلب به تفكير العالم الحديث.

صراع الوحوش:

٨ـ القوة البحرية وأثرها في التاريخ

أمير البحر "ألفرد ت. ميهانى"

لما وصف ناقد معاصر كتاب (ميهان) بأنه "كتاب عظيم ولكنه من أشد المواد الحارقة في العصر الحديث" لم يعد قوله كبد الحقيقة، إذ كان لميهان الفضل كل الفضل في الصورة التي وصلت إليها الأساطيل الحديثة وقوتها الراهنة. وكان أثره في ذلك أعظم بكثير من أي فرد آخر؛ فقد نعت أحدهم قلمه بأنه "أقوى من أسطول بأكمله" لأن "الدردنوطات الحديثة من بنات أفكاره" وأن دوي المدافع من عيار الست عشرة بوصة لم يكن إلا صدى صوته، والحق أن كتاباته فاقت كتابات كل مؤرخ آخر في التأثير الفعال المباشر.

فقد أثبت ميهان بالدليل القاطع أن القوة البحرية كانت العامل الحاسم في التنافس على السيادة العالمية في كل عصر من عصور التاريخ المدون، وأن السيطرة على البحار ضرورية لكل أمة تريد أن تلعب دورا رئيسيا في سياسة العالم، وتريد أن تحصل على أقصى قسط من الرفاهية

والأمن في الداخل، إذ أن القوى البرية التي ليس لها منفذ إلى البحر، مهما بلغت من القوة والكثرة، مقضي عليها بالانهيار والدمار الذي لا مفر منه، لأن الأرض كما أشار ميهان "كلها عوائق وموانع، وأما البحر فسهل واسع منبسط، فالأمة التي تسيطر على هذا السهل بأسطولها البحري وأسطولها التجاري تستطيع في يسر أن تستغل جميع موارد العالم وثروته.

ترى أي رجل يكون ميهان هذا الذي يلقب "بالقنبلة الحارقة"؟ إنه آخر شخص يشتبه في أن يكون رجلا ثوريا أو متمردا على الأوضاع القائمة أو خطرا على السلام والأمن. ولد ميهان عام ١٨٤٠ وكان أبوه أستاذا للهندسة المدنية والحربية في كلية (وست بوينت) الحربية.. وتخرج ميهان في كلية (أنابوليس) وقضى أعواما طويلة مملة وهو يعمل ضابطا في خدمة البحرية بين الخدمة العاملة وبين الإدارة في القواعد البحرية. ولم يحضر في حياته موقعة ما إلا مواقع ثانوية جدا أثناء الحرب الأهلية، ولكنه اكتسب خبرة واسعة لما أرسل إلى البرازيل والشرق، وكذلك من رحلات عديدة إلى القارة الأوروبية.

وأعقب هذه الرحلات خمسة عشر عاما طويلة بقي فيها لا يحرك ساكنا إلا من كتاب صغير هو "الخليج والطرق المائية الداخلية"، وهو خاص بالوقائع البحرية في الحرب الأهلية، كان قد كلف بكتابته عام ١٨٨٣ ثم جاءته فرصة مواتية أخرجته من خموله وجعلته رجلا مشهورا وغيرت مجرى حياته المستقلة تغييرا تاما. جاءته الفرصة عندما دعاه

(الأميرال ستيفن ب. لوسي) ليكون مدرسا للعمليات الحربية والتاريخ البحري في الكلية الحربية الجديدة في (نيوبورت).

وقد كانت هذه هي الفرصة الذهبية التي كان ميهان ينتظرها بفارغ الصبر، وكان إلى ذلك الحين ضابطا بحريا غير ممتاز متبرما بالحياة الرتبة المملة في البحرية، ولم يصل عندئذ في رتبها إلا إلى رتبة "يوزباشي" (رقي إلى رتبة أمير البحر بعد إحالته إلى التقاعد) فكانت الوظيفة الجديدة نعمة هبطت عليه من السماء، ومنح في أول الأمر مهلة عام للاطلاع والتفكير في عمله الجديد قبل أن يلتحق بهيئة التدريس في (نيوبورت)

وفي سبتمبر سنة ١٨٨٦ بدأ يلقي على فريق قليل من الضباط سلسلة من المحاضرات قدر لها بعد ذلك بأربعة أعوام أن تجمع وتنتشر في كتاب تحت عنوان "تأثير القوة البحرية في تاريخ العالم" من عام ١٦٦٠ إلى ١٧٨٣.

وقد أشار ميهان في خطاب للناشر الإنجليزي أن عبارة "القوة البحرية"، اختيرت خصيصا عنوانا لكتابه حتى تجتذب أنظار القراء وتضمن الرواج للكتاب. وأنه تجنب استعمال كلمة**Maritime** المشتقة من اللاتينية لأنها كلمة عادية لا تلفت النظر ولا تعلق بالذهن. ومن البديهي أن تكون كلمة "قوة"، قد صادفت هوى في نفوس القراء لأن العصر كان عصر قوي، منوعة مثل قوة البخار والكهرباء وسياسة القوة. ويرى من

ذلك أن كلمات العنوان قد اختيرت بدقة وعناية حتى يكون لها أعمق الأثر في نفوس القراء.

وأما حقيقة الكتاب المشهور الذي ترتكز عليه شهرة ميهان فسرد وشرح النهضة البحرية البريطانية وتقدمها من بدء منتصف القرن السابع عشر حتى نهاية حروب نابليون.

ويبدأ ميهان كتابه بعرض إجمالي لتاريخ نهضة الأمم البحرية الكبرى وسقوطها ويشرح بشيء من التفصيل في سياق كلامه العناصر الرئيسية التي يجب توفرها في كل أمة تهدف إلى السيطرة على البحار. وقد حصر هذه العناصر كلها في ستة رءوس، وهي: المركز الجغرافي، وطبيعة الأرض (ويشمل المناخ والمواد الأولية) واتساع رقعة الدولة، وعدد السكان، وأخلاق الأمة، وطابع الحكومة فيها.

وعند معالجته لعناصر القوة البحرية هذه بين ميهان في كل مناسبة الطريقة التي تغلبت بها بريطانيا على أعدائها. ويتضح من شرحه أن القوة البحرية ليست مجرد أسطول حربي، ولكنها تشمل كذلك أسطولا تجاريا قويا وقواعد بحرية منيعة على شواطئ الدولة. قال ميهان في كتابه:"أن تاريخ القوة البحرية بما ينطوي عليه من العوامل التي تهيئ أمة ما للعظمة عن طريق السيادة على البحار ما هو إلا تاريخ حربي في جملته، ولكنه وجه النظر مرارا إلى أن جميع الأساطيل الحربية والحملات والمعارك ليست إلا وسيلة لغاية. إذ لا يوجد أسطول تجاري مزدهر بمفرده أو أسطول حربي

منتصر بمفرده، وإنما لا بد للواحد من وجود الآخر لأن الرخاء القومي يعتمد على شرط وجودهما معا.

وعند كلامه على عنصر المركز الجغرافي، وهو عنصر رئيسى، أبرز ميهان المزايا التي تجنيها الدولة من وضعها الجغرافي، بحيث لا تضطر للدفاع عن نفسها على اليابس، أو تطمع في التوسع على حساب جيرانها في البر بالمقارنة مع أمة أخرى تكون حدودها البرية مشتركة مع أخرى مجاورة لها، وضرب لذلك مثلا بإنجلترا في جانب وفرنسا وهولندا في جانب آخر؛ فهولندة مثلا في بدء تاريخها الحديث استنفدت قواها الحربية لاضطرارها للاحتفاظ بحشد بري قوي التدافع به عن استقلالها. وأما فرنسا فأضعفها توزيع ثروتها وقوتها المحاربة بين بناء أسطول حربي قوي وبين مطامعها في التوسع على القارة الأوروبية، وزاد في ضعفها أنها تطل على بحرين هما: المحيط والبحر الأبيض، مما اضطرها إلى توزيع أسطولها وعاقها عن توحيده. كما أشار ميهان كذلك إلى الولايات المتحدة بقوله أن امتداد سواحلها على محيطين يجعلها في مركز من الضعف يشبه مركز فرنسا. وقرر أن أمثل المراكز الجغرافية وأنفعها هو مركز وسط تكون فيه للدولة مرافئ مصافية لخطوط الملاحة الرئيسية وقواعد بحرية قوية تستطيع منها أن تدير عملياتها الحربية لتدفع بها أي عدوان خارجي مهما كان قويا، ولذلك استطاعت إنجلترا بفضل سيادتها على المانش وسيطرتها على الطرق التجارية في البحر الشمالي أن تحصل على السيادة البحرية.

وفي تحليله للعنصر الثاني قال ميهان: "إن ساحل البحر للدولة هو أحد حدودها، وكلما كان الاتصال بين الحدود وبين الإقليم الذي وراءها سهلا ميسورا دفع ذلك أهل البلاد إلى إقامة العلاقات بينهم وبين بقية أجزاء العالم عن طريقه، ووجود موانئ عميقة متعددة من الأمور الحيوية لها. ولما كانت الطبيعة قد حرمت إنجلترا وهولندة من جودة التربة واعتدال المناخ اضطرتا تحت ضغط الظروف أن تتجها نحو البحر للارتزاق، بينما نجد فرنسا التي حبتها الطبيعة إذ بجمال المناخ وخصب التربة، ونجد الولايات المتحدة التي تنعم كذلك بنفس النعم لا يغريهما البحر بالتطلع إلى ما وراءه.

وثالث العناصر الطبيعية هو سعة رقعة الدولة، ولم يقصد ميهان بهذه العبارة "مساحة الدولة بالأميال المربعة" وإنما قصد طول سواحلها وخصائص مرافئها والتناسب بين عدد السكان وطول الساحل وهو من الأهمية بمكان. وقد مثل لذلك بما حدث في الحرب الأهلية الأمريكية قال: "لو أن الولايات الجنوبية توفرت لها الكثرة العددية بما يتناسب مع الروح الحربية العالمية التي يتميز بها شعبها، ولو كانت تملك أسطولا حربية وتجارية يتناسب مع مواردها الفنية إلى جانب ما حبتها به الطبيعة من وفرة الفرض والخلجان وطول سواحلها، لكانت كلها عوامل قوة كبرى في الحرب الأهلية، ولكن الجنوب لم يكن يملك أسطولا فحسب بل أن الشعب نفسه لم يكن شعبا بحريا محبا للملاحة وركوب البحار، كما أن عدد سكانها لا يتناسب مع طول سواحلها التي كان عليها أن تحميها وتدافع عنها.

وانصرف ميهان بعد بحث العناصر الطبيعية الثلاثة السابقة إلى السكان وحكومتهم، وفي كلامه عن عدد السكان أبرز عظم أهميته في الأمم البحرية وزاد على ذلك فقال:

"ليست العبرة بمجموع عدد السكان وإنما العبرة بعدد الذين يشتغلون في البحر، أو على الأقل بعدد البحارة الذي يستطاع استخدامهم في السفن والذين يعتمد عليهم في تكوين أسطول بحري، وعاد فاتخذ من تاريخ إنجلترا وفرنسا أمثلة على ذلك فأشار إلى أن فرنسا رغم إنها أكثر سكانا من إنجلترا إلا أن الأخيرة بفضل عقلية شعبها البحرية والتجارية، ويفضل كثرة فرضها وخلجانها كتب لها التفوق البحري والسبق على شعب فرنسا الزراعي. وختم ميهان بحثه في السكان بقوله: "إن الميل الطبيعي في الشعب للاشتغال بالمهن البحرية والخدمة على سطح البحر عنصر من أهم عناصر القوة البحرية للأمم ينطبق على العصر الحاضر" كما كان ينطبق على الماضي، وأشار إلى أن الولايات المتحدة وينقصها ذلك العنصر نقصا فاحشا"

وكان العنصر الخامس الذي تناوله (ميهان) بالبحث هو تأثير أخلاق الأمة وما تنطوي عليه من قدرات في ترقية القوة البحرية.. كتب يقول:

"قد دلت أحداث التاريخ بلا استثناء على أن القدرة الطبيعية لممارسة الأعمال التجارية من المميزات التي اختصت بها كل الأمم التي كانت يوما ما ذات قوة بحرية عظيمة"

ورغم أنه كان يشار للإنجليز والهولنديين في احتقار بأنهم أمة من أرباب الحوانيت، فإنهم جنوا من وراء تجارتهم مكاسب فاقت جميع ما جناه الإسبان والبرتغال من وراء بحثهم عن مناجم الذهب، وفاقت كل ما ادخرته الأمة الفرنسية المقترة من المال، تلك الأمة التي بلغ الحرص بها إلى حد عدم المخاطرة باستخدام رءوس أموالها في التجارة الأجنبية. واستطرد يقول: "إن الميل للمتاجرة وما يقتضيه بالضرورة من إنتاج سلع للاتجار بها هو أهم المميزات القومية في بناء قوة بحرية"

وكذلك تجلت العبقرية القومية في الأمة في قدرتها على تأسيس مستعمرات جديدة مزدهرة. وقد تفوق الإنجليز في هذا على الفرنسيين لأن في طبيعة المستعمر الإنجليزي أن يستقر في وطنه الجديد، ويوحد بين مصلحة هذا الوطن مصالحه الشخصية، وهو مع احتفاظه بذكريات الود لوطنه القديم لا يعتريه أي قلق أو رغبة ملحة للعودة إليه، ولم يكن المستعمر الإسباني مستعمرا ناجحا لأن همه الأول كان ينحصر في استغلال موارد المستعمرات، ولم يعن قط بتنمية تلك الموارد وإصلاحها.

وفي النهاية انتقل ميهان إلى بحث نوع الحكومة وأنظمتها من حيث علاقتها بنمو القوة البحرية، فأوضح أن شكل الحكومة وأخلاق حكامها "كان لهما أكبر الأثر في تنمية القوة البحرية وتقويتها" وهو رغم تفضيله النظم الديمقراطية للحكومة إلا أنه أبدى أن الحكم الفردي إذا استعمل سلطته بحكمة وعزم ثابت استطاع في بعض الأحيان أن ينشىء أسطولا تجاريا ضخما وأسطولا حربيا قويا بأسرع ما تستطيعه أي حكومة ديمقراطية

حرة، ولكن المعضلة بعد ذلك هي مسألة مواصلة الجهد والنشاط عندما يختفي شخص الحاكم المستبد. ولما كانت إنجلترا قد تفوقت في قوتها البحرية على أي دولة حديثة فلا بد من بحث سياستها الحكومية بوجه خاص دون أن يكون للملك أو الأحزاب تأثير في تعديل تلك السياسة.

وبعد بحث تاريخي مستفيض عن سياسة الحكومات المختلفة في تشجيع رعاياها على العمل في البحر، خلص منه ميهان إلى أن السلطة الحكومية تسلك طريقين أحدهما في زمن السلم والآخر في زمن الحرب؛ فأولا: إما أن تشجع الحكومة الإنتاج الصناعي وتشجع في أفرادها روح المخاطرة طلبا للرزق وراء البحار، وإما أن تخلق صناعات بحرية، أو توجد هواية البحر بين رعاياها حتى ولو لم توجد بطبيعتها أو تفعل عكس ذلك باتباع سياسة خاطئة فتقتل روح التقدم بين الأفراد ونشاطهم الذي لو تركوا وشأنهم قاموا به.

أما في زمن الحرب فإن القوة البحرية تعتمد على نشاط الحكومة في تكوين وإعداد وصيانة أسطول بحري يتناسب مع سعة حمولة أسطولها التجاري، مع المنافع التي تجنيها من ورائه. ولا يقل عن ذلك أهمية "تأسيس القواعد البحرية الحصينة في البقاع النائية في العالم حيث تحمي المراكب الحربية طرق السفن التجارية المسالمة"، وأشار إلى أن الولايات المتحدة ضعيفة في هذه الناحية لأنها لا تملك في البلاد الأجنبية قاعدة محصنة أو غير محصنة.

وبمجرد أن انتهى ميهان من أبحاثه وآرائه في العناصر السنة الأساسية للقوة البحرية انتقل إلى تحليل تفصيلي للحروب البحرية في أوروبا في الفترة ما بين ١٦٦٠ – ١٧٨٣ وهي فترة تمتد قرابة قرن وربع قرن، وهو الجزء التاريخي الذي يشغل بقية الكتاب، ولم يفته وصف الأحوال السائدة في أوربا في أواخر القرن السابع عشر وبخاصة في إسبانيا وفرنسا وهولندة وإنجلترا وهي الأمم التي اشتكت مع بعضها البعض في النزاع المستقبل على سيادة البحار. وفي رأيه أن تلك السيادة كانت السبب الرئيسي في ذلك النزاع، وبدأ عرضه الشامل للحرب بين هولندة وشارل الثاني ملك إنجلترا، ثم ذكر الأخطاء العظيمة التي كانت تهدد المصالح التجارية الإنجليزية في حرب الوراثة الإسبانية والتي انتصرت فيها إنجلترا وخرجت منها كإحدى القرى البحرية في البحر المتوسط عندما ظفرت بالاستيلاء على قلعة (جبل طارق) و(بورت ماهون)، كما أشار إلى أن انتصار "ولف" في حرب السبع السنين كان مستحيلا لو لم يعاونه الأسطول باقتحام مصب نهر سنت لورنس والحيلولة دون وصول النجدات من فرنسا إلى قواتها المحصورة هناك. ووضح أهمية القوة البحرية مرة أخرى في الحرب الأهلية الأمريكية عندما كان تفرق وحدات الأسطول البحري الإنجليزي سببا في عجزه عن الوقوف أمام أسطولي فرنسا وإسبانيا المتحدين واستطاعت بذلك الولايات الأمريكية أن تفوز بحريتها واستقلالها.

والفكرة التي تتكرر في أقوال ميهان، أنه عند نشوب حرب بين دولة بحرية وأخرى برية يكون الحصار البحري من العوامل الحاسمة في الحرب أكثر من انتصارات الجيش البري مهما كانت ساحقة.

قال الكاتب (بيولستو) أشهر المترجمين لحياة مهان: "لقد حاول ميهان جهد المستطاع أن يتوخى الدقة، ولما كان عصر تلك المعارك عصر المراكب الشراعية، فقد عاني معاناة شديدة في التعرف على الاصطلاحات الفنية البحرية ومعانيها، وهي اصطلاحات قديمة أهمل استعمالها في عصره. كما أن ميهان في ترجمة حياته التي كتبها بنفسه وصف الوسائل الآلية مثل نماذج مراكب من الورق استعملها البعيد بها تمثيل الوقائع البحرية.

وكان غرضه الرئيسي في كتابه كما شرحه لرئيسه (الأميرال لوس) "أن أكتب نقدا وتحليلا للتاريخ الحربي للمعارك البحرية ولم يكن غرضي أن أسرد الأحداث البحرية، ونحن نضيف من عندنا غرضا آخر هو توضيحه للعلاقة الوطيدة بين التاريخ البحرى والتاريخ السياسي، لأنه كان يعتقد أن القوة الاقتصادية التي تلازم السيادة البحرية تجعل مالكها في مركز فعال له وزنه في المسائل الدولية.. وبذلك تمكنت إنجلترا بسبب اتجاهها لبناء قوة بحرية في الوقت الذي أهمل فيه أعداؤها ذلك الغرض فقضت على جميع المؤامرات العجيبة التي حاكها لويس الرابع عشر، وحطمت نابليون، وأنقذت بذلك الحضارة من أعدائها على حد رأي ميهان.

واعترف العالم بأهمية الكتاب بعد نشره مباشرة إلا في الولايات المتحدة حيث استقبل استقبالا فاترا، ولم تمض إلا فترة قصيرة على ظهوره حتى ترجم إلى اللغات الأجنبية كالألمانية واليابانية والروسية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، وقد زود هذا الكتاب الدول العظمى بأعظم ذخر

جعلها على تمام الأهبة استعدادا لعصر التنافس البحري الذي كان قد بدأ فعلا في بريطانيا وألمانيا وأمريكا.

وقد تساءل النقاد عما إذا كان كتاب ميهان يحدث أثره الشديد في العالم إذ ذاك لو أنه نشر في عصر أو ظروف أخرى غير ظروف عصره. ولا مراء في أن ظروف عصره كانت مواتية، وأن البذور التي بذرها ميهان بشأن أهمية القوة البحرية صادفت تربة خصبة تتفق مع الروح الحربية التي سيطرت على عقول أهل زمنه. فقد كانت الدول العظمى تجمع كل قواها للدخول في سباق بحرى مهلك للاستيلاء على مستعمرات وممتلكات جديدة، فكان من الطبيعي أن يتقبل العالم آراء ميهان ويقدسها. وقد تلقف الساسة في جميع الدول قوله الذي أيده بالدليل، بأن القوة البحرية أمر ضرورى لرفاهية الأمم، واعتنقوه لأنهم وجدوا فيه تبريرا أكيدا لسياستهم التي نفذوها أو هي على وشك التنفيذ. وقد وصف أحد الكتاب البريطانيين تأثير تعاليم ميهان بأنها كانت بمثابة الزيت الذي ألقي على نار الاستعمار الكامنة فاشتعلت وتصاعدت منها ألسنة اللهب..

واستقبل الكتاب في بريطانيا بالترحاب، ودعاه بعضهم (إنجيل عظمة إنجلترا) قال الكاتب (بيولستون): كأنما كتب هذا الكتاب بتكليف من الوزارة البريطانية لأنه جاء مؤيدا لجميع الآراء التي دافعت عنها، وقال أحد أمراء البحر الإنجليز في معرض كلامه عن تحسن حالة الأسطول البريطاني عام ١٩٠٠ "نحن لسنا مدينين بالفضل للمحافظين أو الأحرار وإنما نحن مدينون لميهان وحده، ولما توفي ميهان عام ١٩١٤ أشادت صحيفة (لندن

بوست) بميهان فكتبت تقول: أن بريطانيا مدينة لهذا الرجل العظيم بدين لا تستطيع وفاءه لأنه أول من رسم فلسفة القوة البحرية البريطانية عن فهم ودراية.

وقد يدرك القارئ مغزى هذه التعليقات إدراكا أتم إذا عرف أن الفترة التي كان ميهان يكتب فيها كتابه كانت فترة أهملت فيها الاعتمادات المالية الخاصة بالأسطول ونقصت فيها الأيدي العاملة، وتفوقت عليها في القوة البحرية دول أخرى مثل فرنسا وإيطاليا في بناء سفن حديثة. وصف أحد البحارة البحرية البريطانية بقوله: "إنها خليط من السفن العتيقة من مختلف الأشكال والأحجام، ثلثاها خاليان من السلاح فجاء نداء ميهان بوجوب بناء أسطول قوي حديث في الظرف المناسب، وحمل إنجلترا على الإسراع في إعادة تنظيم قوتها البحرية وتقويتها.

وقد ظهر ما يكنه الإنجليز من الاحترام لميهان والإعجاب به في أثناء زيارته لإنجلترا في عامى ١٨٩٣ ، ١٩٠٤ فقد كان ضيف الشرف في مأدبة أقامتها له الملكة فكتوريا، وكذلك في مأدبة أقامها له رئيس الحكومة، كما كان أول أجنبي يحل ضيفا على نادي الجيش والبحرية. وسارعت أكسفورد وكمبردج إلى منحه درجات علمية شرفية.

ولم يقتصر وقع الكتاب على الشعبين الأمريكي والإنجليزي لأنه مكتوب بلغتهم، بل كان بالمثل عظيم الوقع بين الألمان واليابانيين. قال القيصر ولهلم الثاني إمبراطور ألمانيا: لست أقرأ هذا الكتاب وإنما أنا ألتهمه

التهاما. إن الكتاب في يد جميع رجال بحري. إن مستقبلنا سوف يقوم على البحار، وإن صولجانه يجب أن يكون في قبضتنا، وأصبح كتاب ميهان بمثابة الوحي للبحرية الألمانية. قال (تيلور) أحد كتاب سيرته: لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن ميهان، وهو على فراش الموت اعترته حالة نفسية سيئة للدور الذي لعبه في الحرب (الحرب العالمية الأولى) دون قصد لأنه كان سببا في نمو البحرية الألمانية.

وكذلك حدث في اليابان؛ فقد وزع الكتاب على جميع ضباط السفن البحرية كجزء من عتادهم. ولما كان اليابانيون في تحرق زائد للاستزادة من علم الغرب فقد بدأوا بمراسلة ميهان واستشاروه في كيفية بناء السفن وحجم مدافعها وفي أمور بحرية أخرى. وبلغ بهم الأمر أن عرضوا عليه أن يكون المستشار الرسمي للبحرية اليابانية، ولكنه اعتذر عن عدم القبول. ومع هذا فقد أخذ اليابانيون منه كلمة البدء وانطلقوا مجدين حتى أصبحوا أكبر دولة بحرية في الشرق الأقصى.

ولم يتخلف عن دخول حلبة السباق البحري من الدول الكبرى سوى الولايات المتحدة، التي لم تلق بالا لآراء ميهان مع أنه حرص جد الحرص على تنبيهها بالذات حتى تدخل ميدان التنافس مع الدول الأخرى لفتح أسواق جديدة خارج بلادها، وأن تبني أسطولا ضخما وتؤسس قواعد بحرية حربية محصنة فيما وراء البحار، وأن توسع رقعة أملاكها بالاستيلاء على أملاك خارج نصف الكرة الغربي.كما قال بوجوب ضم جزر هاواي إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وأشار إلى البحر الكاريبي

الذي تعدل أهميته لأمريكا أهمية البحر المتوسط لأوروبا. وستزداد تلك الأهمية ازديادا كبيرا ، وبخاصة بعد ما يتم شق قناة بنما. وكانت النعمة التي ضرب عليها في كتابه تنصب على إشاراته للولايات المتحدة خاصة والتنبيه إلى إمكانياتها العظيمة لتصبح دولة بحرية عظمى، قال بيولستون: "إن غرض ميهان الرئيسي في كتابه أن يستثير نفوس مواطنيه واهتمامهم السابق في بناء قوة بحرية، فقد شاهد أن الشغل الشاغل للأمريكيين في زمنه هو انصرافهم إلى تنمية واستغلال موارد قارتهم الداخلية، فأهملوا في غمرة هذا العمل ميراثا بحريا مجيدا. وأبدى ميهان أنه لا يريد أن يرى بلاده تتبع سياسة فرنسا أيام لويس الرابع عشر بجعل قوتها الرئيسية قوة برية.

وقد اعتق مبادئ ميهان رجلان مسئولان هما (تيودور روزفلت) و(هنرى كابت لودج) الأول في البيت الأبيض، والآخر في مجلس الشيوخ الأمريكي، وأصبحا من المتحمسين لأراء ميهان إذ رأى الأول فيها تحقيقا لفلسفته القائلة باستعمال الشدة (سياسة العصا الغليظة) واستغل نظريات ميهان البحرية ليكسب الرأي العام الأمريكي إلى جانبه في سياسة التوسع فيما وراء البحار. ولا ينكر إنسان عظم تأثير توجيهات ميهان في البرنامج الإنشائي البحري الضخم الذي بدأته الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر.

ولم يضعف نشاط ميهان بعد النجاح العظيم الذي لاقاه كتابه الأول؛ فواصل إنتاجه وتكاثرت كتبه ومقالاته في المجالات فبلغت عشرين مجلدا عندما جمعت، غير عشرات أخرى من رسائله للمجلات، ومن بينها كتب

جديدة أضيفت إلى سلسلة كتبه عن القوة البحرية نخص منها بالذكر كتابه عن أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية ١٧٩٣ – ١٨١٢، وهو كتاب اعتبره النقاد أعظم من كتابه الأول من حيث متانة التأليف والوثائق الصحيحة التي عني أتم العناية باختيارها لهذا الكتاب. كما نشر تراجم عن حياة (فاراجوت) و(نلسن) وكتابا آخر عنوانه (القوة البحرية ودورها في حرب ١٨١٢).

واعترف ميهان أن آراءه عن القوة البحرية لم تكن من اقتراحه واختراعه، وأشار إلى ما جاء عنها في كتابات بيكن ورالي منذ ثلاثة قرون عن هذا الموضوع كما أشار إلى أن (توكيديدس) و(اجزرسيس) و(تمسكلير) في التاريخ القديم قد أدركوا من مئات السنين أهمية القوة البحرية للدولة. ولكن (ميهان) كان أول من طرق ذلك الموضوع من ناحية جديدة إذ قال: "إنه تحليل تاريخي، حاولت فيه أن أثبت بالوقائع الجارية عبر حقبة طويلة من الزمن تأثير القوة البحرية الحاسم في مصائر الأمور. ولما لم يسبق أحد من المؤلفين إلى هذا الميدان، فقد وجدت فيه فرصتي المواتية فانتهزتها واعترض بعض النقاد على ميهان بأن نظرته ومعلوماته في التاريخ ضعيفة ناقصة ، لأنه تجاهل عدة عوامل حيوية غير أنهم عادوا فاعترفوا بفضله في استنباط وجهة جديدة في كلامه عن السياسة والاقتصاد.

ونحن إذا سلمنا جدلا بعد كل تلك الانتصارات بأن آراء ميهان كانت صحيحة في العصر الذي عاش فيه فلنا أن نتساءل عن قيمتها لنا في القرن العشرين حيث تقدمت الوسائل الفنية تقدما هائلا. فهل في ظهور الأسلحة الجوية والقنبلتين الذرية والهيدروجينية ما يحل محل الأساطيل البحرية؟ وهنا

ينقسم الخبراء في هذا الرأي. فقد رأينا في الحرب العالمية الثانية أن الأساطيل قد لعبت دورا مهما في معاركها، ولكنها قامت بذلك الدور بالترابط بينها وبين السلاح الجوي لأنه ثبت أن سفن الأسطول عرضة للهجوم والتدمير إذا لم تكن تحت حماية القوة الجوية. وكان لتحسين القنبلتين الذرية والهيدروجينية بعد الحرب ما جعل مستقبل الأساطيل في كفة الميزان. فإن قنبلة من تلك القنابل تكفي للقضاء على أي تجمعات بحرية وشل حركتها. ورغم هذه التكهنات ترى روسيا جادة في بناء أسطول ضخم من الغواصات، كما نرى الولايات المتحدة جادة هي الأخرى في بناء أسطول ضخم من حاملات الطائرات. وفي هذا دليل على أن الأساطيل البحرية لم تفقد أهميتها حتى في العصر الذري.

ويرى العلماء أن شهرة ميهان، كأحد كبار المؤرخين أن تحتفظ بمكانتها في المستقبل كما هي في العصر الحاضر، لأن شهرته الرئيسية ترتكز على نجاحه في الدعاية لفكرة بالذات؛ فقبل وفاته كانت الولايات المتحدة قد حققت فعلا جميع الأغراض التي جهر بها شيدت أسطولا من أضخم الأساطيل، وشقت قناة بنما، وأسست قواعد بحرية قوية في البحر الكاريبي والمحيط الهادي. لقد رأى ميهان تحقيق آرائه وتطبيق فلسفته التي تقول: "أن من يملك البحار يملك العالم بأسره" وكان من نتائجها دخول الدول العظمى حلبة سباق جنوني للتسلح البحري والسيادة البحرية. وقد أشار ناقد حصيف إلى أنه لم يحدث قط أن شخصا بمفرده استطاع أن يترك ذلك الأثر العميق في أسس التسلح البحري والسياسة الدولية كما فعل ميهان، كذلك عقب أحد خبراء رجال البحر الفرنسيين بأن ميهان "رأى بعينيه التغيير الخطير الذي أحدثه في معالم تاريخ عصره أثناء حياته".

٩ ـ المركز الجغرافي للتاريخ

لسير هالفورد ج. ما كندر

لم يمض غير نيف وعشر سنين على آراء أمير البحر ميهان من أن قوة الأساطيل الحربية قوة لا تقهر – وهي نظريته التي دلل على صحتها بشكل مقنع قاطع حتى ظهر في الوجود عاملان جديدا كادا يقضيان على احتمال صلاحيتهما في المستقبل – وظهر العامل الأول في عالم الماديات عند ما نجح الأخوان (رابط) لأول مرة عام ١٩٠٣ في التحليق جوا بطائرة ذات محرك، والثاني في عالم التفكير عندما ألقى (ماكندر) وهو أحد علماء الجغرافيا الإنجليز، محاضرة علمية سنة ١٩٠٤، وقد لقب فيما بعد بأبي الجغرافيا السياسية. ولم يدرك العالم لأول وهلة خطورة هذين الحدثين، وما يكمن وراءهما من ثورة وانقلاب بعيد غير وجه العالم تغييرا تاما.

ولا يمكن تصور مجلس أقل اهتماما بنشر الآراء الثورية من الجمعية الجغرافية الملكية عند انعقادها في ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤ لتستمع إلى محاضرة علمية ألقاها ماكندر في تلك الجلسة، وهي المحاضرة الشهيرة عن (المحور الجغرافي للتاريخ) وهي رسالة عادية قصيرة تقع في أربع وعشرين صفحة مطبوعة، ولكن ورد فيها من التحليل الدقيق والشرح المشع

للعلاقة الوثيقة التي بين الجغرافيا والسياسة في التاريخ ماضيه وحاضره، طلع فيها على الناس بمبادئ جديدة غيرت من تفكير المفكرين السياسيين والعسكريين والاقتصاديين والجغرافيين والمؤرخين في أرجاء الدنيا.

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى عمل ماكندر على المضي قدما في أرائه وحججه، فتوسع فيها في كتاب آخر هو "المثل العليا الديمقراطية والحقيقة الواقعة" غير أنه لم يضف شيئا جديدا إلى ما جاء في محاضره. ويعد كتابه هذا ومحاضرته السابقة حجر الزاوية في العلم الحديد المسمى بـ "علم الجغرافيا السياسية" وهو مزيج من علمي الجغرافيا والسياسة.

وكان ماكندر في الثالثة والأربعين عندما ألقى محاضرته الشهيرة، وهو ابن أحد أطباء الريف، التحق بكلية ابسوم عام ١٨٧٤ ومنها إلى أكسفورد، وبعد حياة مدرسية ممتازة عين مدرسا متنقلا لعلم الجغرافيا لمدة سنتين في القسم الخارجي الملحق بجامعة أكسفورد، ثم صار محاضرا للعلم ذاته في الجامعة نفسها، حيث ذاع صيته وتتلمذ عليه الكثيرون للأساليب الفذة التي اتبعها في تدريسه.

وبفضل مطالبته وإلحاحه أقرت الجمعية الجغرافية الملكية اعتمادات مالية أسست بها عام ١٨٩٩ المدرسة البريطانية للجغرافيا في أكسفورد، وعين ماكندر مديرا لها. وفي تلك السنوات اشتهر برياضة تسلق الجمال وبخاصة عندما تسلق بجرأة جبل كينيا في شرق إفريقيا، وكلف بالإضافة إلى عمله في أكسفورد أن يلقي محاضرات في الجغرافيا الاقتصادية بجامعة لندن،

وهو مركز مهد أمامه السبيل ليكون مديرا لمدرسة لندن الاقتصادية بين علمي ١٩٠٣ و ١٩٠٨. ولما كان شديد الاهتمام بالساسة، انتخب عضوا في مجلس العموم البريطاني في عدة دورات بين عامي ١٩١٠ ، ١٩٢٢ وقضى أغلب حياته العامة في الدوائر العلمية، وأوقف جهوده بأجمعها على النهوض بالأبحاث العلمية لعلم الجغرافيا وخاصة من الناحية الإنسانية..

ففي محاضرته عن المركز الجغرافي في التاريخ – وهي المحاضرة التي تجاوبت بأصدائها أرجاء العالم – قدم ماكندر نظرية المناطق المغلقة لأول مرة، وهي فكرة نشرها بين الناس (وندل ولكي) بعد ذلك بأربعين عاما في كتابه (عالم واحد) وقرر ماكندر في نظريته أن "العصر الكولومبي" انتهى في أوائل القرن العشرين بعد أن امتد حوالي أربعة قرون في كشف جغرافي وتوسع استعمار قال: "إنه في فترة أربعمائة سنة تم تحديد الخريطة الجغرافية للعالم في شكلها الحالي بكل دقة حتى وصلت إلى حد الكمال أو تكاد".

وقد كرر الفكرة نفسها في كتابه (المثل العليا الديمقراطية والنظام الديمقراطي) قال: "استطعنا مؤخرا أن نبلغ القطب الشمالي، فوجدناه يقع في وسط بحر عميق، ووصلنا إلى القطب الجنوبي فوجدناه يتوسط هضبة عالية. وبهذين الاكتشافين ختم سجل المستكشفين، ولا يستطيع أي مغامر اليوم أن يحلم بثناء يحرزه في كشف بقعة مجهولة من الأرض، أو سلسلة من الجمال غير معروفة أو نهر من الأنهر العظمى. وفوق ذلك استولت الدول المستعمرة على جميع المناطق المستكشفة قبل أن يتمكن الجغرافيون من

إثبات رسمها على خريطة الدنيا، فقد سار الفاتح والمبشر والمزارع والمعدن ثم المهندس في أعقاب المستكشفين، وسرعان ما أصبحت أقصى بقاع الأرض من الممتلكات السياسية قبل أن يتنبه العالم إلى وجودها ولا تعرف اليوم أي صقع في قارات أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية وإفريقيا وأستراليا غير مملوك لدولة من الدول إلا إذا انتزعته دولة متحضرة من دولة غير متحضرة في حرب من الحروب.

وقد سبقه إلى فكرة المناطق المغلقة المؤرخ الأمريكي النابه (فردريك جاكسون تيرنر) عندما تكلم في القرن الثامن عشر في غير إسهاب عن زوال الحدود ودلالته في تاريخ أمريكا، ولكن ماكندر جاء فقرر أن حدود السياسة قد زالت ولم يبق لها وجود. قال في وصف نتائج نظريته في الحدود وأنه من الآن فصاعدا، أي بعد انقضاء العصر الكولومبي الماضي، تواجهنا حلقة سياسية مفرغة تشمل العالم بأسره. فإذا حدثت هزة اجتماعية عنيفة في بقعة ما نجد أن أصداءها، بدلا من أن تستنفد قوتها هباء في محيطها المحدود، ستجوب بها جميع أرجاء المعمورة، وسوف تتصدع بسببها العناصر الضعيفة سياسيا واقتصاديا في البنيان العالمي، فكل رجة أو كارثة أو ضيق يحدث في جانب من العالم سيشعر بهزاتها أقصى جوانبه، وقد ترتد هذه الهزة ثانية بعد دورتها إلى مركزها الأصلي، وهكذا شأن كل عمل إنساني سوف يتسع أثره حتى يعم العالم بأسره"

يرى ماكندر أن عصرنا الذي يتميز بالمناطق المغلقة سياسيا، وبالتقدم والسرعة في طرق المواصلات برا وجوا هو نهاية عصر التفوق والسيادة

البحرية. فإذا ثبتت صحة ذلك الرأي فإن عصر الجيوش البرية يكون قد بدأ بالظهور فعلا، ولكن أين يوجد مركز القوة في هذا العصر؟. وأجاب ماكندر على ذلك بقوله أنه سيكون طبعا في وسط أضخم قطعة من اليابس في المعمورة، وبعبارة أخرى سيكون في منطقة (أوراسيا) وهي كلمة فسرها ماكندر بأنها (مركز الرحى في السياسة العالمية) وعرض أثناء محاضرته خمس خرائط جغرافية كوسائل للإيضاح كتب تحت إحداها: "الموطن الطبيعي للقوى البشرية"، وتبين منطقة المحور، وحدد ماكندر موقع هذا المحور بأنه يشمل شمال أوربا وآسيا وداخليتهما، ويمتد من القطب الشمالي ويتجه جنوبا إلى الصحاري الوسطى في آسيا، ثم يتجه غربا إلى البرزخ الواقع بين بحر البلطيق والبحر الأسود. وخلص من تحليله التاريخي الذي يشغل أغلب بحثه، إلى أن أوربا تعرضت عدة قرون لهجمات متواصلة شديدة شنتها عليها شعوب منطقة هذا المحور قال: لم تبن أوربا مقومات حضارتها إلا بسبب ضغط هجمات تلك الشعوب الهمجية، ولهذا أرجو أن تنظروا معي إلى أوربا والتاريخ الأوربي على إنهما ملحقان بآسيا والتاريخ الآسيوي، لأن الحضارة الأوربية في حقيقتها ما هي إلا وليد نضالها الطويل ضد غزوات شعوب آسيا. ومن المتناقضات التي تسترعي النظر في الخريطة السياسية لأوربا الحديثة تلك المساحة الشاسعة التي تشغلها روسيا وتقرب من نصف مساحة القارة الأوربية بالمقارنة لما تشغله جماعة قليلة من الدول الأوربية الغربية الأخرى من مساحات محدودة.

واستمر ماكندر في تتبع موجات المد والجزر في أوائل التاريخ الأوربي فكتب يقول: "لقد ظلت أفواج من الفرسان المحاربين تندفع من الفجوة

الواسعة التي بين جبال أورال وبحر قزوين في أسيا وتتدفق على سهول روسيا الجنوبية وبلاد المجر متغلغلة في سويداء القارة الأوربية، فتشكل تاريخ تلك الشعوب الأوربية وشيجة للوقوف في وجه هؤلاء الغزاة، وهي شعوب الروس والألمان والفرنسيين والإيطاليين والروم البيزنطيين.

وفي رأيه أن غزوات المغول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تركت أثرا باقيا لا يمحى، إذ اجتاحت أواسط أوربا وروسيا وإيران والهند والصين. وقد خرجت جموع هؤلاء الغزاة من أصقاع دعاها ماكندر باسم (منطقة المحور) إذ أحس الناس الفانون على تخوم العالم القديم بشدة وطأة تلك القوى الهائلة السريعة الحركة المنطلقة من مناطق البراري.

واستطرد ماكندر في قصته حتى وصل بها إلى العصر الحديث؛ فرأى أن ضغط (منطقة المحور) يتزايد في الشئون العالمية بازدياد نموها اقتصاديا وحربيا. وإذا ما نظر إليها من الوجهة التاريخية رأى ما يؤيد رأيه في وجود علاقة جغرافية مستمرة.. قال:

أليست تلك المنطقة التي يدور حولها محور السياسة العالمية هي البقاع المترامية الأطراف التي تمتد بين أوربا وآسيا، والتي لا تزال إلى اليوم بعيدة عن متناول الأساطيل الحربية والتجارية، بينما كانت تسيطر عليها في الماضي جيوش الفرسان وهي ذاتها التي تغطيها في عصرنا شبكة من الطرق الحديدية؟.. لقد كان لها من الإمكانيات الاقتصادية والحربية ما يجعلها قوة هائلة داخل حدودها. فروسيا في يومنا حلت محل الإمبراطورية المغولية،

وهي أشبه بها من حيث ضغطها على حدود جيرانها مثل فنلندة واسكندناوه وبولندة وتركيا وإيران والهند والصين، وتقوم بنفس الدور الذي قامت به في الماضي القبائل الحرية في غزواتها المنطلقة من مركز البراري الوسطى، وهي تحتل من خريطة العالم مركزا حربيا وسطا مثل المركز الذي يحتله الألمان في أوربا فتستطيع منه أن توجه الضربات إلى أعدائها من أي نقطة على محيطها، وبالمثل تلقى بدورها ضربات أعدائها على طول حدودها.

"أما خارج نطاق المحور فيرسم ماكندر هلالين متداخلين. ويضم القطاع الداخلي منهما ألمانيا والنمسا والهند والصين، بينما يضم الخارجي بريطانيا وإفريقيا الجنوبية وأستراليا والولايات المتحدة وكندا واليابان. وبين ماكندر أن قوة نطاق المحور لا تعادل قوة الولايات المحيطة به غير أنه استدرك على ذلك استدراكا كشف عن أكبر مخاوفه قائلا: إلا إذا حدث أن تحالفت ألمانيا مع روسيا، وفي هذه الحالة يصبح في استطاعة نطاق المحور أن يمتد ويبتلع البلدان التي عند أطراف (أوراسيا)، ويستغل جميع موارد القارة بأجمعها في بناء أسطول جبار ويصير قيام الأدلة العالمية على وشك الظهور"

واختتم ماكندر خطابه الشهير بالتنبيه إلى أنه يتكلم بصفته من الجغرافيين.. قال:

"إن التوازن الدولي في أي عصر من العصور يتوقف طبعا على عاملين أولهما الظروف الجغرافية بما تنطوي عليه من اقتصاديات ومراكز حربية مهمة، والآخر على الشعوب المتنافسة ذاتها بما تتميز به من الكثرة العددية وقوة الحيوية وحسن الاستعداد ودقة التنظيم وفي رأيه أن الأرقام الجغرافية أصدق قياسا وأثبت حالة من أي قياس يضعه الإنسان، ولو أن أمة أخرى تحتل نطاق المحور غير الأمة الروسية لما تغير مركز المحور في شيء، وأضاف ماكندر: ولو أن أمة مثل الأمة الصينية، أعدها ونظمها اليابانيون ووجهوها، فاستولت على أراضي الدولة الروسية لواجه العالم الخطر الأصفر لأن الشعب الصيني سيضيف إلى جانب موارد القارة الآسيوية سواحله الطويلة المطلة على المحيط وهذه ميزة عظمى لا يملكها الشعب الروسي الذي يحتل نطاق المحور فعلا.

كتب ماكندر في أعقاب الحرب العالمية الأولى فقال أنه يرى "أن الحرب العالمية قد أثبتت صحة نظريته ولم تنقص منها حرفا" وفي كتابه (المثل العليا الديمقراطية والواقع) تكلم بتوسع عن (منطقة المحور) ووصفها بأنها تحتل مكان القلب من وسط جزيرة العالم.

ورأى ماكندر أن أوربا وآسيا وإفريقيا ليست ثلاث قارات منفصلة وإنما هي قارة واحدة وهي التي سماها جزيرة العالم ، لأن فكرة الإنسان عن العالم في الماضي كان يسيطر عليها البحر، فاعتبر أن هذه الكتلة لا تشبه الجزيرة لأنه لم يستطع أحد أن يدور حولها من البحر لأن رقعة شاسعة من الجليد تمتد ألفي ميل فوق المحيط القطبي وتستند حافتها إلى اليابسة في

شمال قارة آسيا، ولهذا فالقارة ليست جزيرة في عرف الملاحين. فإذا استثنينا هذه الحقيقة ومساحتها الشاسعة نجد أنها في الواقع لا تختلف عن خصائص الجزائر الأخرى. وأما جزيرة العالم فتفوق ما عداها من مناطق الدنيا مساحة وسكانا إذ تبلغ مساحتها ثلثي مساحة المعمورة، والثلث الآخر تختص به الأمريكتان وأستراليا وبقية المناطق الأخرى. وأما بالنسبة للسكان تضم ٨/٧ من سكان العالم والثمن الباقي نصب الشعوب الأخرى. وبذلك يكون العالم القديم هو "أعظم وحدة جغرافية على الكرة الأرضية".

وعاد يصف أجزاء تلك الجزيرة ونسبتها للعالم.. قال:

"إنها تبدو على الكرة الأرضية كأنها الحمل على عاتق القطب الشمالي؛ فإذا قيست الجزيرة من القطب إلى القطب على امتداد خط الطول الذي يشطرها ويصل بينها نجد هذا الخط يخترق ألف ميل من المياه المتجمدة في الشمال حتى شواطئ سيبيريا، ثم خمسة آلاف ميل من اليابسة حتى الجزء الجنوبي للهند، ثم سبعة آلاف ميل من الماء حتى ينتهي إلى أرض القطب الجنوبي المكسوة بالثلوج، فإذا قسناها من خط الطول الذي يخترق خليج بنغالة أو المحيط العربي لما تعدى طولها أكثر من ٣٥٠٠ ميلا، بينما نجد المسافة بين باريس وفلادفوستوك ستة آلاف ميلا، ومن باريس إلى رأس الرجاء الصالح ما يقرب من ذلك الرقم.

وإذا قورنت الأمريكتان وأستراليا بهذه القارة العظمى (أو جزيرة العالم)، لوجدنا أنها أصغر منها مساحة، ولكن هناك فرق أعظم وهو أن مواردهما البشرية ومواردهما الطبيعية أقل بكثير منها، وتساءل ماكندر "ترى ماذا يحيق بالعالم إذا توحدت يوما ما تلك الجزيرة أو جزء عظيم منها وأصبحت قاعدة موحدة لأسطول حربي؟. ألا يحدث أن جميع القواعد الحالية تتضاءل بالنسبة لها في عدد السفن كما تتضاءل في عدد رجالها البحريين؟ ورغم هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى إلا أن احتمال اتحاد جزء عظيم من القارة العلمي تحت سلطان واحد وتكوين قوة بحرية عظمى لا تقهر ترتكز إلى قواعدها، من الأمور الممكنة".

وحذر ماكندر سامعيه بقوله: "لو أن ألمانيا انتصرت في الحرب لأسست أسطولا بحريا يرتكز إلى قواعد بحرية حصينة لم يسبق لها مثيل في التاريخ تنشئها على أوسع نطاق ممكن".

وما سماه ماكندر (بقلب جزيرة العالم)، لا يختلف في حدوده عما سماه (بالنطاق المحوري) فهو يشمل أواسط أوربا وآسيا البعيدة عن متناول نيران الأسطول، بما فيها بحر البلطيق والأجزاء الصالحة للملاحة من أواسط نهر الدانوب إلى مصبه والبحر الأسود وآسيا الصغرى وأرمينيا وإيران والتبت ومنغوليا، كما نجد في داخل قلب الجزيرة ،كذلك بروسيا والنمسا والمجر وروسيا، وبهذا يكون للمحور ثلاث قواعد قوية لموارد القوى البشرية. وقد ضم ماكندر بحر البلطيق والبحر الأسود إلى منطقة المحور، لأنه ظهر على ضوء تجارب الحرب العالمية الأولى، أنه من المستحيل لأي أسطول مهاجم

أن يصل أو يسيطر على هاتين المنطقتين. واستطرد في التعريف عن قلب الجزيرة فأضاف: "أن جميع أرجاء هذه المنطقة تشترك في ظاهرة طبيعية واحدة تربطها ببعضها البعض، إذ تغطيها الثلوج الكثيفة في وقت الشتاء إلى جبال إيران المطلة على حوض العراق الشديد الحرارة، فلو رصدت من سطح القمر فرضا، لأدرك الرائي امتدادها العظيم وترامي أطرافها تحت تلك الدروع الهائلة من الثلوج"

ويعتقد ماكندر أن هذه البقعة هي مفتاح "جزيرة العالم" إذ تمتد طولا من الهمالايا حتى القطب المتجمد الشمالي، وتمتد عرضا من نهر الفلجا إلى البانجتسي، ويبلغ طولها إلى الشمال ٢٥٠٠ ميلا، ومن الشرق إلى الغرب قرابة ذلك، وهي بمنأى يستحيل على الأساطيل الوصول إليها، فلو أن عناية بذلت لتنميتها اقتصاديا وتنظيمها حربيا لأصبحت تلك البقعة محور القوة العالمية وموطنها.

لقد أوجز ماكندر كل نظريته في القياس الآتي:

أن من يملك شرق أوربا يهيمن على قلب القارة الكبرى .

أن من يملك قلب القارة يهيمن على القارة الكبرى (جزيرة العالم)

أن من يملك جزيرة العالم يملك الدنيا.

واقترح ماكندر على ضوء تجارب الحرب العالمية الأولى، كي لا تتحكم دولة بمفردها، وخاصة روسيا أو ألمانيا في قلب القارة العظمى،

إنشاء نطاق من الأمم يقف بينها وبين ذلك الغرض من البلطيق إلى البحر الأسود، واقترح أن يضم النطاق دولا مستقلة مثل أستونيا ولتوانيا وبولندة وبوهيميا والمجر وصربيا الكبرى ورومانيا وبلغاريا واليونان. وهي قائمة لا تختلف إلا اختلافا بسيطا عما قرره مؤتمر الصلح في باريس. وقد أظهرت الحوادث خطأ حسابه، فإن ذلك النطاق الحاجز لم يؤد الغرض منه إذ اخترقته ألمانيا أولا ثم اخترقته روسيا ثانيا؛ ففي عام **١٩٤٣** إبان الحرب العالمية الثانية، أي قبل وفاة ماكندر بأربعة أعوام، أعاد نظره للمرة الثالثة على نظرية (الهارتلند) ودافع عنها في مقال صحفي عنوانه "الكرة الأرضية واستتباب السلام" إذ يقول: "إنها اليوم أكثر رسوخا وأصلح تطبيقا منها منذ عشرين أو أربعين عاما مضت". وقدر بأنه لو انتصر الاتحاد السوفييتي على ألمانيا في الحرب العظمى الثانية لخرجت روسيا منها أعظم دولة برية في العالم، وستكون في أعظم مراكز الأرض منعة لأن (الهارتلند) وهي أمنع حصن طبيعي في العالم، قد احتشدت فيها جيوش ذات كفاية عظيمة من حيث العدد والعدة لأول مرة في التاريخ.

وتلقف النازيون الألمان نظريات ماكندر واعتنقوها، فأخذها أحد علماء الجغرافيا السياسية الألمان المسمى (كارل هاوسهوفر) وشرحها شرحا وافيا حتى أصبحت فكرة (الهارتلند) فكرة مسيطرة على العقلية الألمانية من **١٩٢٥ – ١٩٤٥** وانتهز (هاوسهوفر) هذا منذ **١٩٠٨** عندما أرسل إلى اليابان، كمراقب حربي تابع لهيئة أركان حرب الجيش الألماني، وأصبح من ذلك الوقت خبيرا بشئون الشرق الأقصى. وأظهر في تعلم اللغات الأجنبية مقدرة فائقة فاستطاع أن يتعلم الصينية واليابانية

والكورية والروسية، وقام برحلات عديدة في الشرقين: الأوسط والأقصى، وجمع عنهما معلومات شخصية شتى، وارتقى في الحرب العالمية الأولى في رتب الجيش وأحيل إلى التقاعد وهو برتبة قائد عام. وعقب تسليم ألمانيا انصرف بقية حياته إلى الكتابة، واشتغل بتدريس الجغرافيا السياسية والتاريخ الحربي بجامعة (ميونيخ) وقد أخرج عدة مؤلفات ومقالات تدور كلها حول مبدأين أساسيين في النظام النازي، وهما الجغرافيا السياسية من ناحية عوامل تطور السياسة العالمية وأساليبها، والمبدأ الثاني عن (المجال الحيوي للشعب الألماني) وهو عبارة عن حاجة الشعب الألماني إلى التوسع والنمو حتى يستطيع أن يعيش.

ولا يعرف عن يقين متي عثر (هاوسهوفر) على كتاب ماكندر، ونحن نقدر أنه قرأه قبل العقد الثالث للقرن العشرين، فلقي فيه الأستاذ الذي يبغيه، واعترف له بذلك، إذ وصف محاضرة ماكندر التي ألقاها عام ١٩٠٤ "بأنها أعظم وثيقة جغرافية في العالم" وأنه "لم يظفر في حياته بأعظم من هذه الأوراق القليلة التي تعتبر إحدى ذخائر علم الجغرافيا السياسية" وكان ذلك عام ١٩٣٧.

وبعد ذلك بعامين بدأ ينادي بوجوب التحالف بين روسيا وألمانيا مستندا إلى المخاوف التي عبر عنها ماكندر إذا تحالفت هاتان الدولتان، وردد (هاوسهوفر) قول أوفيد "إنه من واجبنا أن نتعلم من أعدائنا" وقد حرص على نشر طريقة ماكندر عن (الهارتلند) في إحدى المجلات العلمية

أربع مرات على الأقل. واعترف صراحة أن آراءه الشخصية مبنية في أساسها على آراء ماكندر.

وكان (رودولف هيس) حلقة الوصل بين هاوسهوفر وهتلر، لأنه صديق الطرفين؛ ففي عام ١٩٢٣ بعد فشل حركة ثورة (البير هال) وبينما كان هتلر سجينا زاره هاوسهوفر. ولا جدال في أن هتلر تأثر بآراء هاوسهوفر بدليل ما ورد من نظرياته الجغرافية السياسة في كتاب (ماين كامبف، أو كفاحي). ولما استولى النازيون على السلطة عين هاوسهوفر مديرا المعهد الجغرافيا السياسية، فاستخدم طائفة كبيرة من المساعدين والموظفين لجمع معلومات عن الأحوال المعيشية والثقافية والجغرافية والحربية لعدد كبير من الشعوب، وبيانات جغرافية أخرى ذات أهمية بالغة من الناحية العسكرية.

ووقع هاوسهوفر فريسة لسحر آراء ماكندر إلى حد التهوس فاعتقد أنه من أوجب الواجبات على ألمانيا أن تسيطر على (الهارتلند) وتثبت أوراقه الرسمية أنه كان يعمل لتأليف كتلة من القارتين تمتد من الرين حتى نهر اليانجتسي، والعمل على تكوين محالفة ضخمة تضم ألمانيا واليابان والصين وروسيا والهند ضد الإمبراطورية البريطانية.

ومن العجيب أن تتأثر بآرائه هيئة أركان حرب الجيش وتؤيدها، ولما عقدت اتفاقية الصداقة بين النازيين وروسيا دلت بوادر الأحوال على أن نظرية هاوسهوفر وأحلامه على وشك التحقيق إلا أن حلمه لم يدم طويلا

فتبدد عندما ارتكب هتلر أكبر غلطاته في الحرب العالمية الثانية فأمر جيوشه بمهاجمة الاتحاد السوفييتي. وبعد انتهاء الحرب بقليل انتحر هاوسهوفر وزوجته في مسكنهما ببافاريا، وعلى أثر ذلك اتهم ماكندر معارضوه بأن آراءه كانت من عوامل بناء القوة الحربية النازية. فخطب عام ١٩٤٤ ينفي عنه هذه التهمة فقال:

"لقد بلغتني إشاعة أني أوحيت إلى هاوسهوفر الذي أوحى إلى هيس، وهذا أوحى بدوره إلى هتلر عندما كان هذا على كتابه، بآراء في الجغرافيا السياسية قال عنها أنها آرائي. وكما ترون أن هذه سلسلة من ثلاث حلقات لا أدري عن الثانية والثالثة شيئا ما. وأعرف عن الحلقة الأولى أن كل ما اقتبسه (هاوسهوفر) في كتاباته كان مستمدة من محاضرة ألقيتها في الجمعية الجغرافية الملكية منذ ٤٠ عاما قبل أن يخرج الحزب النازي إلى النور.

ولم تقتصر نظريات مذاهب الجغرافيا السياسية على الانتشار في ألمانيا وحدها بالطبع، إذ أن روسيا هي الأخرى تأثرت بها تأثرا كبيرا أدى إلى تأسيس معهد الجغرافيا السياسية والعلوم الاقتصادية والسياسة العالمية في موسكو. وكان أكبر شاغل للمعهد هو الصراع القائم بين الولايات المتحدة و"جزيرة العالم" تلك الجزيرة التي يحلم الاتحاد السوفييتي بالسيطرة عليها.

كتب ماكندر عام ١٩١٩ عن روسيا عندما كان النظام الشيوعي في طفولته يقول: "أن الفهد لا يستطيع أن يغير النقط التي في فرائه" إذ أن السياسة الاستبدادية التي تسود شرق أوربا والهارتلند لن تتغير سواء أكانت ملكية أو بلشفية. وهي سياسة تتعارض مع نوع المبادئ التي يسير عليها الحكمان البريطاني والأمريكي على السواء، وتناقض كذلك مبادئ جمعية الأمة عامة.

قد تكون السياسة الاستبدادية التي تصطنعها روسيا مجرد رد فعل على استبدادية قياصرتها السابقين. ومع ذلك فمن الحق أن نقول أن سهوب روسيا وبروسيا والمجر التي تغلب عليها وحدة عامة في أحوالها الاجتماعية لا تزال صالحة كل الصلاح لتقدم الروح العسكرية والدعاية الشيوعية معا.

وقد تعرضت أراء ماكندر الجغرافية للنقد، فانكشفت نواحي الضعف فيها. وأبرز نقاط الضعف هذه تقصير ماكندر عن إدراك خطر القوة الجوية وإمكانياتها البالغة؛ فقد كتب بعد ذلك يعترف بأن ظهور الأسلحة الجوية جعلت من الكرة الأرضية عالما واحدا، ومع هذا أضاف أن ظهور تلك القوة لم يضعف من نظريته عن "الهارتلاند – جزيرة العالم"، وقد أجمع النقاد على أن القوة الجوية أصبحت سلاحا هائلا فعالا بحيث تتلاشى أمامه فكرة (الهارتلاند) وكل ما قيل عن منعتها الحربية، فالخطوط الجوية تعبر المحيطات والقارات في جميع الاتجاهات دون عائق. وقد عبر أحد الكتاب (هرك) عن ذلك أصدق تعبير عندما كتب يقول: (الجو

يغلف الكرة الأرضية بأجمعها، فهو طريق عام للطائرات بين قواعدها المترامية تخترقه دون عائق فوق اليابس والماء على السواء، ولا يمكن أن يقف في وجه القوة الجوية إلا قوة جوية مماثلة، وهي لا تعرف شيئا عن (الهارتلاند) المزعوم ولا تعترف بأنه من المناطق المحظورة عليها.

ولعل المعادلة الإستراتيجية في اليوم:

أن من يملك أسطولا جويا قويا يتحكم في القواعد الحربية.

ومن يتحكم في القواعد الحربية يسيطر على الجو.

ومن يسيطر على الجو يسد العالم .

وهذه الفكرة تؤيدها نظرة إلى نموذج الكرة الأرضية حيث نجد أن أمريكا الشمالية ومنطقة الهارتلاند متقاربتان. قال (ويجارت): "إذا اعتبرنا هذه المسافة من وجهة المواصلات الحديثة وجدنا أن سعة رقعتها وصعوبة الوصول إليها أن يقفا حائلا بيننا وبينها، فهي اليوم لا يحجبها عن أنظارنا سور منيع يعزلها عن العالم. وقد استطاع الطيران الطويل المدى في عصرنا، أن يفتح المناطق القطبية في نصف القرن الماضي بعد أن أدلى ماكندر بتحذيراته المشئومة. هذا إلى أن سعة هذه البقعة (الهارتلاند) وترامي أطرافها من عوامل الضعف في الدفاع عن حدودها، فامتداد أرض روسيا السوفيتية وطول حدودها تجعلانها عرضة لهجمات السلاح الجوي وتجعل الدفاع عنها مشكلة من أعقد المشاكل فهي في وضعها كما قال ما كندر

"تستطيع أن تضرب أعداءها من كل جانب كما تتلقى بدورها الضربات على كل جانب".

ومن الأمور التي عمي عن إدراكها ماكندر عدم تقديره للقوة العظيمة والمكانة الممتازة للقارة الأمريكية بقسميها، رغم أنه رأى، رأي العين، قوة أمريكا وعظم نشاطها في الحرب العالمية الأولى، لأنه ركب رأسه واعتبر أن الدنيا الجديدة ما هي إلا تابع متواضع على هامش الدنيا القديمة

ورغم ما في تنبؤاته من هفوات وسقطات، إلا أن الحجج التي دعم بها آراءه حجج لها قيمتها ووزنها، بدليل أن الروسيا حكمت الهارتلاند بيد من حديد، وبفضل تنمية مواردها الزراعية والصناعية واستغلال ثروتها المعدنية ومد الطرق الحديدية وتأسيس المطارات العظيمة تحولت إلى حصن من أمنع حصون العالم، إلا أننا من ناحية أخرى نجد أن تلك البقعة، رغم توالي مشروعات الخمس السنوات، لم تبلغ بعد القوة الإنتاجية الهائلة التي بلغتها الولايات المتحدة. ومع أن (الهارتلاند) في حوزة روسيا السوفيتية، فإنها لا تزال بعيدة كل البعد عن تحقيق هدفها في فرض سيادتها على جزيرة العالم، فما بالك بالسيادة العالمية.

وقد أظهر النقاد مواضع الضعف في بعض التفاصيل التي وردت في آراء ماكندر، إلا أنهم لم يقضوا على الأسس الرئيسية في نظريته.. قال (جون وينانت) في ذلك: "إننا سنذكر ماكندر دائما لأنه أول من زودنا بفكرة عالمية عن العالم وشئونه"، وقال ماكندر أنه لا يتصور إنسان منطقة

جغرافية تامة التكوين مثل الكرة الأرضية بأكملها، ولا مراء في أنه كان السبب في إقناع العالم منذ ١٨٨٩ بأن مهمة العلماء في الجغرافيا السياسية هي ذروة ما يصل إليه علم الجغرافيا، وكان همه الأول أن ينبه بني وطنه والشعوب الديمقراطية الأخرى إلى أن الحقائق الجغرافية ذات أهمية أساسية في تقدم السكان والدول.

وكان ماكندر يعتقد أنه ما لم تدرك الدول الديمقراطية أهمية تلك الحقائق الجغرافية تمام الإدراك فسيظل الخطر محدقا بها وبالديمقراطية. إن علم الجغرافيا الحديث قام بفضل آراء ونظريات ماكندر عن العالم وأقاليمه.

دراسة في جنون العظمة:

١٠ـ كفاحي

أدولف هتلر

في آخر أيام ابريل عام ١٩٤٥، كانت النار الجنائزية تلتهم بقايا هتلر وإيفا براون في مخبأ عميق في جوف الأرض تحت دار المستشارية في برلين. وما أحرى أن تكون تلك النهاية المحزنة ذروة لأحداث مسرحية موسيقية يبدعها خيال فاجنر وهو أحب الموسيقيين إلى قلب هتلر، على غرار مأساته (غروب الآلهة) وكانت تلك الخاتمة المريعة إيذانا بانسدال الستار الختامي على تمثيلية صاخبة بدأت فصولها منذ أن اتخذ (الفوهرر) المقبل طريقه للاستيلاء على الحكم في ألمانيا.

وعندما استولى الحزب النازي بزعامة هتلر على السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد نضال اتسم بالعنف والاضطراب عشرة أعوام، عمت الدنيا موجة من الهلع للأعمال المخيفة التي اقترفها النظام الجديد، فقد ارتكب كل قسوة في سبيل فرض سلطانه؛ فأزيلت مظاهر الحكم الديمقراطي بأجمعها، كما قمعت المعارضة قمعا لا رحمة فيه ولا هوادة، واضطهدت

الكنائس والجماعات الدينية ونقابات العمال أو أرغمت على الانصياع للمبادئ الجديدة، وقتل اليهود بالمئات وهددت

الدول المجاورة الصديقة باحتلال أراضيها، ووجهت ضدها موجات عنيفة من الدعاية.

ولو أن الشعوب غير الألمانية كلفت نفسها عناء قراءة كتاب ضخم يسمى (كفاحي) لوجدت في صفحاته برنامج تلك الحركة مسطرا حرفا بحرف، وكلمة بكلمة، في تفصيل رهيب. وقد احتمى صاحب الكتاب بالاتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلف فتمكن من أن يجعل كتابه مقصورا على اللغة الألمانية وحدها؛ وحتى لو فرضنا أن تسربت إلى الخارج إحدى نسخ الكتاب وترجمت برمتها إلى الإنجليزية أو الفرنسية وغيرها من اللغات لما استطاع إنسان في تلك البلاد أن يأخذ ما جاء فيه مأخذ الجد، أو يصدق ذلك الحلم المريع الذي كان وليد مخيلة مريضة مخبولة، بسبب استحالة إدراكه لتشعب مطامعه ومراميه بدرجة تفوت حدود العقل. وقد دعا أحدهم كتاب (كفاحي) بأنه أعظم كتب الدعاية في العصر الحاضر قاطبة، ونعته أحد القضاة بأنه أشنع كتاب إجرامي في القرن العشرين، والعجيب أن تسخر أمة عظيمة نفسها هي وحلفاءها لتنفيذ كل فكرة جاءت في ذلك الكتاب، ويكفي أن يقال أن خمسة ملايين نسخة منه كانت قد وزعت في ألمانيا وحدها عند قيام الحرب العالمية الثانية.

قضى هتلر شبابه في فيينا وهناك انطبعت في نفسه كل الصور والآراء التعصبية والكراهية التي ظلت تسيطر عليه بقية حياته، وقد أثبت كل ذلك في كتاب (كفاحي).

بدأ كتابه ببعض فصول لخص فيها حياته الأولى تلخيصا سريعا ولكن له معناه، كتب يقول بأنه ولد في بلدة (براوناو) في النمسا، وإذ تقع على ضفة نهر مواجه للحدود الألمانية، اعتبر نفسه ألمانيا لا نمساويا. وكان يحتقر أهل فيينا خاصة. وقد تحمل في تلك السنوات الأولى ألوانا من الحرمان والاضطهاد واليأس فانقطع عن المدرسة وهو في سن الثالثة عشرة، وفقد والديه حوالي ذلك التاريخ . وحاول في فيينا أن يرتزق كفنان ولكنه فشل ثم حاول أن يشتغل معماريا فلم ينجح لقصور مواهبه ونقص تعليمه.

ولكن الفترة التي قضاها في فيينا لم تكن عبثا، إذ زاد اطلاعه وشغفه بالقراءة وخاصة في كتب التاريخ، وكان أعظم ما تأثر به كتاب عن الحرب البروسية الفرنسية، خرج منه بأن الألمان هم شعب الله المختار في هذا العالم. وفي الوقت ذاته انطوت نفسه على مقت طائفة اليهود وكراهيتهم، واحتقار الصقالبة وجميع العناصر غير الآرية. وقال عن اليهود أنهم عبيد للمال، ذوو عقلية دولية ينحازون آنا للاشتراكية وآنا للشيوعية؛ وأما السلاف فجنس وضيع في نظره لا يتميز بثقافة خاصة به.

وكان اتصال هتلر أثناء إقامته في فيينا بالحزب الديمقراطي الاشتراكي سببا في مقته الشديد للاشتراكية والشيوعية وأساليب دعايتها رغم أنه أتقن

تلك الأساليب فيما بعد وتفنن فيها، إلا أن كراهيته للماركسية ظلت تلازمه طيلة حياته. ورغم ما زعمه بأنه يحب الاطلاع والشغف بالقراءة، فليس ثمة دليل على انه فتح كتاب "رأس المال" وقرأ منه شيئا، ولم يكن مقته للديمقراطية ونظمها بأقل من مقته للماركسية، وقد نشأ مقته لها من استماعه للمناقشات في مجلس النواب النمساوي، وما رآه وسمعه هناك من هراء الكلام وضعف التفكير.

ولما ضاق به المقام في جو فيينا الخانق، شد الرحال إلى مدينة ميونخ عام ١٩١٢ وكان يقول عنها أنها المثل الأعلى للمدينة الألمانية الصميمة، ولم ينقض عامان على مقامه بها حتى شن الحرب العالمية الأولى فتيمن بها وتهلل، وتطوع جنديا في صفوف الفرقة البافارية، فجرح في الحرب وأصيب بالغاز الخانق وقلد وسامين ثم رقي إلى رتبة جاويش، وأوجعته هزيمة ألمانيا وأثارت الضغينة في قلبه لأنه اعتقد أن تلك الهزيمة لم يجرها على ألمانيا سوى اليهود والماركسيين وأنصار السلام. وكان أشد ما أثار غضبه وحفيظته قيام حكومة ديمقراطية جمهورية في ألمانيا مما حفزه على الاشتغال بالسياسة وخوض غمارها.

ولما عاد هتلر إلى ميونخ دخل الميدان السياسي مباشرة، واشتغل في بادئ الأمر مراسلا حربيا في الجيش، وعندما عرضت عليه العضوية في جماعة سياسية صغيرة تسمى حزب العمال الألماني قبلها، وهو الحزب الذي عدل اسمه فيما بعد إلى الحزب القومي الاشتراكي الألماني للألمان، ثم صار النواة الأولى للحزب النازي. ولم تنقض على ذلك مدة طويلة حتى

استطاع هتلر بمناوراته وحيله داخل الحزب أن يقبض بيد من حديد على إدارة تلك المنظمة، فألغى نظام أخذ الرأي بها بأغلبية الأصوات لأنه نظام سخيف، ثم رسم برنامج الحزب على أساس ضم طبقات العمال إليه، ثم القضاء على الخونة الدوليين، ثم إلغاء المجالس النيابية الشيوعية، ثم فرض مبدأ الطاعة العمياء لأوامر زعيم واحد هو الفوهرر.

وما أن حل عام ١٩٢٣ حتى قام هتلر على رأس ٢٧ ألفا من أعضاء الحزب يناصرهم جماعة من ضباط الجيش وعلى رأسهم الجنرال لودندورف في الفترة التي كانت حكومة شرزمان توشك على السقوط، فوقر في ذهنه أن الفرصة ملائمة للاستيلاء على السلطة، وكلف أتباعه القيام بالخطة المعروفة بحركة قاعدة البيرة بميونخ، فباءت مظاهرته بالفشل الذريع، وقمعت وقتل في الشوارع ستة عشر من أتباعه، وقبض على هتلر وحكم عليه بالسجن خمس سنوات خفضت إلى سنة واحدة.

وفي المدة التي قضاها في السجن بقلعة لاندزبرج، فرغ هتلر إلى كتابة تاريخ حياته، والحقيقة أن الكتاب إملاء أكثر منه تأليفا إذ كان رودلف هيس أحد أنصاره المخلصين سجينا معه فأملى هتلر عليه الجزء الأول من كتابه على الآلة الكاتبة، وكان إهداء الكتاب إلى الشهداء الستة عشر الذين سقطوا في الميدان عام ١٩٢٣ في ميونخ. وكان عنوان الكتاب في الأصل "نضال أربع سنوات ونصف ضد الأكاذيب والغباء والجبن" وأما الجزء الثاني فكتب عام ١٩٢٩ في برختسجادن.

وصف أوتو تولسكس محتويات كتاب (كفاحي) بأن "عشرة في المائة منه ترجمة حياة المؤلف وتسعين في المائة تعاليم تحكمية، وهو في جملته دعاية مائة في المائة، وهو تحليل معقول. واليوم وقد بعدنا عن عهده، فإنا لا نكاد نصدق أن أمة راقية ذات ثقافة عالية تنصاع إلى تلك الآراء، وتستجيب قلبا وقالبا لمثل ذلك الكتاب الجاف الممل السقيم لغة وتركيا الملئ بالمتناقضات والتكرار، ولكن الظروف كانت مواتية وممهدة لقبوله، وقد ألقى الكاتب (لودفيج لور) ضوءا على تلك الملابسات فأوضحها قال:

كان الشعب الألماني عام ١٩٣٣ في حالة نفسانية قاسية جعلته عرضة للعدوى بجراثيم النازية. وقد حاول الشعب الألماني جهد طاقته أن يتلمس طريقا للعودة إلى الحياة الطبيعية والكرامة القومية، ولكنه وجد جميع السبل مسدودة في وجهه بسب عداوة المتعصبين عليه وبغض الذين أساءوا فهمه، فقد كان اهتمام الأمم المنتصرة إذ ذاك محصورا في مشكلة التعويضات، وكان العمال الألمان الذين كان من الممكن الاستعانة بهم منقسمين على أنفسهم شعبا وأحزابا متناحرة. حدث كل ذلك في أمة ظلت تعتز بقوميتها اعتزازا شديدا نحو قرن من الزمان، ووصلت الحال بالشعب الألماني إلى الإحساس بأن قرار النظام في الداخل والسلام في الخارج من الأمور الضرورية له أكثر من الحرية السياسية التي لم ير فيها غير المنازعات وإراقة الدماء. وأدرك هتلر بثاقب فكره كل هذه الظروف والملابسات فاستغلها في سبيل أغراضه إلى جانب ما يتمتع به شخصيا من مقدرة فائقة في التنظيم وأساليب الدعاية، وساعده على تنفيذها تأييد كبار

رجال الصناعة الألمانية لحركته ماليا. فلما استقرت السلطة في يده أصبح من اليسير إقامة الحكم النازي في ألمانيا لأن الخضوع للسلطة واحترامها الشديد متأصل في دم الشعب الألماني بأجمعه.

والنغمة الغالبة على كتاب (كفاحي) التي تتردد في كل صفحاته هي كلمات: الجنس، ونقاء الجنس، وسيادة الجنس، ومع هذا لم يحاول هتلر قط أن يقدم تعريفا لماهية الجنس هذا. وآخر ما فعله أنه زعم أن الجنس البشري ينقسم ثلاثة أقسام: فالأول يضم الأمم التي خلقت الحضارة وهي الأمم الشمالية أو الآرية وخاصة الشعب الألماني، والثاني يضم الأمم الناقلة للحضارة مثل اليابانيين، والثالث يضم الأمم الهدامة للحضارة مثل اليهود والزنوج. كما أكد هتلر أن طبيعة الأشياء لم تدخل في حسابها قط أن تجعل المساواة قانونا بين جميع الأجناس، كما لم تجعلها قانونا بين الأفراد. ولما كان الألمان هم أقوى أجناس الدنيا فلهم الحق كل الحق في التحكم في الأجناس الأقل منهم رقا من سكان الأرض. وهنا نقتبس بعض مقتطفات من أقوال هتلر لنوضح رأيه في الأجناس المنحطة قال مثلا عن الإمبراطورية النمساوية:

"لقد تولاني الاشمئزاز من تجمع تلك الأجناس المختلفة في العاصمة، ونفرت من رؤية ذلك الخليط من التشيك والبولنديين والهنغاريين وأهل روتينيا، والصرب، والكروات، ورؤية تلك الأصناف من اليهود، وهم حثالة البشرية هنا وهناك وفي كل مكان".

وقال عن الإفريقيين: "من الإجرام والجنون أن نعمل على تربية شخص نصف بين الإنسان والقرد حتى يتوهم أنه أصبح محاميا، بينما نرى الملايين من أفراد الشعوب العرقية المتمدينة يزاولون أعمالا حقيرة لا تليق بهم. إنها جريمة أمام الله إذا أهملنا مئات الآلاف من أفراد الشعوب المتحضرة العالية الثقافة تنحط عن مكانتها وتغوص في أوحال الطبقات العاملة، بينما ندرب الهوسوت والزولو والكافير على المهن الراقية.

وقال عن زعماء الوطنية الهنود: "لقد تحدثت إلى أفراد منهم، فوجدت فيهم ثرثرة خلابة وتنفجا لا يستندان إلى شيء من العلم". ثم جمع بين البولنديين والتشيك واليهود والسود والآسيويين في صعيد واحد ودمغهم بأنهم أجناس منحطة لا تستحق الجنسية الألمانية حتى ولو ولدوا في ألمانيا وتكلموا اللغة الألمانية.

وأما فرنسا فقد نالت حصتها من الازدراء.. قال:

"أما من ناحية الجنس، فلي أن أعتبر أن هذه الأمة تسير في طريقها لتصبح أمة زنجية، حتى ليقال أن دولة إفريقية سوداء في سبيل التأسيس على القارة الأوروبية، فالسياسة التي تتبعها فرنسا في مستعمراتها اليوم لا يمكن أن تقارن بالسياسة الاستعمارية الألمانية في الماضي، وإذا استمرت فرنسا على هذا المنوال لمدة ثلاثة قرون فإن الدم الفرنسي سوف تضيع أصوله ويختفي بقيام دولة أوروبية إفريقية خلاسية في أوروبا".

وفي تهجمه على اليهود يصل تعصبه إلى أقصى حدود العنصرية الجنونية كما يتبين من قوله: "إن العقلية اليهودية واضحة ظاهرة في كل ذلك، فهم يعملون على بلشفة ألمانيا والقضاء على جميع طبقات المفكرين المثقفين فيها حتى يخضعوا العامل الألماني المرهق بالعمل لهذا الرأسمالية اليهودية العالمية، وهذا إجراء تمهيدي لنشر سلطان اليهود على العالم. وأثبت التاريخ مرارا وتكرارا أن ألمانيا كانت دائما هي المحور الرئيسي في ذلك النزاع، فإذا حدث يوما أن سقطت الأمة الألمانية فريسة بين براثن هؤلاء اللئام الأشحاء الذين يعيشون على دماء البشر فسوف تورط أوروبا بالتبع في أحبولة ذلك الأخطبوط المتوحش.. وأما إذا نجحت ألمانيا في التخلص من حبائلهم كان ذلك القضاء عليهم وخلاص العالم من خطرهم. ولكن اليهود سوف يظلون يناضلون في داخل كل أمة بالوسائل التي تتفق وعقليتها حتى يصلوا إلى تحقيق أغراضهم. وفي ناحية الأمة الألمانية خاصة نجد أنهم استغلوا اختلاط أنسابها بسبب التزاوج من جنسيات أخرى فنشروا بينها روح التسامح الذي أضعفها ونادوا بمبادئ السلام. هذا إلى نشرهم التعاليم الدولية كوسيلة من الوسائل لإضعافها وتحقيقا لغايتهم من الاستيلاء على السلطة، فإذا انتهوا إلى القضاء على شخصية أمة تلو الأخرى أحالوها إلى أكوام من الفوضى والضعف، ويستطيعون بذلك أن يقيموا عليها سلطان الإمبراطورية اليهودية الخالدة في زعمهم".

ولكي يصان نقاء العنصر الآري الأصيل، وبعبارة أخرى عنصر الأمة الألمانية الأثيل، لا بد من منع خلط الأنساب بالتزاوج من العناصر المنحطة، فقد أكد هتلر أن اضمحلال الأمم العظمى الماضية نشأ دائما

من تلوث دمائهم بدماء من هم أقل منهم درجة ومن ضياع أصولهم العريقة النقية.. وواجب الحكومة أن تتدخل لتمنع هذه الكارثة من الاستفحال، وقد يعترض بعض ضعاف العزيمة والجبناء بيننا بأن هذا الإجراء فيه اعتداء صارخ على حقوقهم، فلا يجب أن تلقي الدولة لاعتراضهم بالا، بل يجب عليها أن تحرص على الاحتفاظ بدم الأمة نقيا طاهرا دون أن يلوث حتى تستطيع البشرية أن تصل إلى أرقى درجات النمو والتمدين.. كما يجدر بالدولة أن ترتفع بقدسية الزواج عن أن يتردى في هاوية الاختلاط الجنسي المشين فتجعل منه نظاما مقدسا يخرج من بني الإنسان ذرية تسمو إلى مرتبة الآلهة بدلا من أن تنحط به إلى ذرية مشوهة بين الإنسان والقردة.

وبلغ به التعصب لمبدأ تفوق العنصر الآري على العناصر الأخرى أن قال بأنه واجب وحق لهذا العنصر المتفوق من السادة أن يغزو ويستغل ويطرد أو يسود جميع الأجناس الأخرى تحقيقا لمصلحته. ولما كانت الأرض الألمانية تزدحم بسكانها وفي حاجة ملحة لمجال حيوي جديد أصبح من حقها الطبيعي – لأنها عنصر ممتاز على بقية العناصر – أن تستولي عنوة على أراضي السلاف وتخرجهم من ديارهم ليحل محلهم الألمان. وسوف ينتهي الأمر بأن تستفيد الإنسانية بأجمعها من اتساع رقعة العنصر الممتاز من الأرض، وتصبح الشعوب الألمانية المشتتة مجتمعة الشمل تعيش كلها في بقعة واحدة تحت سلطان واحد.. قال: "إنه لا مندوحة من رقعة عريضة من الأرض فسيحة الأرجاء لكل أمة تريد أن تعيش في حرية، وإن ألمانيا إما أن تصبح دولة عظمى في العالم وإما أن لا تكون هناك ألمانيا مطلقا".

وقدر هتلر أن التوسع الألماني – بحسب ما تصوره – يكون على حساب روسيا؛ وألقى على شرق أوربا نظرة الجائع المتلهف، ودار بخلده الأعمال التي يمكنه أن يحققها "إذا حدث أن استولت ألمانيا على منطقة الأورال بجمع ثروتها الهائلة من المواد الأولية وعلى أوكرانيا بحقولها الشاسعة الحصة وغلتها العظيمة من القمح. ثم أن واجب ألمانيا إنقاذ الشعب الروسي من حكم زعماء البلاشفة لأننا "إذا تحدثنا اليوم عن التوسع في أوربا فإننا نعني بذلك روسيا وأذنابها من الدول التي عند أطرافها، وقد وجهنا القدر ومهد لنا لتنفيذ تلك الخطة إذ أن ترك الشعب الروسي بين براثن البلشفية قضى على الطبقة الممتازة المستنيرة بها، تلك الطبقة التي خلقت منها دولة ذات كيان. إن تلك الدولة الماردة التي في الشرق قد آذنت بالسقوط والانهيار".

وقال هتلر أن القوة وحدها هي المبرر الأول للغزو والتوسع .....: "ما من أمة تملك أدنى قطعة من الأرض، تستطيع أن تدعي حيازتها بفضل تفوقها في قوة الإرادة أو بقوة الحق. ولما كانت حدود الممالك من وضع الإنسان فهو كذلك يستطيع تغيير معالمها.. وأما ما يقال عن حقوق أمة توسعت بالاستيلاء على أراض أكثر من حاجتها فقول مردود، إذ أن هذا العمل لا يربط أحدا بالاعتراف بحقوقها وحدودها إلى الأبد، لأن ذلك العمل – إن دل على شيء – فإنما يدل على قوة الغاصب وضعف الأمة المغلوبة، وفي هذه الحالة يتضح أن الحق الذي تدعيه لا يعدو أن يكون القوة الغشوم لا أكثر ولا أقل".

وأدرك هتلر أن ثمة حلولا أخرى غير حل التوسع لمواجهة سرعة ازدياد السكان في ألمانيا. فعالج الرأي القائل بتحديد النسل، ولكنه تحول عنه لأنه لا يتفق مع مقتضيات العنصرية الممتازة. وثمة حل آخر طرقه السياسيون في ألمانيا من قبله، وهو التوسع في الإنتاج الصناعي وفتح أسواق أجنبية، وتنشيط التصنيع القومي فرأى هتلر أنه رأى غير مقبول لأن هتلر يريد الاكتفاء الذاتي لألمانيا. هذا إلى ما سيترتب عليه من تكوين طبقة هائلة من العمال، وهو ما لا يقبله. والحل الثالث هو العمل على زيادة غلة الأرض الزراعية. ورد هتلر على ذلك بأنه حل جزئي مؤقت، وانتهى من مناقشة تلك الآراء إلى أن الرأي الأول هو ضم أراض جديدة إلى ألمانيا على حساب جيرانها حتى يستطيع الألمان الزائدون عن حاجة بلادهم العمل في الأرض والارتزاق منها.

ويمكن تلخيص كلامه المستفيض عن أهدافه في معالجة مشكلة السكان والأرض في قوله:

"إن عدد الألمان في أوربا اليوم يبلغ قرابة الثمانين مليونا من الأنفس، وستظهر الأيام القادمة صحة الأقوال التي أنادي بها اليوم في التوسع، فلن يمضي سوى قرن واحد حتى يبلغ تعداد الأمة الألمانية ٢٥٠ مليونا سوف يعملون لا كعمال حقيرين بين جدران المصانع، ولكنهم سيعيشون كمزارعين وفلاحين يرتزقون من الأرض رزقا حسنا بفضل كدهم وتعبهم.

وجملة القول أن هتلر تصور الشعب الألماني في مستقبل الأيام قد زاد عدده إلى ثلاثة أمثال ما هو عليه في عصره، يتمتع كل فرد منه بمساحة من الأرض ضعف ما يتمتع به في حاضره. وكانت فكرة انتشار السكان على مساحة واسعة من الأرض تجعل البلاد وأقل تعرضا للغزو من الخارج، ويتضح من حججه هذه تأثره بآراء ماكندر وهاوسهوفر!

ودبر هتلر للوصول إلى أغراضه العريضة، وأشاع مطامعه ثلاث وسائل: هي الدعاية والسياسة والقوة. وقد أفاض في شرح وسائله وحيله في نشر الدعاية، لاعتقاده بأن هذا السلاح من أمضى أسلحة النازية وأبعدها أثرا. كتب "ماكس لرنر" عن ذلك يقول: "إن هتلر من أكبر أساتذة الدعاية والتنظيم في التاريخ الحديث؛ ولو أردنا أن نجد له شبيها، لرجعنا إلى عهد الداعية (لويولا) وجماعة اليسوعيين في الماضي، ولجأ هتلر ليتمم علمه بأصول الدعاية إلى دراسة وسائلها الفنية عند الماركسيين، والكنيسة الكاثوليكية، والدعاية البريطانية في الحرب العالمية الأولى وأساليب الإعلان في أمريكا، وأصولها النفسية عند فرويد.. قال:

"إن وظيفة الدعاية تبعد بها عن الدخول في مقارنة أو تحليل لحق هذا الشعب أو ذاك إذ وظيفتها الرئيسية هي إبرز الحق الذي تطالب به دون غيره، وليس من واجبها البحث في الحق من حيث هو حق من وجهة نظر أعدائنا، ثم إذاعته على الناس في هذا الوضع العلمي؛ ولكن الواجب أن نصر على أن يسود حقنا وحده دون أن نحيد عنه.. فلم يكن من الصواب أن يقال أن ألمانيا ليست مسئولة عن جريمة إعلان الحرب، لأنه لا يمكن

اعتبارها المسئولة الوحيدة في نشوبها، بل كان الأصوب أن يلقي عبء التهمة والمسئولية على عاتق الأعداء بمفردهم، ولو كان ذلك مخالفا للحقيقة والواقع، وليس من وظائف الدعاية أن تشتغل بما يرفه عن المترفين والمدللين من الشباب، وإنما وظيفتها الرئيسية هي الإقناع، أي إقناع الجماهير".

ثم أعاد الكرة على وجوب تركيز الدعاية وتكرارها.. قال:

"إن استجابة الجماهير محدودة، وإدراكهم ضعيف، ولكن أبرز صفاتهم سرعة النسيان ولذلك كان ضروريا لكل دعاية ناجحة أن تحصر دعايتها في نقط قليلة تجعلها في أمثال قصيرة، حتى تسري على ألسنة الناس، ثم تظل تكررها حتى يفهمها ويدرك معناها أغبى خلق الله، وبمجرد العدول عن هذه الوسيلة رغبة منك في التوسع والإفاضة ضعف الأثر وانتهى، لأن الجمهور لن يستطيع أن يهضمها أو يتذكر من مادتها شيئا، ولا يكون للدعاية أي أثر".

وبلغ به إيمانه بقوة الدعاية حدا جعله يقول عنها: "إننا نستطيع بوسائل الدعاية الحاذقة المتلاحقة أن نجعل الناس يعتقدون بأن الجنة هي الجحيم وأن الجحيم هو الجنة"، ولكي تصل الدعاية إلى تمام قوتها يجب أن يكون هدفها إثارة مشاعر الجماهير دون إثقال بما يشق على أذهانها إلا بأيسر قدر حتى يتفهمها ذوو الأفهام السقيمة، وليس من شأنها تحري

الدقة العلمية.. والإعلان لا صلة له بالفن وكلما زاد عدد الذين تتناولهم الدعاية يجب أن ينزل مستواها الفكري وينحط إلى مستواهم".

ومن الحيل النفسية التي تفيد في الدعاية ما أوصى باتخاذه فمثلا لا يجب أن يحاول إنسان أن يؤثر على جمهور السامعين في وضح النهار وإنما يجب أن يحاول ذلك عندما يبدأ الظلام ويخفت النور وتكون الأجسام متعة بعد يوم عمل شاق يضعف من مقاومتها ويدحض من معارضتها وعندئذ فقط "يستسلمون استلاما تاما بكل حواسهم" في سهولة ويسر. وأشار إلى وسيلة فعالة أخرى لاجتذاب الجماهير هي أن يسر للعامة والغوغاء أن تنخرط في صفوف الاستعراضات والمظاهرات وهذا شيء تميز به النظام النازي قال هتلر:

"إن هذه المظاهرات والاستعراضات الحاشدة التي تضم مئات الألوف من الأفراد تحرك في نفس الفرد مهما كان ضئيلا حقيرا ذلك التحرق إلى الشعور بالكبرياء والاعتزاز بأنه على وضاعته وتفاهة شأنه جزء من وحش هائل مخيف ينفث النار واللهب وسوف تلتهم النيران يوما ما طبقة الأغنياء الكريهة وتحيلها رمادا ويكون ذلك اليوم عيدا للدكتاتورية العمالية تحتفل فيه بالنصر النهائى".

ويبدو احتقار هتلر للجماهير من عبارات متناثرة في كتابه، فهو يسميهم حينا بقطيع من الأغبياء وتارة بالغباء المجسم، لاعتقاده بأن الجنس

البشري ممثلا في الجماهير يتصف بالخمول والجبن والضعف والانفعال والعجز التام عن التفكير المنطقي.

وثالثة الأثافي في فن الدعاية الهتلرية هي تبرير ما سماه "الكذبة الكبرى" قال:

"إنه كلما كانت الكذبة كبيرة سارع الناس إلى تصديقها إذ أن السذاجة البدائية في الجماهير تجعل تأثرهم بالأكذوبة الكبيرة أكبر من تأثرهم بالصغيرة لأنهم يبيحون لأنفسهم الكذب في الأمور التافهة ولكنهم يخجلون من اختراع كذبة كبرى، ومن هنا لن يتطرق الشك إليهم بأنها كذبة فادحة ولن يخطر ببال أحد أن تبلغ الجرأة والقحة بإنسان أن يشوه الحقائق ويقلبها رأسا على عقب بتلك الدرجة".

وثمة وسيلة أخرى مهمة للدعاية هي ما أسماه "الشيطان الواحد"، أن لا يحسن أن تريك عقول الجماهير بتوجيه الدعاية إلى كراهية عدة أعداء معا، ولكن احصر مجهودك في التعريض بخصم واحد حتى يركز الجمهور بؤرة كرهه عليه. وطبق ذلك هتلر على اليهود طبعا، فجعلهم كبش الضحية وسواء أكان يهدر باللعنات على الديمقراطية أو الماركسية أو معاهدة فرساي أو فرنسا أو أي أمر آخر فلليهود في كلها أوفى نصيب، فهم دائمون على التآمر الشيطاني الخبيث يعملون في ذكاء وخبث على هدم ألمانيا والقضاء على الثقافة الآرية ونحن نورد هنا مثالاً من مهاراته الهستيرية قال:

"إن فرنسا كانت ومازالت ألد أعدائنا. إن هذا الشعب الذي يسير شيئا فشيئا إلى الانحطاط العنصري لاختلاط دمه بالجنس الأسود يتمثل فيه أكبر خطر دائم على الجنس الأبيض في أوربا بسبب تأييدهم لغايات اليهود في طموحهم إلى السيادة العالمية. لقد عملت هذه العدوة التاريخية لشعبنا على تلويث دم سكان الرين بدماء السود في قلب القارة الأوربية، وهو عمل إجرامي يتمشى مع ما جبلت عليه هذه الأمة من التعطش الوحشي السادي المنحرف للأخذ بالثار والانتقام، وهي في ذلك لا تقل إجراما عن أولئك اليهود اللؤماء ذوي المزاج الإجرامي الهادئ فقد دأبت فرنسا على تلويث دماء شعوب قلب أوربا لتحرم الجنس الأبيض من إقامة كيانه وسيادته بسبب تلقحه بأخس العناصر البشرية.

وأشار هتلر إلى أن مهمة أصحاب الدعاية يسرها تولي الدولة شئون التعليم، وفي رأيه أن التعليم بالكتب من أكبر الأغلاط، إذ يجب أن تكون التربية الرياضية والصحية هما الهدف الأول والرئيسي في التعليم، ثم يأتي في المرتبة الثانية العناية بالتربية الخلقية وخاصة الخصال العسكرية كالطاعة والإخلاص وقوة الإرادة وضبط النفس والاستعداد للتضحية والاعتزاز بالمسئولية. وثالث الأهداف وآخرها: التربية العقلية. أما الفتيات فيجب أن تقتصر تربيتهن على أن يكن ربات لبيوتهن؛ ولم يستسغ فكرة التعليم العام إذ وصفه بأنه سم زعاف استنبطته الديمقراطيات وسيكون فيه القضاء عليها، وإن كل طبقة وكل قسم من أقسامها يصلح لها نوع خاص من التعليم، وأما جمهور العامة فالأمة أنفع لهم وأصلح، وهؤلاء يجب أن تقصر تربيتهم على تلقينهم بعض الآراء العامة التي يستظهرونها بالتكرار حتى

تعلق بأذهانهم، والفكرة التي يهتدي بها دائما هي أن الأطفال ملك للدولة وحدها، والغرض الرئيسي هو تنشئة شباب يكون أداة طيعة في يدها.

وآراء هتلر في تربية الشعب تتسق مع آرائه عن الديمقراطية ولم تفته أي مناسبة لتوجيه استهزائه بالأنظمة الديمقراطية قال:

"إن الديمقراطية الغربية في عصرنا كانت الطليعة والمقدمة للماركسية، ولولا ذلك لما كان للماركسية وجود إذ أننا لا نستطيع التفكير فيها دون ربطها بالديمقراطية التي لوثت العالم بوباء الثقافة الذي كان سببا في انتشار جراثيم الماركسية، والنظام النيابي في أكمل أشكاله وهو صورة وحش يندلع منه الدمار والنار، وأغلب ظني أن ناره قد خمدت اليوم.

... وهناك شيء واحد في الديمقراطية لا يجب أن يغيب عن بالنا، وهو أن الأغلبية هنا لا يمكن أن تحل محل الفرد، فهي لا تمثل الغباء في الأمة فحسب بل تمثل الجبن والضعف. فلو صح في الأذهان أن مائة رأس خاو تساوي عقل رجل واحد، أصبح كذلك أن يقوم هؤلاء الجبناء بعمل مجيد من أعمال البطولة.

كما رأى هتلر أن الديمقراطية تدليس ينشره اليهود وهو أن الناس قد خلقوا متساويين، بينما لا يرى هتلر في نظام الانتخاب العام والمساواة في الحقوق السياسية إلا أضرارا وخرابا.

وقد استبدل هتلر مبدأ الزعامة بالنظام الديمقراطي فرفع أفرادا فوق رؤوس الشعب لأنهم يطبعون الأوامر وينفذونها دون اعتراض. وفوق هؤلاء جميعا يعلو (الفوهرر) على الأمة بأجمعها يضطلع بالمسئولية وحده في كل ما يفعل أو ما يعجز عن فعله. ورسم هتلر الخطط التي يجب أن تسير عليها ألمانيا والتي يجب أن يتبعها العالم بأكمله، في كتابه (كفاحي) وقام على تنفيذه حرفا بحرف عدا استثناء واحد لم يكن إلا إجراءً مؤقتا، وهو عقد اتفاق بينه وبين السوفيت عام **١٩٣٩**، غير أنه لم يكن يستسيغ هضم ذلك الإجراء أبدا بدليل قوله في كتابه:

"لا تنسوا قط أن حكام روسيا في العصر الحاضر هو نفر من المجرمين الملطخين بالدماء، وإنهم طغمة واتتهم الظروف فانتهزوا أحرج الأوقات واستولوا على دولة عظيمة وفرضوا سلطانهم عليها بالتقتيل والقضاء على أرقى الطبقات المستنيرة فيها ليشبعوا غرائزهم الإجرامية المتعطشة للدماء.

لما كان هتلر قد كشف في كتابه (كفاحي) عن نيته قبل أن يستولي على السلطة في ألمانيا بزمان طويل، وقبل قيام الحرب العالمية الثانية بما يزيد على عشر سنوات، فما هو السبب إذن في أن ساسة أوربا لم يعيروا تهديداته إلا القليل من اهتمامهم؟ والجواب هو أنهم قد تجاهلوه لأن الجو السياسي عندئذ كان مشبعا بالمسالمة والمهادنة والأمل في إعادة السلام بأي ثمن؛ وثم عامل آخر لعب كذلك دورا عجبا في نشر هذا الكتاب وهو الاتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلف، وبموجبها رفض هتلر من أول الأمر

أن يسع حقوق ترجمة الكتاب بأكمله من الألمانية إلى اللغات الأجنبية، وانتهى الأمر بأنه إذن ترجمة نسخة مختصرة غير كاملة إلى اللغة الإنجليزية نشرت عام ١٩٣٩. وفي ذلك العام قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، استطاع اثنان من الناشرين الأمريكيين أن ينشرا ترجمة كاملة للكتاب الأصلي دون حذف أو تهذيب. أما في فرنسا فقد رفع هتلر قضية عن طريق الناشر الألماني على أحد الناشرين الفرنسيين عام ١٩٣٦ بحجة الاعتداء على حقوق التأليف، فأوقف بذلك نشر الترجمة حرفيا للكتاب الأصلي بالفرنسية، ولم ينشر منه الا ترجمة مختصرة في إنجلترا حذفت منها عبارات التهجم على فرنسا والفقرات الخاصة بتبرير الحرب، فأصبح الكتاب بعد هذا الحذف كتابا عاديا بدرجة ضللت الناس في حقيقة مقاصده وخدعهم.

هذا بينما كان الكتاب الأصلي يطبع وينشر في ألمانيا دون حذف أو تحريف، ويباع منه ملايين النسخ حتى أصبحت العادة أن تهدي منه نسخة لكل عروسين، كما كان من المفروض أن يكون كل عضو في الحزب النازي، وكل موظف مدني بالحكومة حائزا النسخة منه. ومع ذلك فقد حذف من الطبعات المتأخرة في ألمانيا كل ما يمس روسيا وفرنسا حتى تخفي حقيقة نيات هتلر نحوهما وحتى يستنيم هؤلاء الأعداء الأقوياء ولا تثور في نفوسهم الشبهات.

والآن وقد فصلت بيننا وبين كتاب (كفاحي) حقبة طويلة من الزمن حكم بعدها المؤرخون بعد دراسته، أن هتلر لا يفهم شيئا في التاريخ، كما

حكم علماء الإنسان أن نظريته عن العنصرية هراء وخطل، وقال عنه رجال التربية أن آراءه فيها عتيقة ورجعية، كما نقد علماء السياسة نظريته في الدولة التحكمية، وآراءه التي تستقصي الديمقراطية. أما نقاد الأدب فقد حكموا عليه بأنه لا يستطيع أن يكتب فقرة واحدة متصلة في المعنى أو ينسق أفكاره في فصل من فصوله. كتب (ويجارت) في هذا قال: "أن هتلر وهو شبه أمي، كان صورة ملفقة من نزعات متباينة، فيه من سياسة مكيافللي وفيه من واجنر غموضه وسحنة المتصوفة الرومانسية اللاأخلاقية، وفيه من آراء دارون، ومن التعصب العنصرية التي نادى بها جوبينو وهوستن تشمبرلين، ومن عقدة المسيحية التي اتسم بها كل من نشته وهيجل، والفخار الكاذب من ترتشكه وبرناردي وأساليب طبقة الماليين البروسيين الملتوية كما تعلم من "هاوس هوفر" الجمع بين الآراء النظرية والتطبيق العملي.

ورغم كل تلك العيوب الصارخة فإن أحد أعداء هتلر الألداء من النقاد، وهو فان لون كتب في نقده له يقول:

"إنه من أعظم الوثائق التاريخية العجيبة في كل العصور، إذ يجمع بين سذاجة (جان جاك روسو) ونغمة قدامى الأنبياء في كتاب العهد القديم، وقال آخر هو (نورمان كوزان): "إنه من أبعد الكتب أثرا في القرن العشرين، فقد قدر أنه مقابل كل كلمة جاءت فيه قتل ١٢٥ شخصا، ومقابل كل صفحة قتل ٤٧٠٠ شخصا، ومقابل كل فصل فيه قتل ١.٢٠٠.٠٠٠ شخصا، وترجع قوته إلى أنه كان بمثابة الكتاب المقدس

للشعب الألماني ومنه استمدت حكومة الرايخ الثالث خطط سياستها من ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ومن المؤسف حقا ألا تدفن آراء هتلر مع جثمانه، إذ ما زال من أنصاره الكثيرون في ألمانيا، وما تزال الحكومات الشيوعية تقتبس الكثير من آرائه وتطبقها، وسيجد المستبدون في مادة هذا الكتاب معينا لا ينضب لتحقيق أغراضهم الإجرامية بمثل ما كانوا يفعلون ذلك منذ أربعة قرون عندما كانوا يقتبسون آراء ماكيافللي.

دنيا العلوم

١١ ـ كتاب حركة الأجرام السماوية

نقولا كوبرنيق

بهر الإنسان من قديم منظر السماء وزينتها من شمس وقمر وكواكب ونجوم وحركة جريانها الأبدية؛ وحيره شروق الشمس وغروبها وتغير أوجه القمر من البدر إلى المحاق، وتوالى الفصول واختفاء الكواكب وظهورها وأثرها البادي في حياته اليومية؛ فلا عجب أن نشأت أقاصيص مستفيضة عنها، وألهها الإنسان في غابر الأزمان.

وكلما تقدمت المدنية بالإنسان حاول الفلاسفة أن يفسروا حركة الأجرام في سمائها تفسيرا يقبله العقل. وكان علماء الإغريق القدماء في طليعة العلماء والمفكرين الذين اشتغلوا بأمور الفلك؛ وأقدم هؤلاء فيثاغورس في القرن الخامس، وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد. وجاء بعدهم العالم المصري بطليموس القلوذي الذي كان يسكن الإسكندرية حوالي ١٥٠ سنة بعد الميلاد فبوب ونظم علم الأولين والآخرين عن الفلك في عصره وقبل عصره وابتدع فيه جملة نظريات شاملة. وقد ظل نظام بطليموس عن حركة الأجرام السماوية – كما فصلها في كتاب

(المجسطي) – هو النسق السائد بين العلماء، إذ لقي من الناس إجماعا على صحته طوال خمسة عشر قرنا.

والفكرة في نظرية بطليموس هي أن الأرض كتلة ثابتة لا تتحرك، تحتل مركز الكون، وأن جميع الأجرام السماوية بما فيها الشمس والنجوم الثابتة تدور حولها. وقد آمن الناس بأن الأرض هي المركز الذي يدور حوله عدد من الأفلاك السماوية، والكواكب أجرام مشدودة إليها، وأما النجوم الثوابت فترتبط بفلك أخر خارج المجموعة السابقة وكلها تدور دورة واحدة كل أربع وعشرين ساعة. وقد فسر بطليموس حركات الكواكب المعقدة بفكرة الدوائر المتداخلة، إذ تدور أفلاك الكواكب في حركة مضادة لفلك النجوم الثوابت وتتحرك الأولى بقوة أكبر من القوة التي تدفع فلك الثانية، واعتبر كوكب زحل أبعد الأجرام السماوية عن الأرض وأقربها إلى النجوم، ولهذا السبب كانت مدة دورانه أطول مدة. ولما كان القمر أقرب إلى المركز كان دورانه لا يستغرق إلا مدة قصيرة. كتب (روزن) يصف نظام بطليموس قال: "افترضت النظرية التقليدية القديمة: أن الكواكب تتجه نحو الشمس معظم الوقت ثم تتباطأ في حركتها في فترات منظمة حتى تتوقف عن الجريان ثم تدور على نفسها مرة أخرى وتواصل سيرها إلى جهة الشرق وهي تشبع ذلك النظام في سيرها دون نهاية"

وبذلك يكون الكون فضاء مغلقا يحيط به غشاء كروي الشكل وكل ما وراءه خلو من كل شيء. ومما ساعد على الإجماع بصحة نظريات بطليموس هذه عاملان لا تصلهما بالعلم صلة، وإنما ينتميان إلى نوازع في

أصل الطبيعة البشرية، أولهما: أن النظرية ترتكز على الظواهر الطبيعية التي تدركها العين المجردة، وثانيهما أن النظرية تشبع جانبا من غرور الإنسان واغتباطه بأن الأرض هي مركز الكون والكواكب والنجوم مسخرات تدور حولها كأنما خلق الكون كله ليكون في خدمة الإنسان.

وظل هذا الصرح البديع قائما لم يتغير حتى تنبه الفكر الإنساني في عصر النهضة الأوربية الذي تيقظ فيه العقل البشري، فتولى نقولا كوبرنيق، وهو أحد مفاخرها وأفذاذ رجالها، هدم ذلك الصرح الذي بناه بطليموس. كان كوبرنيق قسيسا ومصورا وشاعرا وطبيبا واقتصاديا كما كان من رجال السياسة والحرب والعلوم. وكان من رجال العلم المحيطين به في عصر النهضة الذي حفل بأمثاله من الأساطين.

كانت الحقبة التي عاشها كوبرنيق من ١٤٧٣ – ١٥٤٣ وهي سبعون عاما من أروع حقب التاريخ الأوربي إقداما ومغامرة، إذ كشف كولومبس قارات جديدة، ودار ماجلان حول الكرة الأرضية، ونجح فاسكو دا جاما في الوصول بحرا إلى أرض الهند لأول مرة وأعلن لوثر حركة الإصلاح الديني وخلق ميخاييل أنجلو من فنه دنيا جديدة، ووضع بارسيلسس وفيزاليوس أسس علم الطب الحديث، وظهر ليوناردو دافنشي، ذلك العبقري العالمي واشتهر بأنه فنان رسام ومثال ومهندس ومعمارى وعالم في علم الطبعة والأحياء وفيلسوف. فلا غرو أن يستقبل مثل هذا العصر العظيم الزاخر بالعبقريات عقلا جبارا في شخص كوبرنيق يعلن للعالم نظاما جديدا للكون.

ولد كوبرنيق في بلدة تورون في بولندة على شاطئ نهر الفستولا وهي مدينة قديمة من موانئ حلف الهانسا الشهير، وتولى تربيته في شبابه عمه (لوكاس واتزلرود) وهو الأسقف الأمير في أرملاند. وبدأت مرحلة طويلة من التعليم المتنوع في حياة كوبرنيق، أولها في مدرسة تورون واستمرت حتى عام ١٤٩١ عندما التحق بجامعة كراكوف، وحفزه على الالتحاق بتلك الجامعة اشتهارها بأنها في طليعة المعاهد التي تدرس بها الرياضيات وعلم الفلك. وبعد انقضاء خمس سنين، رحل إلى إيطاليا ليواصل دراسته في جامعة بولونيا وهي من أقدم جامعات أوربا وأشهرها إذ ذاك، فعكف فيها على دراسة القانون الكنسي والمدني والفلك، ثم تركها إلى روما حيث أقام بها عاما اشتغل فيه بإلقاء محاضرات في الرياضيات والفلك ثم انتقل إلى بادوا وفرارا حيث قضى خمس سنوات أخرى في دراسة الطب والقانون الكنسي. وهنا انتهت تلك المرحلة التعليمية ونال في آخرها شهادة الدكتوراه في القانون الكنسي من جامعة فرارا عام ١٥٠٣.

وعين كوبرنيق، بفضل نفوذ عمه، قسيسا مقيما في كاتدرائية فراونبرج بعد عودته من إيطاليا عام ١٥٠٦ فظل يشغل هذا المنصب سبعة وثلاثين عاما. وكانت واجباته الكنسية متعددة الجوانب، فمنها تأدية الخدمات الطبية لرجال الكنيسة والعلمانيين، ومنها المساعدة في تقوية وسائل الدفاع عن منطقة فراونبرج لحمايتها من الحروب المتكررة التي تنشب بين الفرسان البولنديين والبروسين والفرسان التيوتوين، كما اشترك في مؤتمرات الصلح التي انتهت بها تلك الحروب، وأبدى رأيه في إصلاح النقد والعملة المتداولة

وشارك في حكم أطراف تلك المنطقة الكنسية، وأما أوقات فراغه فاشتغل فيها بالتصوير وترجمة الشعر من الإغريقية إلى اللاتينية.

ويتضح من هذا أن علم الفلك لم يكن إلا إحدى نواحي نشاطه المتعددة، غير أن تفرغه للفلك ازداد عندما تطورت آراؤه عن الظواهر الفلكية، ويبدو أنها خطرت له وهو في شبابه، وعجلت في إبرازها دراساته في كراكوف وفي إيطاليا. وقام كوبرنيق بجميع أبحاثه بمفرده في هدوء تام ولم يشرك أحدا ولا استشار أحدا فيها؛ وأما مرصده فكان برجا قديما من أبراج الحامية مقاما على سور محصن بني حول الكاتدرائية.

وكانت آلات الرصد التي استعملها بدائية غير دقيقة، إذ كان بينه وبين اختراع المنظار المكبر ما يقرب من قرن من الزمان، واستعمل في قياس الزمن مزولة، ولقياس زوايا ارتفاع النجوم والكواكب استعمل ما يشبه مثلثا ذا زوايا صنعه بيده، ثم اسطرلابا وكرة داخل طوقين أحدهما أفقي والآخر رأسي. فضلا عن أن مناخ تلك المنطقة لم يكن صالحا قط للأرصاد الجوية فإن قربه من بحر البلطيق وكثرة أنهاره أشبع الجو بالضباب والسحاب مما جعل صفاء السماء ليلا أو نهارا من الأحوال النادرة، ورغم هذه المصاعب كلها فقد دأب كوبرنيق عاما بعد عام على انتهاز الفرصة المواتية لأرصاده وحساباته.

وكانت النظرية التي أراد كوبرنيق أن يثبت صحتها أو يدلل على عدم صحتها بعد دراساته الطويلة الوافية تناقض نظرية بطليموس التي أجمع

العلماء في وقته، وقبل وقته بزمان طويل، على صحتها واحترامها. وتتلخص نظريته في أن الأرض ليست ثابتة ولكنها تدور حول نفسها مرة كل يوم كما تدور حول الشمس مرة كل عام. وكانت النظرية من الغرابة في القرن السادس عشر بحيث لم يجرؤ كوبرنيق على إعلانها والتقدم بها إلا بعد التأكد من صحة البراهين والأدلة التي استعان بها بحيث لا يتطرق إليها أي خطأ، وهذا يفسر تردده زهاء ثلاثين عاما قبل أن يعلن نظريته على العالم

والواقع أن بعض علماء الإغريق القدماء سبق أن خطر لهم أن مركز الكون ليس هو الأرض وإنما هي الشمس فقد علل (أرسطرخس) وهو إغريقي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، شروق الشمس وغروبها بافتراض أن الأرض تدور على محورها مرة كل يوم، ولكن أرسطو وبطليموس رفضا الاعتراف بصحة نظريته ونظريات غيره وفضلا عليها نظرية أن الأرض مركز الكون. ولما كانت كل هذه النظريات ضمن معارف كوبرنيق الذي أحاط بها من اطلاعه الواسع على الآداب والعلوم القديمة فقد خطر له أن يعيد النظر في بحث هذه المسألة وتراءى له أن أرسطرخس قد جاء منذ ١٨٠٠ سنة بتفسير الحركة الأرض والأجرام السماوية أبسط وأسلم مما جاء به بطليموس نظريته المعقدة.

وكان أول ما كتب كوبرنيق في هذا الموضوع حوالي عام ١٥١٠ رسالة قصيرة شرح فيها نظريته وعونها بعنوان "تعليقات قصيرة"، ولم تنشر هذه الرسالة في حياة مؤلفها، ولكن نسخا خطية منها تداولتها أيدى

الطلاب الذين كانوا يدرسون الفلك. وما يزال لدينا اليوم مخطوطتان منها. وقدم كوبرنيق لهذه الرسالة بقوله أنه رأى أن نظرية بطليموس عن نظام الكون من التعقيد والاستحالة بحيث عجزت عن الكشف عن تفسير معقول لحركة الأجرام السماوية. ثم ختم ذلك بالنتائج الرئيسية التي توصل إليها وهي أن الأرض ليست مركزا للكون وإنما هي مركز مدار القمر فقط وأن النجوم والكواكب بجملتها تدور حول الشمس. وتعتبر هذه الرسالة مرحلة حاسمة في التطور الفكري الذي بلغه هذا العالم العظيم.

وكان من المحتمل ألا يصدر أعظم كتب كوبرنيق الذي عانى في تأليفه زهاء ثلاثين عاما وأن لا يصل إلى المطبعة، ويصاب العالم من جراء ذلك بأفدح خسارة ، لولا أن قيض الله له عالما ألمانيا شابا، إذ حدث في صيف عام ١٥٣٩ أن جاء إلى فراونبرج أستاذ الرياضيات في جامعة وتنبرج، وهو شاب يبلغ من العمر ٢٥ عاما، لزيارة كوبرنيق ويدعى (جورج يواقيم ريتيكوس) وقد حفزه على زيارته ازدياد شهرة كوبرنيق وذيوع صيته ليتعرف بنفسه حقيقة تلك الشهرة، وكان في عزمه أن ينهي زيارته بعد بضعة أسابيع فاحتفى به كوبرنيق احتفاء عظيما ورحب بمقدمه فامتدت إقامة بريتيكوس في ضيافته زهاء عامين. وأدرك لأول وهلة أن مضيفه من العباقرة الممتازين فعكف على دراسة كتاباته ومناقشته، وما لبث أن كتب ريتيكوس مذكرة حصر فيها آراء كوبرنيق وأرسلها في شكل خطاب لأستاذه (يوهان شوتر) في نورمبرج. وطبع هذا الخطاب في دانتزج عام ١٥٤٠ وعرف باسم "المذكرة التمهيدية" وكانت أول تسجيل النظرية كوبرنيق التي هزت العالم. والواقع أن تلك الرسالة الصغيرة لم تعالج إلا وجها من أوجه نظرية كوبرنيق

وهو الخاص بحركة الأرض. وكان في نية ريتيكوس أن يتبع هذه المذكرة مذكرات أخرى. ولما ظهر له أنها لن نضيف شيئا جديدا لسابقتها عدل عنها ويدل ثناؤه المستفيض وإشادته بالدكتور العظيم، في رسالته على شدة إعجابه به إعجابا يكاد يصل إلى حد العبادة.

وحتى هذه اللحظة كان كوبرنيق مترددا متحفظا في نشر مؤلفه الكامل لأنه كان من أولئك الذين يهدفون إلى الكمال، فعكف على مراجعة المخطوطة مرارا وتكرارا. وقد وجدت مسودة مخطوطة في مدينة براج في أواسط القرن التاسع عشر وبها ما يقرب من سنة تصحيحات وتنقيحات متوالية بعد أن خفيت على الناس مدى ثلاثمائة عام.

وإلى جانب تردده هذا، فمن المحتمل أنه كان يخشى كذلك معارضة الكنيسة وتصديها له، وكانت هذه شديدة الحساسية لكل رأي جديد أو ما يشتم منه أنه خروج على تعاليمها المرعبة بسبب حركة النهضة الفكرية التحررية الأوربية وتحدي حركة الإصلاح الديني لها. ولما كان كوبرنيق من رجال الدين المؤمنين لم يدر في خلده قط أن يخرج على الكنيسة أو أن يضحي بنفسه في سبيل إعلان نظريته.

واستقبلت المذكرة التمهيدية بالترحاب في الأوساط العلمية؛ فألح ريتيكوس وغيره من العلماء بنشر المؤلف الأصلي فلم ير كوبرنيق بدا من الانصياع له. وعهد بالمخطوطة إلى ريتيكوس ليتولى طبعها وإخراجها في (نورمبرج) ولكن قبل أن تتم هذه الخطة نقل ريتيكوس إلى أحد كراسي

الأستاذية في جامعة ليبزج فعهد إلى شخص آخر إتمام هذه المهمة وهو (أندرياس أوسياندر).

والظاهر أن أوسياندر هذا كان شديد القلق من تطرف نظريات كوبرنيق فسمح لنفسه – دون الرجوع إلى المؤلف – بحذف كل مقدمة الكتاب الأول ووضع مكانها مقدمة من قلمه غفلا من توقيعه قال فيها أن الكتاب يحتوي على افتراضات نظرية لفائدة المشتغلين بالفلك، وأنه لا يلزم إنسانا ما بالاعتقاد بدوران الأرض، وبعبارة أخرى لا يجب أن يؤخذ الكتاب مأخذ الجد. ولا جدال في حسن نية (أوسياندر) لأنه أراد بمقدمته هذه أن يتحاشى هجمات المغرضين على الكتاب قال (مزوا) في هذه النقطة: ولقد أدي أوسياندر دون فصد، وفي غفلة منه، أكبر خدمة العالم في انتماء هذا الكتاب وبقائه لأنه بسبب هذه المقدمة المضللة التي عزاها في حذق ومهارة إلى المؤلف كأنها موجهة منه إلى القارئ استغفلت الكنيسة، فلم تشبه إلى ما جاء في الكتاب من آراء انقلابية وتغير خطير في العرف الجاري فلم تضعه في قائمتها السوداء إلا في عام ١٦١٦ .

وقبيل الانتهاء من طبع الكتاب أصيب كوبرنيق بالفالج فجأة، وفي رواية مقطوع بصحتها أنه بينما كان كوبرنيق يعاني سكرات الموت هبط رسول من نورنبرج إلى مدينة فراونبرج يحمل في جعبته أول نسخة مطبوعة لذلك السفر النفيس وسلمها إلى كوبرنيق قبل أن يسلم هذا الروح بضع ساعات فقط. حدث ذلك في ٢٤ مايو سنة ١٥٤٣ وكان عنوان الكتاب

عن حركة الأجرام السماوية، وكان مكتوبا باللاتينية كما هي العادة في مؤلفات ذلك العصر.

وقد صدر (كوبرنيق) كتابه بكلمة إهداء إلى البابا بولس الثالث وهو عمل بدل منه على الكياسة وحسن السياسة، وتدل عبارة الإهداء نفسه على أن (كوبرنيق) كان يتوقع صنوفا من المصاعب والمتاعب.. قال:

"أكاد أجزم عن يقين يا أقدس الآباء أنه عندما يتسامع الناس بما جاء في هذه الأوراق من نسبة الحركة إلى أرضنا فيقطعون بأنه قول ساقط مردود، ومهما يكن اعتزازي بنظرياتي فإنها لا تصدفني عن تقصي أقوال الناس ورأيهم فيها؛ ولذلك فقد أعملت الفكر في شأن أولئك الذين يعتقدون بسكون الأرض جريا على ما تواضع عليه الملأ من أقدم العصور وفيما سوف يعترضون به على مقالتي بحركة الأرض وجريانها، فداخلني التوجس والتهيب فترددت بين نشر كتابي الذي بينت فيه دورانها، وبين أن اقتدى بالفلاسفة الفيثاغورثيين الذين حرصوا على كتمان أسرار فلسفتهم عن الناس وفضلوا أن يقتصر توارثها على أصدقائهم وأنصارهم وأقاربهم بالحفظ والتناقل والرواية، فلما أمعنت النظر في هذا الأمر وقلبته حدا بي ذلك إلى طرح الكتاب جانبا لأنني خشيت ذم الناس له لجدة ما جاء فيه ولمناقضته للعقل ولو في الظاهر.

غير أن بعض الإخوان ألحوا على حتى أثنوني عن رأيي، وبذلوا لي النصيحة في أن أقدم على نشر هذا الكتاب الذي ظل حبس خزانتي زهاء

ستة وثلاثين عاما، كما ألح على نفر كبير من الفضلاء والعلماء الأجلاء في ذلك، وألا يكون قلقي وتهيبي باعثا يحول دون الإسراع في نشره حتى يكون ذخيرة في الرياضة وقنية لعلمائها.

ولا يداخلني ريب قط لإجماع أفاضل العلماء وأفذاذهم على سلامة نظريتي لو أنهم كلفوا أنفسهم عناء تفهمها وبحث حججها التي فصلتها في كتابي. ولهذا حرصت، قطعا لكل قول يصدر عن عالم أو جاهل، أن أهدي إلى قداستكم دون غيركم هذه الأوراق التي استنفدت فيها ليالي العمر، لأن الناس يرفعون مكانتكم فوق كل مكان حتى في هذا الركن السحيق من الأرض حيث أعيش ويشيدون بعطفكم ونصرتكم للعلوم النقلية والعقلية.

أهديته إليكم لأنه بما حباكم به الله من الرفعة والهيبة وسلامة الإدراك تقطعون عني ألسنة السوء وتردون سفاهة السفهاء على غير ما يقول به المثل السائر من أنه لا سلامة من لدغات النميمة. وقد يجوز أن يبلغ الفضول بالفضوليين الذين لا يفقهون شيئا عن علوم الرياضة فيتراءى لهم أن يتمشوا بالوقيعة في الكتاب والحط من شأنها متخذين من بعض آيات الإنجيل وتفسيراتها الملتوية سندا لهم في تخرصاتهم. ولمثل هؤلاء المسقطين المغرضين في نقد كتابي لا ألقي بالا ولا أعير أقوالهم اهتماما لأنها صادرة عن نفوس مريضة وأفهام سقيمة.

ولخص كوبرنيق فكرته عن الكون في الكلمات الآتية:

"إن فلك النجوم الثابتة هو أقصى المناطق في أرجاء الفضاء ولذلك فهي تبدو غير متحركة، وفي الحقيقة هي إطار الكون المحيط به، ومنها تقاس جميع مراكز النجوم الأخرى وحركتها. وقد يظن بعض الناس إنها تتحرك بحركة ما، وقد ذكرت تفسيرا لذلك عند الكلام عن حركة الأرض. وأبعد الأجرام المتحركة هو وزحل، ويكمل دورته مرة كل ثلاثين عاما ويجيء بعده (المشتري) وتمام دورته اثنا عشر عاما ثم المريخ في عامين ثم الرابع (الأرض) في عام واحد وتابعها القمر يدور على مدارها. والخامس (الزهرة) في تسعة شهور، والسادس (عطارد) في ثمانين يوما؛ وفي مركز مدارات هذه الكواكب تقع الشمس، وهي الشعلة التي تحتل في هذا النسق البديع أنسب مكان ترسل منه ضوءها إلى الكواكب جميعا في لحظة واحدة. ومن هذا التركيب ندرك أن الكون قد أبدع على أحسن نظام وأتم تنسيق وتناسب بين حركة الكواكب وبين عظم مداراتها، وهو تفسير لا يستطاع إدراكه من أي نظرية أخرى. وقد يوقفنا التلخيص التالي لمحتويات الكتاب على تدرج فصوله؛ فالكتاب ينقسم – بعد كلمة الإهداء والمقدمة المزيفة التي كتبها أوسياندر – إلى ستة كتب أو أقسام رئيسية ينقسم كل منها إلى فصول. ونقف في الكتاب الأول على آراء كوبرنيق عن الكون وعلى الحجج التي أدلى بها لتأييد نظريته بأن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية وأن الأرض ما هي إلا كوكب سيار مثل بقية الكواكب الأخرى تدور حول الشمس مع تعقيب في شرح فصول السنة. وينتهي الكتاب بفصول في حساب المثلثات وأصوله الرياضية التي استعان بها كوبرنيق في أبحاثه التالية في الكتاب.

ويبحث الكتاب الثاني حركة الأجرام السماوية ومقاييس أبعادها وينتهي بثبت عن النجوم ومواضعها في السماء، وهو ثبت منقول برمته عن بطليموس مع تصحيحات قليلة.

وأما الكتب الأربعة الأخيرة فتحتوي وصفا لحركة الأرض والقمر والكواكب مع شرح مستفيض لتلك الحركات، قرن كلا منها بأشكال هندسية تبين مداراتها حسب نظرية (كوبرنيق). وأكبر اعتراض على فكرة دوران الأرض هو ما تقدم به بطليموس، إذ قال بأنه لا بد أن تكون الأرض ساكنة وإلا فكل جسم سابح في الهواء الطير والسحاب يختفي منها وتخلفه وراءها، وكذلك كل شيء يقذف في الفضاء يسقط إلى ناحية الغرب إن صح دورانها. وأشد من ذلك الاعتراف إن الأرض ستفتت أجزاؤها وتتحول إلى شظايا تسبح في الفضاء بسبب سرعة دورانها. وظلت هذه الاعتراضات قائمة ولا سبيل إلى دحضها حتى عصر جاليليو الذي كشف عن ميكانيكا السرعة، ثم جاء بعده نيوتن بكشوفه عن قوانين الجاذبية، غير أن كوبرنيق أجاب على تلك الاعتراضات بافتراض أن الغلاف الجوي تحمله الأرض معها في دورانها وأنه من المنطقي أن تدور الأرض بدلا من أن تدور السماء كلها كي يحدث الليل والنهار، ثم أيد أقواله بعبارة مأثورة في الفلسفة مقتضاها أن الطبيعة لا تقضي على نفسها وأن الله لم يخلق كونا يدمر نفسه بنفسه.

وفي نظر كوبرنيق أن الشمس ثابتة ساكنة وسط الكواكب المتحركة وهي نفس فكرة بطليموس عن الأرض، ووظيفتها الرئيسية إرسال الضوء

والحرارة، وأن الكون محدود جدا وأقصى حدوده منطقة النجوم التي لا يوجد وراءها فضاء. وأغلب الظن أن فكرة الفضاء اللا نهائي لم تكن معروفة لكوبرنيق كما لم تكن معروفة لبطليموس الذي عاش قبله بألف وأربعمائة سنة إلا أنه لم يعترض على نظرية بطليموس في الكرات المتداخلة. وأضاف كوبرنيق إلى ذلك أن كل مدار له مركز مختلف عن بقية المدارات، وأن الشمس لا تحتل المركز الهندسي لمدارات الكوكب. هذه هي أهم تفاصيل نظام كوبرنيق الذي عمل علماء الفلك على تصحيحها بعده.

ولم تلق نظرية النظام الكوبرنيقي قبولا عاجلا، لا بين العلماء، ولا بين الناس، ولم يؤمن بها إلا قلة ممتازة، وما عدا ذلك فمعارضة أهل عصره لها كانت شديدة قاسية؛ ففي رواية أن طلبة الجامعة هاجموا دار الطباعة التي تقوم بطبع كتاب حركة الأجرام السماوية لتخريبها وتدمير المخطوطة، فتحصن عمال المطبعة داخلها ليتمكنوا من إتمام طبعه. وكذلك قامت فرقة تمثيلية متنقلة لتمثيل مسرحية هزلية في بلدة (اللبنج) تسخر من كوبرنيق بأن صورته فيها فلكيا يبيع نفسه للشيطان.

تلك توافه بالمقارنة إلى ما حدث بين رجال الدين ومنظماتهم القوية من رد الفعل الذي أحدثته النظرية الجديدة، لأنها قلبت الأوضاع الفلسفية والدينية المتوارثة المألوفة منذ العصور الوسطى، إذ لو ثبتت تلك النظرية الأقصى الإنسان عن مكانته الرئيسية في الخليقة، وأنزل تمثاله العظيم من فوق منصته، وأصبحت الأرض – موطنه – في منزلة بسيطة عادية شأنها شأن بقية الكواكب.

غير أن الكنيسة لم تتخذ إجراء ما ضد رسالة (كوبريق) بسبب انشغالها في أمور أخرى استغرقت اهتمامها. ومن المحتمل أن تكون المقدمة الخداعة التي كتبها أوسياندر في سكوت الكنيسة عنها نصيب، وأما رجال الإصلاح الديني فكانوا أقل تحفظا إذ أشار إليه مارتن لوثر في عدة مناسبات ووصفه بقوله: هذا الفلكي الذي يريد أن يثبت أن الأرض هي التي تدور، وليست الشمس والقمر والسماء، وهو في ذلك أشبه برجل يجلس داخل عربة أو سفينة متحركة يعتقد بأنه ساكن بينما تمر به الأرض والأشجار سراعا. ولكن هذا ما جرت به العادة في أيامنا، وهي خلاف ما نعرف، فيستنبط كل مغمور بدعة من البدع يريد الناس على تصديقها، لأنها من اقتراحه وابتداعه، ويريد هذا المخبول أن يقلب علم الفلك رأسا على عقب وقد غاب عنه ما جاء في الكتاب المقدس بأن يوشع قد أمر الشمس أن تتوقف عن المغيب ولم يأمر الأرض. وأما ملانكتون، وهو أحد أنصار لوثر، فإنه قال ساخرا: لقد أوقف الشمس وأدار الأرض.

ولم يكن كالفن أقل الثلاثة في التعريض به، فقد استشهد بما جاء في المزمور الثالث والتسعين ونصه: أيضا ثبتت المكونة لا تنزعزع، وتساءل في حنق شديد: من ذا الذي يضع أقوال من يدعى (كوبرنيق) فوق أقوال روح القدس؟

ولم تتحرك الكنيسة باتخاذ إجراء ضد كتاب كوبرنيق إلا عام ١٦١٥، والحقيقة أن الإجراءات التي اتخذتها عندئذ لم تكن إلا انتقاما من

أنصار (كوبرنيق) أمثال (جاليليو) و(برونو) فأصدرت بيانا تنقض فيه نظرياته في صيغة طريفة، قالت فيه:

"من حيث أن القضية الأولى، وهي أن الشمس ثابتة في مركز الكون وأنها لا تدور حول الأرض، فقضية سخيفة معتلة مردودة لا يقرها الدين، وهي زيغ وكفر لمناقضتها لما ورد في الكتب المقدسة. وأما القضية الثانية، ومقتضاها أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، وأنها ليست مركز الكون فهي منقوصة من الناحيتين العقلية والنقلية ومجافية للإيمان الصحيح. وفي السنة التالية عام ١٦١٦ أدرجت مؤلفات كوبرنيق في قائمة الكتب المحظورة، ومنع تداولها بين الناس لزيغها عن الدين حتى يصحح ما جاء فيها، كما أدرجت كذلك المؤلفات والكتابات التي تقول بدوران الأرض، وظلت كل هذه المؤلفات في القائمة السوداء مدة تقرب من قرنين حتى رفع عنها الحظر نهائيا عام ١٨٣٥.

وكان العذاب والتنكيل الذي لحق بجاليليو وبرونو جعل الناس يحجمون عن المجاهرة بنظرية كوبرنيق. أما برونو هذا، وهو من أنصار كوبرنيق، فقد زاد على أستاذه جديدا، إذ اعتبر الفضاء اللانهائية وأن الشمس ومجموعتها من الكواكب ليست هي وحدها السابحة فيه، وإنما قد توجد نظم ومجموعات أخرى، شبيهة بها، كما رجح وجود عوالم أخرى تسكنها مخلوقات تشبه الإنسان أو تفوقه، فرمي بالزندقة والكفر، وحوكم أمام محكمة التفتيش، وأدين وأحرق حيا عام ١٦٠٠. وكان حظ جاليليو أخف نوعا من حظ سابقه، إذ اضطر تحت التهديد بالتعذيب والقتل، أن

ينكر نظريات كوبرنيق وهو راكع على ركبتيه، فحكم عليه سنة ١٦٣٣ بالسجن مدى الحياة.

ولم يكن إحجام العلماء الطبيعيين والفلاسفة بأقل من إحجام الكاثوليك والبروتستنت عن الاعتراف بنظريات كوبرنيق؛ فنرى مثلا فرنسيس بيكن، وهو أحد المؤسسين لقواعد العلم الحديث، ينكر أن الأرض تدور حول محورها وأنها تدور في مدار حول الشمس. ولهذا نرى أن أقوال أرسطو وبطليموس في الفلك، ظلت مسيطرة مهيمنة على الدراسات في الجامعات الأوروبية زمنا طويلا بعد ظهور كتاب (حركة الأجرام السماوية) والواقع كما قال (ستبنز):

إن اعتناق نظرية كوبرنيق كان يسير سيرا بطيئا جدا بين جميع الأمم على السواء؛ ففي أمريكا ظلت نظريتا بطليموس وكوبرنيق تدرسان جنبا إلى جنب في جامعة هارفرد وييل..

ولم يحل بطء انتشار نظريات كوبرنيق دون قبول العالم لها بالإجماع، فقد ظل العلماء المتخصصون أمثال: برونو، وتيكو براهي، وكيلر، وجاليليو، يوالون أبحاثهم فيها حتى شيدوا صرحا متينا من الأدلة على صحتها. وقد دأب هؤلاء وغيرهم من الباحثين على إصلاح نظريات كوبرنيق بفضل اختراع آلات رصد أكثر دقة مما كانت في عصره، وبفضل الاستفادة من جهود العلماء المتواصلة. وكان نيكو براهي، وهو دنمركي، أعظم الفلكيين الذين خلفوا كوبرنيق مباشرة، فلم يشترك في بحث نظرية

دوران الأرض حول الشمس، وإنما اختط خطة أخرى، وبفضل مجموعة عظيمة من الآلات الدقيقة للرصد تفوق ما استعملها كوبرنيق، استطاع أن يقوم بأرصاد ويجري مقاييس أعظم مما وصل إليه كوبرنيق وعلى أساس المعلومات التي وصل إليها استطاع مساعده الألماني (يوهان كيلر) أن يضع قوانينه الثلاثة المشهورة بعد وفاة براهي وهي:

(أ) أن الكواكب تدور حول الشمس في مدارات بيضية الشكل وليست دائرية، وأن مركز الشمس في أحد مركزي المدار

(ب) أن سرعة دوران الأرض أو أي كوكب آخر في مداره ليست على وتيرة واحدة، وإنما تسرع في دورانها شيئا ما عندما تقترب من الشمس.

(ج) أن البعد بين الشمس والكوكب يتناسب تناسبا طرديا مع المدة التي يستغرقها في الدوران حول الشمس.

ثم جاء (جاليليو) وكان أول من استعمل المنظار المكبر في الرصد، وقد أثبتت أرصاده واكتشافاته صحة نظرية كوبرنيق. وكان كذلك أول من وضع قواعد علمية ثابتة لعلم الحركة (الديناميكا)، ثم جاء إسحق نيوتن فأثبت بالدليل القاطع صحة نظرية كوبرنيق عندما كشف عن قانون الجاذبية وأخرج القوانين التي تتحكم في حركة الكواكب. ثم جاء بعد ذلك (آينشتاين) فكشف النقاب عن البقية الباقية من أسرار الكون في نظرية النسبية في القرن العشرين.

وفي ضوء التعديلات الكثيرة التي أدخلها العلماء على نظرية كوبرنيق، يجدر بنا أن نتساءل في مقدار صحة تلك النظرية كما وضعها كوبرنيق، ولا مرية في أنه ترك نظريته ناقصة ومليئة بالأخطاء في أكثر من وجه؛ فمثلا كان اعتقاده بأن الكواكب تدور في مدارات دائرية خطأ بحتا إذ وجد بعد ذلك أنها تدور في مدارات بيضية، وكما اعتقد بأن الفضاء محدود بحدود، بينما نجد النظرية الحديثة تقول باللا نهائية في الفضاء، ووجود عوالم شمسية أخرى غير عالمنا. هذا إلى أن القواعد التي وضعها في زمنه، أي قبل أربعة قرون من الزمان، لا تتفق مع معارفنا الفلكية في الوقت الحاضر، غير أن أساس النظرية في ذاته، وهو اعتبار الشمس مركزا لحركة الكواكب جميعها اكتشاف خطير أدى إلى تأسيس علم الفلك الحديث.

وقد توطدت مكانة كوبرنيق في تاريخ العلم إلى الأبد، إذ أن تأثيره في معاصريه وفي الأجيال التي تلت عصره يكفي لوضعه في أرفع المراتب العلمية. قال (جوته) في ذلك: لم يحدث قط في تاريخ الاستكشاف والنظريات العلمية أن واحدة منها أثر في الجنس البشري بأجمعه بمثل ما فعل كوبرنيق فما كاد الناس ينعمون بأن أرضهم مستديرة مكتملة التكوين تامة الخلق حتى فوجئوا بأنها لم تعد مركز الكون وأنها فقدت مكانتها فيه، فأبهظهم الخبر بما لم يسبق له مثل في تاريخ البشرية. فإن تسليمهم بالنظرية الجديدة، معناه ضاع آمال وأحلام عريضة، وزوالها إلى غير رجعة. فما هو مصير جنة عدن التي وعدنا بها، وما هو مال دنيانا، دنيا الطهر والتقى والشاعرية؟ وما قيمة انتفاعنا بحواسنا، وما مدى صحة إيماننا بتعاليم ديننا

الوجدانية؟ لا عجب إذن أن يقوم معاصروه بحملة عنيفة عليه حتى لا تتبدد تلك الآمال والأحلام من نفوس الناس، لأن النظرية الجديدة تفرض على معتنقيها حرية في التفكير، وتبدلا في وجهة النظر، وهى أمور لم تخطر للناس على بال، ولم تطرأ لهم على خيال.

وختاما نورد هنا آراء ثلاثة من العلماء الأمريكيين الأحياء قال (فانفر بوش): "أن نشر مؤلف كوبرنيق الفذ كان نقطة تحول خطيرة في جميع نواحي الفكر البشري، إنه أقام الدليل القاطع على الأثر العميق للحقائق العلمية في تحرير الفكر الإنساني، وشحذ خياله، مما سيمكن له الانتصار في محاربة الجهل والتعصب في المستقبل. وقال (هارولد يوري)، وهو أحد الفائزين بجائزة نوبل: "أن الألفاظ، بالغة ما بلغت قوتها، لتقصر عن وصف العمل الذي أداه كوبرنيق، فقد خرج على الناس بنظام شمسي جديد كل الجدة للكون، حطم به كل ما استقر في أذهان الناس قرابة ألف عام فبدأ بذلك وضع الأسس الأولى للتفكير العلمي الحديث، وغير تفكيرنا في كل وجه من أوجه الحياة البشرية، وثالثهم هو (هارلان تروستتسون) وهو أحد أفذاذ علماء الفلك قال:

وان الحيرة لتستولي على الإنسان كلما ألقى نظرة على السجل الحافل بمشاهير العلماء الذين شاركوا في تقديم العلوم في تاريخ العالم، وهو أشد حيرة أن حاول أن يستخلص الصفوة المختارة منهم، ومع هذا فإنني لا أتردد مطلقا إذا طلب إلى التخير أن أذكر ثلاثة أسماء هم :كوبرنيق، ونيوتن، وداروين .

فهؤلاء الثلاثة تميزهم خصائص مشتركة بينهم تجعلهم صفا واحدا متراصة في انتصار التقدم الإنساني عامة، وهذه الخصائص المميزة لهم هي قوة الخيال، وإقدام العبقرية، وابتداع عجيب يدل على شمول إدراكهم وسعة تصورهم للأشياء. وبعد وزن جميع الاعتبارات فإنني أعتبر كوبرنيق أعظمهم جميعا، والجدير بأن نضع إكليل الغار على رأسه، لأنه أول من وضع قواعد علم الفلك الحديث، وبغير ذلك لم يكن من المستطاع لنيوتن أن يضع قوانين الجاذبية، كما أنه فتح الباب الطريقة جديدة في التفكير قلبت أوضاع التفكير القديمة، وهو حدث كان لا بد من وقوعه قبل أن يستسيغ العالم نظرية تطور الأنواع ويجعل لها موضع من تفكيره".

فجر علم الطب الحديث:

١٢ـ كتاب حركة القلب والدورة الدموية

وليم هارفي

لم يكن التقدم في علم الأحياء وأبحاثه في أوائل القرن السابع عشر أحسن حالا منه في علم الفلك قبل كوبرنيق، ولم يزد عليه إلا قليلا؛ فالأطباء، ومدارس الطب كانت تدرس قواعد علم التشريح للجسم الإنساني ووظائف الأعضاء فيما يتعلق بالقلب والشرايين والدم بحسب ما وصلت إليها من أقوال جالينوس الطبيب الأسيوي الأفريقي، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد.

وظل علم الإنسان عن الدورة الدموية ووظائف القلب زهاء ألف سنة كما كان دون جديد فيه، فقد تلقى الناس عن أرسطو أن الدم ينبع من الكبد ثم ينتقل منه إلى القلب ثم يسير في الجسم إلى العروق. وكانوا يعتقدون أن القلب مصدر حرارة الجسم، ومركز العقل في الإنسان وزعم "أرسسترانس" الحكيم الإسكندري، أن الشرايين تحمل مادة تشبه نوعا لطيفا من الهواء، أو الأبخرة، كما كانوا يسمونها. ورغم أن جالينوس صحح ذلك الخطأ، إلا أن الأطباء بعده بقرون ظلوا يعتقدون بوجود الهواء في

الجهاز الدموي للجسم فكرة أنه ينشط القلب ويجري الحياة فيه. ولم يجسر العلماء، غير أقلية جريئة، أن يناقشوا أو يخطئوا صحة تلك الأقوال، والعرف الذي نزل إليهم من القدماء. وكانت كتب جالينوس في نظر الأطباء كتبا مقدسة، تكاد تكون منزلة، لا ينبغي مناقشتها أو التشكك في صحتها. وقرر هو كذلك أن الكبد هو مركز الجهاز الدموي، وأن الطعام بعد هضمه، ينتقل إلى الكبد حيث يتحول إلى مادة دموية بفضل ما يضاف إليها من "أبخرة طبيعية "، وأن الدم يسري في الجسم ذهابا وجيئة بواسطة الشرايين والعروق على غرار المد والجزر في البحر، كما أن الدم الشرياني في أحد جانبي القلب يمتزج بدم العروق في الجانب الآخر بواسطة مسام صغيرة بينها.

ولقد نشأت حول تلك الحقائق الطبيعية للدم أقاصيص وخرافات تراكمت على مر القرون. وتعزى للدم – بالذات – صفات مقدسة علوية أكثر من أي جزء آخر من أجزاء الجسم بدليل ذبح الأضاحي تدينا وقربانا وصب الدماء على محاريب الآلهة.

ولكن لم يحل عام ١٦٠٠ حتى بدت في الجو علامات التحول والتغير فقامت في أوربا حركة النهضة التي لم تقتصر على إحياء العلوم، بل تعدتها إلى حركة تنبه الوعي والتفكير التي تأثرت بها العلوم الطبيعية. إذ كان هذا هو عصر العباقرة أمثال: جاليليو، وكبلر، وهارفي، وبيكن، وديكارت، وقد سبقهم بنصف قرن في إيطاليا (أندرياس فساليوس) المؤسس الأول لعلم التشريح الحديث، فأثبت أنه لا وجود للمسام التي زعم جالينوس أنها

توصل مباشرة بين دم الأذين ودم البطين في القلب، كما أثبت آخر هو (سرفيتس)، وقد أحرقه كالفن حيا فيما بعد، أن الدم يدور في الرئتين، ولكنه لم يلحظ أن القلب هو المضخة الدافعة في الجسم، وقد أشار إلى دورة الدم في الرئتين هذه (ريالدو كولومبو) أستاذ التشريح في روما. وقد جاء الطبيب (فابريكيوس) بجامعة (بادوا) فكشف عن وجود صمامات في العروق إلا أنه لم يستطع تعليلها، وظن أن وجودها ضروري لتقليل سرعة دفع الدم إلى بقية أطراف الجسم.

وبهذا كان لأصحاب تلك النفوس الجريئة من الشجاعة ما حملهم على التشكك في صحة التعاليم القديمة التي كبلت علم الطب، وأعاقت تقدمه طوال العصور المظلمة كلها، الا أن أحدا منهم بمفرده لم يستطع الوصول إلى الحقيقة بتمامها، ولكن ساهم كل منهم بنصيب مهم في تفسير سر الدورة الدموية ووظائف القلب. ومع هذا، فقد وقفوا جميعا دون الغاية ولم يتوصلوا إلا إلى حقائق جزئية غير شافية.

ووقع عبء كشف القواعد العلمية لنظام الدورة الدموية وصياغتها على عاتق الطبيب الإنجليزي الفذ ذي العقل النافذ (وليم هارفي).

لم تصل حركة النهضة الأوروبية إلى إنجلترا إلا في وقت متأخر عن القارة الأوروبية وخاصة عن إيطاليا، ولكن الأمة الإنجليزية كانت قد بدأت تدخل مرحلة من أعظم مراحل حياتها عندما ولد هارفي عام ١٥٧٨؛ ففي القرن التالي ستعتلي الملكة اليصابات عرش بريطانيا وستتوطد قوة بريطانيا

البحرية بعد انتصارها الرائع على أسطول الأرمادا الإسباني، وسوف يدأب المغامرون الإنجليز على ارتياد آفاق الأرض المجهولة. وأما في عالم الأدب فسوف يشتهر فيها عباقرة أمثال شكسبير، ودن، وسنسر، ودريدن، وللتن، وجونسن، وبيكن. وسوف يرتفع كذلك عن كاهل الشعب ذلك الاضطهاد والكبت لكل جديد كما كان الشأن في القرون الماضية، فتحررت أذهان الناس من تلك القيود في حدود معقولة، وبدأت تفتح عن آراء جديدة وتسعى إلى آفاق كانت مجهولة لها من قبل.

وكان على هارفي أن ينتقل إلى إيطاليا لدراسة الطب حيث توجد جامعة بادوا الشهيرة التي سميت (أم النهضة الروم)، وظلت عدة قرون المركز الرئيسي لدراسة علم الطب. وقضى هارفي هناك – بعد تخرجه من كمبردج – أربع سنوات في رعاية أستاذ عظيم هو (فابريكيوس) مكتشف صمامات العروق. وحذق هناك التشريح العملي على مختلف أنواع الحيوان. ومن المرجح أن يكون أستاذه (فابريكيوس) هو الذي غرس فيه اهتمامه الشديد للدورة الدموية التي أصبحت شغله الشاغل في حياته..

ولما عاد هارفي إلى إنجلترا عام ١٦٠٢ قضى الخمسين سنة الباقية من حياته بين الطب والمحاضرة والتأليف، وتزوج من ابنة طبيب الملكة العصابات الخاص، وانتخب زميلا لكلية الأطباء الملكية، ثم طبيبا أول لمستشفى سانت بارتلوميو، ثم طبيبا خاصا لجيمس الأول وشارل الأول.

ومع هذا كان هارفي طيلة حياته تستهويه الأبحاث الطبية – وبخاصة ناحيتها العلمية – أكثر مما يستهويه الطب العلاجي. ففي عام ١٦١٦ بدأ يلقي سلسلة من المحاضرات أمام كلية الأطباء الملكية في موضوع الدورة الدموية. وما زالت مسودات هذه المحاضرات بين أيدينا إلى اليوم مكتوبة باللاتينية والإنجليزية بخط ردئ لا يكاد يقرأ. وهذه المذكرات تصف بعض تجاربه ويتضح منها أن هارفي كان إذا ذاك يؤمن أيمانا قاطعا بصحة ما ذهب إليه من النظريات الجديدة في نظام الدورة الدموية، فقد قال فيها: إن ضربات القلب هي التي تدفع الدم في حركة دائرية، ثم مضى بعد ذلك اثنا عشر عاما قبل أن ينشر هارفي النتائج التي وصل إليها. ترى ما هو السر في هذا التأخير عن إعلان ذلك الكشف العظيم على مسامع العالم؟ إن هناك افتراضات عدة للجواب عن هذا السؤال. فقد حزر (سير وليم أوسلر) أنها قد تكون نفس البواعث التي أقلقت بال (كوبرنيق) وخوفه من تعصب الناس، فجعلته يحبس عنهم رسالته في خزانة كتبه زهاء ثلاثين عاما..

وقال هارفي عن نظريته ما نصه: "إنها جديدة على الناس لم يسبق لهم أن عرفوا شيئا عنها، ولهذا السبب لم أخشى الأذى على شخصي من حسد بعض الحاسدين فحسب، بل توجست خيفة من أن يقف مني الناس عامة موقف العداء والبغضاء، ذلك لأن العرف والمألوف أصبحا فيهم طبيعة ثانية، وأنه متى تغلغلت آرائي واستقرت في النفوس من قديم الزمان فليس من المستطاع اقتلاعها بسبب آثارها العميقة في الناس".

ولم يكن هارفي من أولئك الذين يتعجلون في إخراج كتبهم ونشرها دون تمهل وتبصر ففي رأيه إن الكتاب الأدعياء من الكثرة بحيث يشبهون أرجل الذباب التي تملأ الجو في أيام القيظ ينشرون علينا كل سخيف تافه حتى نكاد نختنق بدخان حماقاتهم المتكاثف".

ولكن سرعان ما أدرك هارفي أن الفرصة مواتية بعد طول التجربة والملاحظة؛ ففي عام ١٦٢٨ نشر له في فرانكفورت بألمانيا كتيب صغير لا يزيد عدد صفحاته على اثنتين وسبعين صفحة، ورغم صغره اعتبره بعض الثقات البعيدين عن المغالاة أعظم كتاب ظهر في عالم الطب إلى ذلك اليوم.

وكان الكتاب باللغة اللاتينية، لغة العلم في ذلك العصر، وعنوانه "تجربة تشريحية على حركة القلب والدم في الحيوان"، ونحن لا نعلم السبب عن نشره في ألمانيا، ويرجح أن افتتاح المعرض السنوي للكتاب في ذلك الوقت بمدينة فرانكفورت كان فرصة مواتية لرواج الكتاب بين علماء القارة الأوروبية. والكتاب مليء بالأخطاء الجسيمة، ويرجع السبب في ذلك إلى شناعة خط المؤلف. وقد قدم الكتاب بكلمتي إهداء الأولى للملك شارل الأول وفيها شبه الملك بالقلب النابض في مملكته، والثانية إلى الطبيب (أرجنت) رئيس كلية الأطباء وزملائه من الأطباء والدكاترة". وفي كلمة الإهداء الأخيرة يقول أنه يجب الاعتراف بالحقيقة دون النظر إلى مصدرها، وأن الحقيقة أغلى بكثير من أي شيء قديم، ثم قال: "إنني أوقفت حياتي على أن أتعلم شيئا جديدا عن التشريح، كما أوقفتها على أن أعلم

التشريح لطلبتي، لا من بطون الكتب ولكن بالتجربة العملية، ولا من وجهة نظر الفلسفة وإنما من صميم الطبيعة".. وبهذه الجملة استطاع (هارفي) أن يحيط بكل ما في روح البحث العلمي الحديث من توثب وعزم على التقدم، ثم يلي ذلك مقدمة يعقبها سبعة عشر فصلا قصيرة هي جماع مادة الكتاب، وهي شرح رائق متماسك لحركة القلب والدورة الدموية في الجسم، والمقدمة تستعرض نظريات (جالينوس) وفابريكيوس وتريالدو كولومبو وغيرهم، وتعرض النواحي الخطأ فيها.

وفي الفصل الأول يسرد هارفي بعض المشاكل التي اعترضته في أبحاثه.. قال ما نصه:

"لما عقدت العزم على الاشتغال بالتشريح لأكتشف عن حركة القلب ووظائفه، حاولت جهد طاقتي أن أعرف ذلك عن طريق المشاهدة وليس عن طريق ما كتبه الآخرون، فلقيت في ذلك عناء شديدا حتى كاد يدفعني يأسي أمام هذه المصاعب أن أعتقد كما اعتقد (فراكاستوريوس) أن حركة القلب لا يعلمها إلا الله جل وعلا. وتولتني الحيرة عندما أردت أن أميز بين انقباض عضلة القلب وبين ارتخائها، وأيهما سابق أو لاحق في الزمن، بسبب سرعة تلاحقها، وخاصة في كثير من الحيوان، حيث تتم العمليتان بأسرع من ارتداد الطرف أو ومضة البرق.

فتحول (هارفي) بعد لأي إلى دراسة حركات القلب في الحيوانات ذات الدم البارد كالضفادع والثعابين والأسماك الصغيرة والحيوانات المحارية

والقواقع، لأنه تنبه إلى أن حركة القلب فيها أكثر بطئا أو أطول مدة منها في ذوات الدم الحار. كما لاحظ أن نفس الظاهرة واضحة جلية في الديدان ذات الدم الحار قبل موتها، لأن سرعة حركة القلب تبطئ وتتراخى بحيث يستطاع ملاحظاتها.

ووجد في أثناء قيامه بتجاربه أن حركة انقباض عضلة القلب تدفع الدم خارجه، فتتراخى جدران الشرايين لاستقبال الدم المتدفق إليها، وأثبت بذلك أن القلب عضلة تؤدي وظيفة المضخة التي تدفع الدم إلى الجريان، وأن حركة اندفاع الدم إلى الشرايين تحدث النبض كما يحدث إذا نفخت في قفاز، فنقض بهذا النظرية القديمة عن الانقباض والانبساط، وأثبت أن حركة الدم تسير في اتجاه واحد فقط، وأن الدم ينتقل من الجانب الأيسر للقلب عن طريق الشرايين إلى أطراف الجسم، ثم يعود إلى الجانب الأيمن عن طريق الأوردة. واستطاع أن يحدد اتجاه الدورة الدموية بربط الشرايين والأوردة في عدة نقاط. ويتلخص اكتشافه العظيم في أن الدم الذي تحمله الشرايين يعود بدوره إلى القلب عن طريق الأوردة وبذلك تتم الدورة الدموية. وقد وصف هارفي هذه الظاهرة في عبارة جذابة قال:

"هاتان الحركتان الصادرتان عن البطين والأذين في القلب تحدثان في تعاقب وتناسق ثابت، وهما لسرعة تواليهما تبدوان كأنهما حركة واحدة وبخاصة في الحيوانات ذات الدم الحار، لأن الحركة فيها سريعة جدا. وليس ثمة من سبب خفي لذلك إلا كما تبدو الآلة التي تدار فيها عجلة واحدة لتندفع بقية العجلات إلى الدوران، ومع هذا يبدو للعين أن جميع

العجلات تدور كلها في وقت واحد، وبعبارة أخرى تشبهان آلة السلاح الناري، فإن مجرد الضغط على الزناد يؤدي إلى اصطدام حجر الإشعال بالفولاذ فتخرج منه شرارة تقع على البارود فيشتعل ويندفع في ماسورة البندقية فيحدث الانفجار، والإنجاز يقذف بالرصاصة ليصيب الهدف..كل هذه العمليات تبدو أنها تتم كلها في لحظة واحدة بسبب سرعة حدوثها".

ويحتمل أن يكون تعبيره عن حركة الدم بأنها دائرية، مقتبسا من أقوال الفلاسفة القدماء أمثال أرسطو الذي كان يقول بأن الحركة الدائرية هي أتم وأكمل جميع الحركات. أو كما قال (برونو)، وهو أحد معاصريه أن الدائرة هي "الشكل الأساسي العام لكل مظاهر الكون ووجوده"، على أن هارفي احتاط في تعبيره فقال: "وحركته تشبه حركة الدائرة، أو حركة الدم التي قد تدعوها حركة دائرية على سبيل التجاوز".

وكانت حجج هارفي عن الدورة الدموية صحيحة في مجموعها إلا أن فيها حلقة مفقودة، وهي كيفية وصول الدم من الشرايين إلى الأوردة؛ فقد أثبت (هارفي) أن الدم يندفع من الجانب الأيسر للقلب في الشرايين، ثم يعود إلى الجانب الأيمن عن طريق الأوردة، غير أنه استدرك قائلا: "غير أني لم أتمكن من الاهتداء إلى أي اتصال أو مسام بين الشرايين والأوردة"، وسبب ذلك أن المجهر لم يكن اخترع بعد، فلم يستطع أن يرى الشعيرات الدقيقة التي تصل بين الشرايين والأوردة غير أنه كان على يقين من وجود مثل هذه القنوات. وقد كشف عن هذا السر بعد وفاة هارفي، أحد أساتذة

الطب في جامعة بولونيا وهو "مارشلو مالبيجي" إذ استطاع باستعمال المجهر الحديث الاختراع أن يرى في رئتي ضفدعة شرحها شبكة الشعيرات الدقيقة التي تصل بين الشرايين والعروق وهو ما حزره هارفي من قبل. وبهذا تم كشف آخر مرحلة مجهولة في حركة الدورة الدموية.

وقدم هارفي أدلة جديدة على نظريته حتى يكسب المتشككين فيها إلى جانبه، ومنها تطبيق الطريقة الكمية المعروفة علميا؛ فأثبت بالتجربة أن القلب في ساعة واحدة يستطيع بأربعة آلاف نبضة أن ينضح كمية من الدم أكثر من الكمية التي يحتويها الجسم منه، فإذا حسبنا مجموع كمية ذلك الدم في اليوم الواحد لوجدناها أكثر بكثير من كمية الطعام التي يتناولها الإنسان ويهضمها في اليوم، وبذلك نقض نظرية جالينوس القديمة، قال هارفي: "بالاختصار فالدم يتجدد في الجسم بتمام دورته فيه ثم العودة إلى الدوران مرة أخرى وثمة دليل آخر على دوران الدم في حالات التسمم". قال هارفي:

"نشاهد في الأمراض المعدية والجروح المسممة ولدغة الأفعى وعضة الكلب وغيرها أن الجسم يتسمم، بينما نجد موضع الإصابة سليما أو ملتئما. فلا شك إذن أن العدوى التي تصيب موضعا ما من الجسم يحملها الدم الداخل إلى القلب، ومن ثم تنتشر إلى أطراف الجسد. وهذا ما يفسر أيضا السر في أن تأثير العلاج بالمراهم التي يدلك بها الجلد لا يقل عن تأثير الأدوية التي يتناولها المريض عن طريق الفم.

وكان استخدام الحيوان لإجراء التجارب عليه من ابتكارات هارفي، وكان يقول: لو أن المشتغلين بالتشريح كلفوا أنفسهم عناء تشريح الحيوانات الدنيا بقدر ما عنوا بتشريح الجسم الإنساني لتغلبوا على المصاعب التي حيرتهم زمانا طويلا"

ويعتبر هارفي بحق من مؤسسي علم التشريح المقارن، فقد أجرى تجارب واسعة النطاق على كثير من الحيوان والأسماك والحشرات مثل الأغنام والكلاب والغزلان والخنازير والطيور وأجنة البيض والثعابين والسمك والقراميط والضفادع والقواقع والأصداف المحارية والأسفنجية والديدان والنحل والزنانير والذباب والقمل. قال هارفي: "ولقد شاهدت أن عضلة القلب توجد في جميع أنواع الحيوان، ولا يقتصر وجودها على فئة الحيوان الكبيرة ذوات الدم الحار، كما زعم أرسطو بل توجد كذلك في الحيوانات الدنيا التي لا يجري فيها سائل دموي، مثل القواقع والأصداف البحرية ذات المحار وأمثالها. كما رأيت القلب ينبض في حشرات مثل الزنانير والذباب، بواسطة عدسة مكبرة، وكان موضعه من الجسم في طرف ما يسمونه بالذيل، وقد عرضته وهو حي على أشخاص آخرين. وفي تلك الحيوانات غير ذات الدم نجد أن القلب ينبض في بطء، وينبض في تراخ كما يحدث في الحيوانات العليا قبيل موتها. وهذه الظاهرة واضحة في القوقع حيث يوجد القلب في قاع فتحة موجودة في جانبه الأيمن. وهذه الفتحة تنقبض وتفتح كلما قذف بلعابه. وهناك نوع من السمك الشفاف يوجد في نهر التيمس إذا وضع في الماء ظهرت حركة قلبه للعين المجردة ظهورا واضحا وكثيرا ما اشترك أصدقائي معي في مشاهدته.

وإلى جانب اكتشافاته العظيمة في الطب نجد أنه قدم خدمات جليلة أخرى للعلم والأبحاث الطبية وأجلها إجراء التجارب المعملية؛ فوضع بذلك الأسس التي بنى عليها أركان علم وظائف الأعضاء وعلم الطب منذ أكثر من ثلاثة قرون. وخلاصة طريقته كما قال هارفي وبحث ودرس أسرار الطبيعة بوسائل التجربة العملية، والتطبب معروف للعالم منذ آلاف السنين، قبل أن يولد هارفي؛ وقد عرف الأطباء القدماء تشخيص الأمراض التي تصيب الإنسان ووصفوها وصفا دقيقا، غير أن الملاحظة برغم أهميتها، ليست كافية بمفردها، إذ يجوز أن يخطئ فيها الطبيب. وهذا هو الفرق الشاسع بين هارفي ومن سبقه من الأطباء، فلم يقنع بمجرد الملاحظة العابرة، ولم يتأثر بالخرافات الشائعة أو يخضع لرأي قديم، وإنما عمد إلى استنباط فروض ووضعها موضع التجربة والامتحان. فكان بذلك أول من استخدم الوسائل العلمية التجريبية لحل معميات المشاكل البيولوجية منذ عام ١٦٢٨ وقد ترسم خطاه كل من أتى بعده من الأطباء المعروفين.

أما استجابة أهل عصره لنظرياته ففيها شيء من الطرافة، إذ لم يحدث كتابه أية ضجة في عالم الكتب، فلم يهتم به أحد من الناس، وربما كان هارفي أقل الجميع اهتماما. وقد عارضه بعضهم بسبب التعصب أو بحجة المحافظة على القديم. كتب (جون أوبري) عن لسان أحد معاصرى هارفي وهو (ولترويتشل) يقول: "سمعته أي (هارفي) يقول أنه بعد نشر كتابه عن الدورة الدموية هبط عدد مرضاه هبوطا عظيما لأن الناس ظنوا بأنه جن، وأما زملاؤه فكانوا أشد نكاية به.

ونورد هنا رأى أحد مفكري ذلك العصر هو (سير وليم تميل) إذا كتب عن كشف كوبرنيق وكشف هارفي يقول:

"وسواء أكان هذان الكشفان جديدين أو أنهما استقيا من مصادر قديمة فأمر فيه جدل وخلافي، وكذلك الرأي في صواب ما ذهبا إليه أو عدم صوابه. ورغم أن المنطق يبدو أنه يقبلهما أكثر مما يقبل الاعتراض عليهما، إلا أن العقل لا يستطيع التسليم بهما، ولا بد أن يتفق المنطق والعقل معا حتى يقتنع الناس بهما. ولو فرضنا جدلا أن النظريتين صحيحتان فإنهما لم يحدثا حدثا لا في الفلك ولا في الطب ولم يفد العالم منهما إلا قليلا بالقياس إلى ما أفاده المؤلفان من الشهرة وحسن السمعة.

ولم يحفل هارفي بناقديه عادة، ولكن الحملة المستفحلة التي حملتها عليه مدرسة الطب بجامعة باريس أخرجته عن صمته، فقد استطاع (جون ريولان) وهو أستاذ علم التشريح بتلك المدرسة أن يستصدر أمرا بتحريم تدريس نظريات هارفي بها، فاضطر هارفي إزاء ذلك أن يوجه رسالتين إلى (ريولان) ليرد بهما على ادعاءاته واعتراضاته على نظرية الدورة الدموية ونشرت الرسالتان في كتب صغير الحجم عام ١٦٤٩ أي بعد صدور مؤلفة الأول عن حركة القلب بإحدى وعشرين سنة. وفيهما فند هارفي أقوال معارضيه تفنيدا قويا إذ كتب في الرسالة الثانية ناعيا عليهم تخرصاتهم يقول: ولا يكاد يمر بي يوم بل ساعة منذ أن نشر كتابي عن الدورة الدموية إلا وسمعت بخير أو شر يعزى إلى هذا الكتاب؛ فبعضهم يقول فيه أنه طفل ولد عليلا ضئيلا لا يستحق أن يرى النور وغيرهم يرى فيه طفلا يجب

الاعتزاز به وبذل العناية لتنشئته؛ فهؤلاء يكلون له الذم كيلا وأولئك يزجون إليه المدح والإطراء جزافا. وفريق يذهب إلى أنني أوضحت بالمشاهدة والملاحظة وبالدليل العملي حركة الدورة الدموية، رغم وجاهة الحجج التي يعترض بها المعترضون. وفريق آخر يرى أن الأمثلة التي ذكرتها تقصر عن الكفاية، وأن بعض الاعتراضات على نظريتي لا تزال قائمة. واتهمني أناس بأنني مغرم بتشريح الحيوان حيا لمجرد حب الفخر الكاذب ويسخرون مني لاستخدامي الحيوانات الدنيا مثل الضفادع والثعابين والذباب وغيرها لإجراء التجارب. فأما من ناحيتي فإنني أعتبر أن رد الإساءة بالإساءة عمل لا يليق بفيلسوف وباحث عن الحقيقة، وأعتقد أنه من الأصلح والأليق بي أن أرد سفاهة هؤلاء السفهاء بإلقاء المزيد من الضوء على النتائج العلمية الحاسمة في أمانة واطمئنان.

ولحسن الحظ عاش هارفي ليرى رأي العين إجماع العلماء من ذوي الرأي الراجح على صواب نظريته، وليس أدل على ذلك من انتخابه رئيسا لكلية الأطباء في عام ١٦٥٤ أي بعد ثلاث سنوات من وفاته تقديرا له من زملائه.

وفي التأبين المكتوب باللاتينية على قبره نلمح رأي بعض المعاصرين فيه، وهذا نصه:

"وليم هارفي، اسم رفيع بين الأسماء تقف له المحافل العلمية إجلالا واحتراما عند ذكره، هو أول من كشف عن حركة الدم في الجسم بعد أن

ظلت مجهولة آلاف السنين، فأضفى بعمله هذا نعمة الصحة على العالم، وخلد اسمه تخليدا لا يمحوه الزمن. وهو الذي نفى ترهات الفلسفة الزائفة عن نشأة الحيوان ووجوده، وهو صاحب الفضل على الجنس البشري في معرفة ما لم يكن يعلمه، وعلى علم الطب في نشأته ووجوده. الطبيب الأول والصديق المخلص لجلالتي جيمس وشارل ملكى الجزائر البريطانية، وأستاذ التشريح والجراحة بكلية الطب بلندن، حيث جمع فيها مكتبة حافلة ووهب لها وزاد فيها من ماله ومؤلفاته. وبعد حياة مليئة بالجهود وشغف بالملاحظة العلمية والتطبيب والكشف العلمي، وبعد أن أقيمت له التماثيل في وطنه وخارج وطنه وبعد أن دار دورته الكاملة في الحياة معلما للطب وأستاذا للأطباء قضى نحبه دون عقب في اليوم الثالث من شهر يونيه سنة ١٦٥٧ وهو في الثمانين رجلا معمرا ذائع الصيت".

ولم تطرأ على نظرية هارفي إضافات رئيسية جدية، رغم ما تجمع من المعلومات الهائلة عن تركيب القلب والشرايين والرئة. وقد عرف اليوم الكثير عن تركيب القلب في حالتي الصحة والمرض، وعن حركاته المعقدة، وعن وظائف الدم بدرجة لم تكن تخطر على خيال إنسان في عصر هارفي.

ورغم كل ذلك كتب (كيلجور) يقول:

"إن الإضافات المباشرة التي أضافها كشف هارفي إلى الطب والجراحة تفوق كل تقدير. إذ إن كل العمليات التي تجرى لإصلاح الأوعية الدموية التي تلفت أو أصابها المرض، والعمليات الجراحية العلاج ضغط الدم

والمرض التاجي وغيرها، لا تزال قائمة على أساس كشوفه، وعلم وظائف الأعضاء العام على وجه الخصوص مدين له بالفضل لأن فكرة الدورة الدموية هي الأساس فيما نعرفه اليوم عن التوازن الداخلي للجسم؛ فلا يخفى أن الدم هو السائل الذي يتوقف عليه مدار الجسم وهو الذي كشف هارفي عن دورنه بثاقب فكره".

ولعل أحدا لم يوجز حياة هارفي العلمية وأهميتها لتقدم الطب بمثل ما أوجزها (سير وليم أوزلر) وهو من كبار الأطباء في العصر الحاضر. قال سير وليم عن كتاب هارفي في خطابه السنوي في الكلية الطبية الملكية بلندن عام ١٩٠٦:

"إنه الحد الفاصل بين العرف القديم والروح الحديثة، فلم يعد العلماء يقنعون بمجرد الملاحظة ودقة الوصف والتشخيص، ولم يعد العلماء يقنعون بالنظريات المزوقة والأحلام الواهية التي "يتستر وراءها الجهل" فها هنا قام رجل لأول مرة بحث معضلة من أكبر المعضلات المتصلة بوظيفة عضو من أعضاء الجسم باستخدام التجربة، رجل ذو عقلية علمية تقدمية يزن الأدلة وزنا لا شطط فيه ولا يتعجل النتائج، وإنما يجعلها تتولد وئيدا، وتتكون تكونا طبيعيا من مجموع أبحاثه وملاحظاته. فانتهى عصر السماع والرواية والنقل بالإذن، وأعقبه عصر المشاهدة بالعين والوقوف عند حد الاقتناع بالنظر، ثم جاء عصر استخدام اليد، تلك اليد المفكرة التي تضع الخطط كأداة من أدوات العقل، جاءت لتقدم للعالم كتابا متواضعا في اثنتين وسبعين صفحة كان إيذانا بقيام عصر الطب التجريبي الحديث.

نظام العالم الأرضي :

١٣ ـ كتاب القواعد الرياضية

سلر أيزاك نيوتن

لم يحدث أن كتابا من بين الكتب التي تركت أثرا عميقا في شئون البشر اشتهر بمثل ما اشتهر كتاب (القواعد الرياضية في الفلسفة الطبيعية) على قلة عدد قرائه، فقد تعمد مؤلفه أن يصيغه في لغة لاتينية عويصة المصطلحات، واستكثر فيه من الأشكال الهندسية المعقدة، ولهذا اقتصر الاطلاع عليه على عدد محدود جدا من أفذاذ علماء الفلك والرياضيات والطبيعة.

قال أحد مؤرخي حياة نيوتن أنه عندما نشر كتاب (القواعد) في الربع الأخير من القرن السابع عشر لم يكن هناك من يستطيع فهمه أكثر من ثلاثة أو أربعة من الأحياء، وقد تفضل كاتب آخر بزيادة هذا العدد إلى عشرة أو اثنى عشر. وقد اعترف المؤلف بأنه "كتاب عسير، ولم يلتمس لذلك عذرا لأنه تعمد أن يضعه في هذا القالب، ولم يكتبه لغير المتضلعين في الرياضيات.

ورغم ذلك كله فإن رجال العلم يعتبرون نيوتن من أعظم شخصيات المفكرين في جميع الأزمان. وقد وصف (لابلاس)، وهو فلكي فرنسي ممتاز، ذلك الكتاب بقوله: "إنه أعظم ما أنتجته العبقرية البشرية، كما وصف (لاجرانج) وهو رياضي مشهور، نيوتن بأنه أعلم عبقري عاش في هذا العالم، وكذلك اعتبر العالم الرياضي (بولتزمان) الكتاب أول وأعظم ما كتب في الطبيعة النظرية. وأبدى فيه (كامبل)، وهو فلكي أمريكي مشهور، رأيه فقال: "في رأيي أن نيوتن وهو بلا منازع أعظم علماء الطبيعة في العصور التاريخية جميعا كان بمفرده الرائد الأول في علوم الطبيعة الفلكية، وقد تواتر مثل هذا الإطراء البالغ من مشاهير علماء العلوم طيلة قرنين ونصف القرن. فلا مندوحة لغير علماء الرياضة سوى التسليم بصواب هذه الآراء ثقة بقائليها وعلى أساس ما أدت إليه من النتائج.

ولد نيوتن بعد مائة عام من وفاة كوبرنيق، وفي نفس العام الذي توفي فيه جاليليو، فكانت أعمال هؤلاء العمالقة في عالم الفلك إلى جانب اكتشافات (كبلر) العلمية أساسا ورثه عنهم نيوتن وعليه شيد وزاد.

لقد كان نيوتن ساحر عصره في الرياضيات في زمان ازدحم علماء الرياضيات الموهوبين. أشار (مارفن) إلى ذلك بقوله: إن القرن السابع عشر كان عصر ازدهار الرياضيات، والقرن الثامن عشر عصر ازدهار الكيمياء، كما كان القرن التاسع عشر عصر علم الأحياء، ولكن العقود الأربعة الأخيرة من القرن السابع عشر تميزت بخطى واسعة في التقدم العلمي أكثر من أي عصر في التاريخ.

وقد جمع نيوتن في شخصه العلوم الطبيعية الكبرى، وهي الرياضيات والكيمياء والطبيعيات والفلك، ولم يكن غريبا أن يشتغل العالم بكل هذه العلوم في القرن السابع عشر لأنه سابق على عصر التخصص المتناهي.

ولد نيوتن في يوم عيد الميلاد عام ١٦٤٢ فرأى في صباه نهوض حكومة (كروموبل) وسقوطها، ورأى الحريق العظيم الذي دمر مدينة لندن، وكذلك أحداث الطاعون العظيم الذي قضى على ثلث سكانها. وبعد أن أمضى ثمانية عشر عاما في قريته الصغيرة (وولزثورب) التحق بجامعة كمبردج، حيث تلقى علومه على يد أستاذ جليل في الرياضيات، فكان خير مرشد وموجه له هو الأستاذ (إيزاك بارو) ويدعى بحق (الأب الروحي) لنيوتن ، ودأب (بارو) على تشجيع نيوتن وحضه على العمل لما لمسه فيه من الذكاء المتوقد، فكشف نيوتن وهو لا يزال بعد طالبا عن النظرية ذات الحدين.

وأغلقت جامعة كمبردج أبوابها عام ١٦٦٥ بسبب وباء الطاعون، فاضطر نيوتن أن يعود إلى قريته وقضى فيها العامين التاليين مقطوعا عن العالم الخارجي، وانصرف في تلك المدة إلى الاشتغال بالتجريب العلمي وإلى التفكير والتأمل، وحصل من ذلك على نتائج باهرة. وقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره كان قد توصل إلى ثلاثة كشوف عظيمة تجعله في مصاف ذوي أكبر العقول العلمية في جميع العصور. وكان أول هذه الكشوف اختراعه لعملية حسابية سميت (حساب التفاضل) لحساب الكميات المتغيرة، وكذلك يدخل هذا النوع من الحساب في كل المسائل

المتعلقة بحركة الأجسام والأمواج، وهو ضروري لحل المسائل الطبيعية الخاصة بأي نوع من أنواع الحركة، فكان اكتشافه كان مفتاحا لخزائن الرياضيات وكنوزها جعل عالم الرياضة في متناول يد نيوتن وأتباعه.

وكان ثاني هذه الكشوف الكبرى وضعه لقانون (تركيب الضوء) ومنه استطاع أن يحلل طبيعة اللون والضوء الأبيض، وأثبت أن الضوء الأبيض المنبعث من الشمس يتركب من أشعة ضوئية من جميع ألوان قوس قزح، فاستنتج أن اللون من خصائص الضوء، وأن ظاهرة الضوء الأبيض ما هي الا خليط من جميع ألوان الطيف، واستدل على ذلك بما أجراه من تجارب بمنشور بللورى. وعلى أساس المعلومات التي ترتبت على هذا الكشف استطاع نيوتن أن يركب أول منظار مقرب عاكس.

أما الكشف الثالث فكان أهم كشوفه وهو القانون العام للجاذبية، ذلك القانون الذي أثار اهتمام العلماء أكثر من أي نظرية أخرى في الأزمنة الحديثة. روي أن الفكرة هبطت عليه عندما شاهد سقوط تفاحة، فصاغ ذلك القانون. ولم تكن فكرة اجتذاب الأرض للأجسام القريبة من سطحها شيئا جديدا، ولكن الجديد الذي تقدم به نيوتن هو قوله بأن الجاذبية قانون طبيعي ثابت عام يصدق على الأجرام السماوية، كما يصدق على الأرض، ثم دلل على صحة نظريته بالبراهين الرياضية.

ومن العجيب ألا ينشر نيوتن شيئا في ذلك الوقت عن كشوفه الثلاثة الخاصة بالتفاضل واللون والجاذبية لأنه كان عزوفا منطويا على

نفسه، يعاف الإعلان والجدل، ولهذا فضل أن يكتم نتائج تجاربه، فلم ينشر شيئا ما إلا تحت ضغط شديد وإلحاح من أصدقائه، ثم أنه تندم بعد ذلك لانصياعه إلى إلحافهم. وكان من الطبيعي أن يثور النقد والجدل حول مؤلفاته بين زملائه من العلماء، وهذا أشد ما كان يمجه ويمقته نيوتن لشدة حساسيته.

ولما خرج من عزلته التي فرضتها عليه سنون الوباء، عاد أدراجه إلى كمبردج حيث نال درجتها العلمية وعين زميلا بكلية (ترنيتي) ثم حدث أن تقاعد أستاذه القديم (بارو) فعين نيوتن في كرسيه أستاذا للرياضيات، وهو لا يعدو السابعة والعشرين. وظل يشغل هذا المنصب في كمبردج طوال السبعة والعشرين عاما التالية. ولم يكن له شأن يذكر في العقدين التاليين لتعيينه، ولكن المعروف أنه ظل يواصل تجاربه، فنشر بحثا علميا في خصائص الضوء الأبيض وطبيعة تكوينه، وسرعان ما اشتبك في جدل ومناقشات بسبب أن النتائج التي أعلنها في موضوع الضوء تناقض ما كان معروفا في عصره. وثانيا أنه ضمن بحثه رأيا عن فلسفة العلم، فحواه أن مهمة العلم الرئيسية إجراء تجارب ذات هدف مقصود دون ارتجال، ثم الدقة في تدوين جميع الملاحظات عنها، ويجب أن تنتهي هذه إلى وضع قوانين رياضية على أساس حاصل نتائجها. وقد أفصح عن ذلك بقوله: "إن الأسلوب الصحيح في البحث عن خواص الأشياء هو استقراؤها من واقع التجارب"

وتلك القواعد، التي تتفق اتفاقا تاما مع البحث العلمي الحديث في أيامنا، لم تكن مقبولة في عصره، حيث كانت ترجح كفة المعتقدات الوهمية والحجج اللسانية والتسليم بظواهر الأشياء دون بواطنها، وكلها أقوال متوارثة عن الفلاسفة القدماء يفضلها علماء ذلك العصر على الأدلة التجريبية.

وكان من أثر تهجمات كبار العلماء عليه أمثال (هويجنز) و(هوك) أن ثارت ثائرته واشتد غضبه لحد جعله يضرب عن نشر أي شيء حتى يتحاشى مثل ذلك العنت في المستقبل. قال في ذلك: "لقد أرهقتني المجادلات والمناقشات التي ثارت حول نظرية الضوء عند نشرها فأنحيت باللائمة على نفسي للحماقة التي ارتكبتها، إذ بعت نعمة الهدوء في سبيل السعي وراء الخيال والأوهام، وعبر في معرض آخر عن مقته للعلم وعن فقدانه كل ميل إليه، إلا أن أصدقاءه دأبوا بعد ذلك على حثه تارة بالإغراء وتارة بالإلحاف كي يكتب أعظم مؤلفاته وهو كتاب (القواعد الرياضية) والظاهر أن تأليف ذلك الكتاب حدث بمحض الصدفة لا أكثر ولا أقل.

وفي عام ١٦٨٤ استطاع العالم (بيكار) بواسطة عمليات حسابية أن يقيس محيط الأرض لأول مرة، فاقتبس نيوتن النتائج التي وصل إليها العالم الفلكي الفرنسي وطبق عليها نظرية الجاذبية ليبرهن على أن القوة التي تدفع القمر للدوران حول الأرض وتدفع الكواكب للدوران حول الشمس هي قوة الجاذبية. وتلك القوة تختلف مباشرة باختلاف حجم الجسم الذي

تقع عليه الجاذبية. وتلك القوة تختلف مباشرة باختلاف حجم الجسم الذي تقع عليه الجاذبية. وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما. واستطرد نيوتن يدلل على أن الجاذبية هي السبب في الشكل البيضي لمدارات الكواكب، وأن قوة الجاذبية هي التي تمسك القمر والكواكب في مداراتها فتوازن القوة المركزية الطاردة لحركات الكواكب.

ومع هذا لم يرفع نيوتن النقاب عن أعظم كشوفه في أسرار الطبيعة، وكان علماء آخرون يشتغلون للوصول إلى حل نفس المسألة، وأبدى بعضهم اعتقاده بأن الكواكب ترتبط بالشمس بقوة الجاذبية. وكان أحدهم (روبرت هوك)، وهو أشهر الفلكيين تنديدا وإمعانا في نقد نيوتن. ولكن أحدا من هؤلاء النظريين لم يستطع تقديم برهان رياضي على صحة فرضه. وفي تلك الآونة كانت شهرة نيوتن – بوصفه عالما في الرياضيات – قد ذاعت واستطارت حتى زاره في كمبردج الفلكى (إدمند هالي) طالبا مساعدته في إيجاد حل لظاهرة الجاذبية؛ فلما شرح (هالي) المسألة لنيوتن فوجيء: بأن هذا كان قد انتهى فعلا من حل تلك المسألة منذ سنتين، وزاد عليها بوضع قوانين لحركة الأجسام المتحركة تحت تأثير قوة الجاذبية. ومع هذا فلم يكن في نية نيوتن مطلقا نشر نتائج أبحاثه.

وأدرك هالي لتوه الأهمية العظمى لأعمال نيوتن، وأقنعه – رغم عناده – بكل وسيلة في استطاعته، أن يسير قدما بكشفه حتى يصل إلى نتائج عملية مجدية؛ فتأثر نيوتن بتحمس (هالي) له وعاد إليه شوقه القديم للعلم، فعكف على كتابة أنفس كتبه وهو (القواعد) الذي وصفه (لانجيه) بقوله:

"إنه ينبوع للفلسفة الميكانيكية وكتاب من أعظم ما كتب في الإبداع الفكري قاطبة".

وأعجب ما يعجب له الإنسان في تأليف ذلك الكتاب أنه تم وانتهى في ثمانية عشر شهرا، غرق أثناءها نيوتن إلى أذنه فيه حتى نسي الطعام والشراب والنوم إلا قليلا. ولولا قوة الفكر وتركيزه وشدة الجلد لما استطاع أن يخرج ذلك الصرح الشامخ العبقرية والذكاء في مثل تلك الفترة القصيرة من الزمن، والواقع أنه أرهق نيوتن إرهاقا ذهنيا وجسمانيا شديدا.

وفي الفترة التي اشتغل فيها نيوتن بتأليف كتابه عكرت عليه صفوه المساجلات والانتقادات، وبخاصة من جانب (هوك) الذي ادعى لنفسه الفضل في ابتكار النظرية التي تقول بأن حركة الكواكب يمكن تفسيرها بقانون التناسب التربيعي العكسي للجاذبية. وكان نيوتن إذ ذاك قد انتهى من وضع ثلثي كتابه فأغضبه ما ادعاه (هوك) لنفسه بغير حق، فهدد بعدم نشر الثلث الباقي من كتابه، وهو أهم أجزائه غير أن (هالي) عاد فأثر على نيوتن وأقنعه بإتمام الكتاب حسب التصميم الأصلي.

والحق أن الدور الطويل الذي قام به (هالي) في تاريخ إخراج كتاب (القواعد) يستحق كل تقدير وإعجاب، فلم يقتصر فضله على حث نيوتن لإخراج مؤلفه في بادئ الأمر، بل زاد عليه بأن اتفق مع الجمعية الملكية أن تولى طبع الكتاب على نفقتها، وتعهد هو بمراجعة الأصول المطبوعة مضحيا في ذلك بجميع مشاغله الخاصة. فلما نقضت الجمعية ذلك

الاتفاق تقدم (هالي) ودفع جميع نفقات الكتاب من جيبه الخاص علما بأنه كان رجلا متوسط الحال ورب أسرة كبيرة.

ولما ذللت جميع تلك العقبات خرج الكتاب من المطبعة للجمهور في عام ١٦٨٧ في حجم صغير وبعت النسخة منه بعشرة أو اثنى عشر شلنا، ونشر بموافقة من (صويل بيبس) وهو رئيس الجمعية الملكية العلمية إذ ذاك، وقد أشار أحد المعلقين إلى ذلك بقوله: "على إنه من المشكوك فيه إذا كان (واضع المذكرات) المعروف بعلمه (يشير إلى بيبس) استطاع أن يفهم حرفا واحدا من الكتاب".

أما تلخيص هذا الكتاب دون استعمال المصطلحات العلمية فأمر مستحيل، إلا أنه من المستطاع إلقاء الأضواء على بعض أجزائه المهمة. والكتاب في مجموعه يختص بحركة الأجسام وتوضيحها توضيحا رياضيا، وخاصة تطبيق قواعد علم الحركة (الديناميكا) والجاذبية الكونية على المجموعة الشمسية. ويبدأ بشرح حساب التفاضل الذي ابتكره نيوتن واستعمله لإجراء العمليات الرياضية الواردة في كتابه، وتبع ذلك تعريفات للفضاء والزمان وذكر القوانين الحركة كما صاغها نيوتن مع أمثلة توضح تطبيقها. والقانون الأساسي فيه أن كل ذرة من المادة تجذبها كل ذرة أخرى من المادة بقوة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما. وكذلك القوانين التي تحكم في الأجسام المتصادمة كل ذلك موضحا بأشكال هندسية.

ويبحث القسم الأول من الكتاب في حركة الأجسام دون مقاومة، ويبحث القسم الثاني منه في الحركة في مادة ذات مقاومة مثل الماء. ويبحث القسم الأخير منه في المسائل المعقدة لحركة السوائل وحلولها، وكذلك بحث الطرق لتحديد سرعة الصوت، وحركات موجاته، وشرحها بالعمليات الرياضية، وبذلك يكون نيوتن قد وضع الأساس الحديث لعلوم الطبعة الرياضية و(الهيدروستاتيكا) و(الهيدروديناميكا).

وهدم نيوتين في القسم الثاني نظرية (ديكارت) عن نظام الكون، وكانت النظرية الذائعة إذ ذاك. وتتلخص نظرية (ديكارت) في أن حركة الأجسام السماوية ناشئة من وجود دوامات في الفضاء لأنه مملوء بمادة رقيقة جدا تتكون في بعض أجزائها دوامات، وقرر أن النظام الشمسي يتركب من أربع عشرة دوامة أكبرها تحتوي الشمس، وأما الكواكب فتدور كالشظايا في حركة دائرية سريعة حولها. وكانت نظرية الدوامات التي قال بها (ديكارت) هي التفسير الذي فسر به قوة الجاذبية فأثبت نيوتن بالتجربة وبالعمليات الحسابية أن نظرية الدوامات تناقض الحقائق الفلكية تناقضا تاما، وأنها تقصر عن تفسير حركة الأجرام السماوية فضلا عن اختلالها.

وأما الجزء الثالث المسمى (نظام الكون) فهو أفضل أجزاء الكتاب، حيث ظهرت عظمة نيوتن في شرح النتائج الفلكية المترتبة على قانون الجاذبية، قال:

"لقد وصفت في الأجزاء السابقة قواعد علمية ليست فلسفية وإنما رياضية وهي القوانين الخاصة بنوع معين من الحركة والقوى، وقد أوضحتها هنا وهناك بأمثله من الظواهر الطبيعية العامة مثل كثافة ومقاومة الأجسام وسرعة الضوء والصوت. وعلى أساس تلك القوانين سأتولى شرح الإطار العام لنظام الكون.

ثم وضح نيوتن السبب في أنه يتبع التبسيط في كلامه ولم يلتزم في تأليفه أسلوبا سهلا مسلسلا، قال:

وفي هذا الشأن كنت قد كتبت الجزء الثالث، ولم ألتزم في تأليفه البساطة حتى يفهمه الناس ولكني عدت فترويت فوجدت أن أولئك القراء الذين لم يستطيعوا تفهم القوانين السابقة في هذا الكتاب لن يتبينوا بالتبعية قوة النتائج المترتبة عليها، ولن يقلعوا عن سابق اعتقاداتهم التي تعودوها من زمن بعيد، ولذلك عدلت عما كتبته وعولت أن أوجز هذا الجزء فجعلته في صورة قضايا حسابية لا يفهمها غير أولئك الذين أدركوا القوانين التي وضعتها في الأجزاء السابقة. ولست أنصح أحدا أن يعاني فهم تلك القوانين لأن فهمها عسير يستغرق زمانا طويلا، حتى ولو كان القارئ غزير المادة في العلوم الرياضية.

ولهذا السبب وصف أحدهم أسلوب الكتاب بأنه "غاية في السماجة جاف العبارة كأنه موعظة كاهن من كبار الكهنة" وقدم نيوتن لهذا الجزء

بعبارة حطم بها كل معتقدات الماضي إذ أصر على أنه لا يوجد أي فرق بين الظواهر الأرضية والسماوية، قال:

"أن الظواهر الطبيعية المتشابهة تنشأ عن أسباب متشابهة، فالتنفس في الإنسان والحيوان واحد، وسقوط حجر في أوربا وأمريكا واحد، واشتعال النار في الموقد واتقاد الشمس واحد، وانعكاس الضوء على الكرة الأرضية وعلى الكواكب واحد، لا تختلف عن بعضها في شيء. وبهذا نفي ما قر من قديم في أذهان الناس من وجود عوالم أخرى أكمل نظاما وأوفى خلقة من عالمها الأرضي، كما أثبت أنه لا يوجد غير قانون واحد عادل يسري عليها جميعا. وصفه (ماكموري) بقوله: "إن نيوتن أوجد فيها نظاما وتنسيقا بعد التخبط والغموض اللذين كانا يقترنان بها في الأذهان".

ومجرد سرد الموضوعات الرئيسية التي يشملها الجزء الثالث من كتابه يدعو إلى الدهشة حقا، فهي تتناول حركة الكواكب ودوران توابعها حولها، وطرق قياس كتلة الشمس والكواكب، وكثافة الأرض، والاعتدالين، ونظرية المد، ومدارات المذنبات، وحركة القمر، هذا إلى جانب موضوعات أخرى متصلة بها ناقش مسائلها وأورد حلولها.

وبرهن بنظريته التي سماها (نظرية المجاذبة) أن القمر يتجاذبه كل من الشمس والأرض، ولذلك يحدث انحراف في مدار القمر بسبب اجتذاب الشمس له، على أن قوة جاذبية الأرض للقمر أشد وأقوى، ويشاهد ذلك أيضا في الكواكب. كما أثبت أن الشمس ليست المركز الثابت للكون،

وهو عكس الاعتقاد السائد، وأنها هي بدورها تقع تحت تأثير جاذبية الكواكب الأخرى لها بمثل ما تجذبها إليها. وفي القرون التالية كان من نتائج تطبيق نظرية (المجاذبة) هذه أن كشف عن كوكبي نبتون وبلوتو.

واتخذ نيوتن كتلة الأرض وحدة لقياس كتلة الشمس وكتلات الكواكب، وقدر أن كثافة الأرض تساوي خمسة أو ستة أمثال كثافة الماء (والرقم الحديث الذي اتفق عليه العلماء هو ٥.٥) وعلى هذا استطاع نيوتن أن يقدر كتلة الشمس والكواكب ذات التوابع. وقد وصف آدم سمث ذلك العمل بقوله: "إنه يفوق طاقة العقل البشري بكل خبراته".

ثم أثبت أن الأرض ليست تامة الاستدارة إذ أنها مفرطحة عند القطبين بسبب دورانها حول نفسها، وقاس الفرق الناشئ من ذلك، وبسبب بروز الكرة الأرضية الخفيف عند خط الاستواء وفرطحتها عند طرفي القطبين قدر نيوتن أن قوة الجاذبية عند القطبين أضعف منها عند خط الاستواء، وهي ظاهرة ينشأ عنها الاعتدالان، وتحرك محور الأرض حركة مخروطية تشبه حركة (الجيروسكوب)، كما قرر أنه يستطاع بدراسة شكل الكوكب تقدير طول النهار والليل به.

وتمكن نيوتن بواسطة قوانين الجاذبية أن يكشف كذلك عن سبب حركتي المد والجزر؛ فأثبت أن القمر عندما بلغ تمامه تصل جاذبيه الماء الأرض أقصى درجاتها ونشأ عنها موجة المد، وكذلك للشمس تأثير على المد. وعندما يتحاذي القمر والشمس تصل الموجة إلى أقصى ارتفاعها.

ومن الموضوعات التي تثير اهتمام الناس ظاهرة المذنبات، وهو موضوع عني نيوتن بتوضيحه، فقرر في نظريته عنها بأن المذنبين واقعان تحت تأثير جاذبية الشمس، وهي لذلك تدور في مدارات بيضية عظيمة تستغرق دورتها الكاملة عدة سنين. ومنذ أن أخذت المذنبات مكانها بين الأجرام السماوية العادية، بعد أن كان الناس يتشاءمون بظهورها في السماء، واستطاع (إدمند هالي) بتطبيق نظرية نيوتن هذه، أن يرصد ويحدد بالضبط عودة (مذنب هالي) إلى الظهور كل خمسة وسبعين عاما. وأصبح من اليسير بمجرد رصد أي مذنب أن يحدد مداره بكل دقة.

ومن اكتشافاته العجيبة ابتكاره لطريقة قياس بعد أي نجم ثابت على أساس كمية ضوء الشمس التي تنعكس من سطحه.

ولم يحاول نيوتن أن يذكر العلل التي جعلت الكون على ما هو عليه، وإنما ذكر كيف يبدو الكون فقط. ولما هاجمه النقاد واتهموه بأن نظرياته ميكانيكية لا روحانية فيها، مجردة عن الأسباب الأزلية الأولى للخليقة وعن خالق مبدع للكون، اضطر نيوتن أن يضيف إلى الطبعة الثانية من كتابه نصا يدل على تدينه وإيمانه بالله إذ قال: "ولا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام البديع للشمس والكواكب والنجوم الا من فيض عقل كائن جبار، و نحن فيه أشبه بالضرير الذي لا يدرك الألوان، ولهذا فإننا لن نستطيع مطلقا إدراك إرادة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلق الكائنات".

وفي رأيه أن المهمة الرئيسية للعلم هي الاستزادة من العلم . وكلما زاد علمنا صرنا أقرب إلى فهم البواعث والأسباب الأولى. وأغلب ظنه أنه لن يصل الإنسان يوما ما إلى كشف حقيقة جميع القوانين العلمية الثابتة التي تتحكم في الطبيعة.

ورغم أن كتاب "القواعد" من الأعمال المجيدة فإن أشد أنصار نيوتن يعترفون بأن الكتاب لم يتخلص من آثار الماضي كما قال (كوهين) في ذلك:

"إن الكتاب بكل ما فيه من النظريات مبني على أساس مؤلفات السابقين من العلماء فقد ابتدع ديكارت وفرمات قبله مباشرة الهندسة التحليلية، كما وضع المعادلات الجبرية أوغترد، وهايو، وليس.. ثم جاء كيلر بقوانينه عن الحركة، وبالمثل (غاليليو) في قوانين سرعة الأجسام الساقطة ولا ننسى قانون غاليليو في تركيب السرعة وهو القانون الذي ينص على أن الحركة يصح أن تنقسم إلى أجزاء مقومة، كل جزء منها مستقل عن الآخر فمثلا تنقسم سرعة قذيفة ما إلى سرعة في اتجاه مستو ثم إلى سرعة في اتجاه منحن نحو سطح الأرض تزايد كلما اقتربت منه، وهو نفس ما يحدث لأي جسم يسقط سقوطا طبيعيا من ارتفاع ما؛ فكل تلك المعلومات السابقة كانت تنتظر عقل نيوتن لتركيبها ومزجها ليجعل منها كلا واحدا، ويضفي عليها سمة الكمال ليبرهن بصفة حاسمة الكيفية التي تتحكم بها القوانين الرياضية الثابتة في نظام هذا الكون المنسق المتسق.

قال (جينز) في وصف نيوتن أن العالم كان ينتظر رجلا ذا عقل قوي الذهن يستطيع أن ينظم ويركب ويبني صرحا موحدا لكل ما جمعه الماضي من العلم، وقد وجد طلباته في عقل نيوتن.

وقد اعترف نيوتن أن "نظام الكون" الذي قال به، أو بعبارة أخرى: آليته، مستمد من الأبحاث التي وصل إليها (كوبرنيق) ثم وسعها وطايخوبراهي، وكيلر، و"جاليليو" إذ قال: "إذا كنت قد رأيت أبعد مما رأى غيري، فذلك لأني كنت أقف على أكتاف العمالقة"

والواقع أن سبب قيام المجادلات والمناقشات الحادة التي أقضت مضجع نيوتن هو وجود تلك الفورة الذهنية المستنيرة التي يتميز بها ذلك العصر؛ فقد كان الجو العلمي زاخرا بالآراء والنظريات الجديدة التي عكف على دراستها الكثيرون من أفذاذ العلماء، ولهذا لم يكن من المستغرب أن يكشف عالمان عن نظرية بالذات في وقت واحد مع استقلال كل منهما استقلالا تاما عن الآخر في أبحاثه. وهذا ما حدث فعلا في مسألتين ثار حولهما الجدل بينه وبين اثنين من العلماء هما (لايبنتز) و(هوك)؛ فالأول اخترع حساب التفاضل والتكامل والآخر تقدم بنظريته عن الجاذبية الكونية في زمان متأخر عن كشف نيوتن لهما، الا أن الكشفين أعلنا للعالم قبل أن يعلن نيوتن كشفيه لأنه أهمل في نشرهما..

وكانت استجابة المعاصرين لكتاب "القواعد" في إنجلترا واسكتلنده أحسن منها على القارة الأوروبية، وإن كانت الاستجابة بطيئة فعلا في كل

مكان، وذلك بسبب ما قدره نيوتن من أن فهم كتابه يتوقف على التضلع في الرياضيات. وقد اعترف الجميع، حتى أولئك الذين ليس لديهم فكرة واضحة عن نظرياته، بأنه قام بأجل الخدمات للعلم، وطفق العلماء يؤيدون نظرياته تدريجيا، فلم يطلع القرن الثامن عشر حتى تأيدت مكانته في دنيا العلوم.

وبعد أن نشر نيوتن كتابه (القواعد) يبدو أنه فقد ميوله للبحث العلمي رغم أنه عاش بعد نشر كتابه ذاك أربعين عاما؛ وفي تلك الفترة الطويلة أغدقت عليه ألقاب علمية عديدة فعين مديرا لدار سك النقود وأنعمت عليه الملكة (آن) بلقب (سير) وانتخب رئيسا للجمعية العلمية الملكية من ١٧٠٣ إلى ١٧٢٧ وهو تاريخ وفاته، وقد رأى بعينيه الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه، وجملة القول: فقد ظلت جميع المحافل العلمية تنظر إليه بعين الإكبار والإجلال.

وقد عدلت الاكتشافات الحديثة في القرن العشرين نظريات نيوتن، وخاصة في علم الفلك، وليس ذلك فقط، بل أظهرت خطأها وضعفها؛ فمثلا جاء آينشتاين بنظرية النسبية، وقرر أن الفضاء والزمن ليسا مستقلين كما اعتقد نيوتن. ورغم هذا، فقد استطاع العلم والفنون الصناعية (التكنولوجيا) أن تشيد ناطحات السحاب، وبناء كباري السكك الحديدية، وإصلاحها، وسرعة السيارة، وطيران الطائرة، وجريان السفن البخارية في المحيطات، وقياس الزمن، وشتى مظاهر المدنية الحديثة، ما تزال كلها قائمة على أساس نظريات نيوتن. قال (سير جيمز جينز) في

معرض كلامه عن نيوتن: "قد لا تفي نظرياته بالغرض في عصرنا حيث بلغ العلم من الدقة مبلغا لم يصل إليه من قبل، ولكن إذا أراد أحد الفلكيين أن يضع تقويما بحريا أو يبحث في حركة الكواكب، فلا معدي له من أن ينبع الأساليب التي ابتدعها نيوتن بالذات. كما أن المهندس الذي يقوم ببناء كوبري أو سفينة بخارية أو قاطرة، لا بد له أن يقوم بعمله مراعيا آراء نيوتن حتى ولو لم يشت بعد أن آراء نيوتن غير كافية بالغرض، وينطبق ذلك على المهندس الكهربائي سواء أكان يصلح تليفونا أو يصمم بناء محطة كهربائية ذات حمولة عالية؛ فالعلوم التطبيقية في حياتنا اليومية كلها مستمدة من نيوتن، ومن المحال أن نصل إلى تقدير ما ندين به لإبداع عقله النافذ لأنه وجهها الوجهة الصحيحة بشكل ثابت ونافع يجعل الذين يزاولون أساليبه وطرقه عن دراية لا يشكون لحظة في صوابها.

وحسبنا الإطراء الذي وجهه (آينشتاين) إلى نيوتن، فإنه كافٍ وحده لأن يبدد كل شك في تفوق فلسفته على غيرها من الفلسفات، إذ قال: "وكانت الطبيعة أمامه كتابا مفتوحا يقرؤه دون عناء، فقد جمع في شخصه الواحد العالم الخبير بالتجربة، والعالم النظري المبدع، والعالم العملي، وأخيرا، وليس آخرا، الفنان المتصوف باللفظ والعبارة".

ويجدر بنا أن نورد هنا تقدير نيوتن لنفسه في أواخر حياته، وهو تقدير يدل على ما اتصف به من التواضع إذ قال: "ما علمت قط ولا أخالني أعلم رأي الناس وظنونهم في شخصي، ولكني أعلم عن نفسي أني أشبه بغلام يلهو على شاطئ بحر واسع أسبح في ماء ساحله بين حين

وآخر، فأعثر على حصاة ملساء أنعم ملمسا من إخواتها، أو صدفة أجمل من غيرها، بينما يترامى تحت ناظري خضم شاسع من الحقيقة لا أدرك عنه شيئا".

بقاء الأصلح:

١٤ ـ كتاب أصل الأنواع

تشارلس داروين

من عجائب الصدف أن يكون عام ١٨٠٩ عاما يتميز عن بقية الأعوام في التاريخ بكثرة عدد من ولد فيه من العظماء في العالم، الذين قدر لكل منهم أن يلعب دورا مشهورا، ونخص بالذكر منهم اثنين، هما تشارلس داروين الملقب بنيوتن علم الأحياء، وأبراهام لنكلن الملقب بالمحرر الأعظم، فإنهما ولدا في يوم واحد وفي ساعة واحدة تقريبا. وأما الآخرون الذين رأوا النور في ذلك العام فأشهرهم (غلادستون) و(تنيسون) و(إدجار ألان بو) و(أوليفر وندل هولمز) و(إليزابث بارت براوننج) و(فليكس مندلسون)

ومن بين الملايين الذين ولدوا في القرن التاسع عشر لم يحدث أن أحدا منهم، باحتمال استثناء (كارل ماركس) فعل ما فعله داروين في تغيير اتجاه التفكير البشري، وفي توجيه النظر إلى الشئون الإنسانية وجهة جديدة، وقد أخذت الداروينية اليوم مكانتها في عقول الناس إلى جانب مذاهب الماركسية والمالتوسية والمكيافللية.

ورغم أن القواعد الرئيسية في نظريات داروين أصبحت في العصر الحاضر جزء لا يتجزأ من دنيا العلوم، فطالما ثارت حولها عواصف الجدل طوال قرن من الزمان، وبلغ النزاع بشأنها أشده في السنوات العشرين من أوائل القرن الحالي، بين أنصار القديم والحديث. وبلغت ذروتها في قضية (سكوبس) أو قضية (القردة) بولاية (تنسي)، وهي من أشهر حوادث ذلك النضال الذي بدأ عام ١٨٥٩، ولم تخف وطأته بين الفريقين إلا حديثا جدا.

ولم تبد على داروين في شبابه أية أمارة تنبئ بأنه سيكون يوما ما من أشهر مشاهير العلماء، إنه ولد حقا في أسرة اشتهرت بالعلم، واشتغل أفرادها بالمهن الرفيعة، غير أن والده كان ضعيف الأمل في أن ابنه يصلح لمباشرة أي عمل ما؛ ففي المدرسة الثانوية استولى على داروين الملل والسأم من دراسة اللغات القديمة، وثقل عليه البرنامج التقليدي بها، حتى وجه إليه مدير المدرسة عبارات التأنيب على تضييع وقته عبثا في التجارب الكيمائية وجمع الحشرات والمعادن. ثم التحق بجامعة أدنبره وهو في سن السادسة عشرة لدرس العلم، محتذيا في ذلك حذو أبيه، وبعد أن قضى عامين تبين له أنه لم يخلق لمهنة الطب فانتقل إلى جامعة كمبردج ليصير قسيسا في الكنيسة الإنجليزية، وقد اعتبر داروين فيما بعد السنوات الثلاث التي قضاها هناك وقت ضاع من عمره، ولكن عوضه حسن حظه عنها بصحة أستاذين عظيمين من ذوي النفوذ في الجامعة توطدت بينه وبينهما أواصر الصداقة هما (هنسلو) أستاذ علم النبات و(سدجويك) أستاذ علم

الجيولوجيا، فأمضى معظم وقته بصحبتهما في رحلات اشتغل فيها بجمع الحشرات وتدوين مشاهدات وملاحظات في التاريخ الطبيعي.

واستطاع داروين بمساعدة سدجوك أن يحصل على وظيفة خبير في العلوم الطبيعية على ظهر سفينة تسمى (بيجل) في رحلة علمية استطلاعية طويلة إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. وكان داروين كلما نظر إلى الوراء عبر السنين التالية إلى تلك الرحلة وصفها بأنها أعظم حدث في حياته، والحق أنها شكلت مجرى مستقبله. وأما فكرة أن يصير قسيسا "فقد مات ميتة طبيعية" على ظهر السفينة (بيجل).

وقضت (بيجل) هذه خمس سنوات بين عامي ١٨٣١ و ١٨٣٦ في رحلتها حول العالم فرست على أغلب القارات والجزائر الكبرى التي صادفتها في طريقها. وكانت مهمة داروين فيها مهمة الجيولوجي والنباتي والباحث في علم الحيوان والعلوم عامة، وكان هذا تمهيدا عظيما هيأه فيما بعد لحياته المستقلة في البحث والتأليف؛ إذ دأب في كل جهة ينزلها على جمع مجموعات من النبات والحيوان، سواء أكانت حية أو متحجرة، من البر والبحر على السواء، فاستقصى بعين الخير بالطبيعة أشكال النبات والحيوان في الماء واليابس، وسط براري الأرجنتين والسفوح القاحلة لجبال (الإنديز)، والبحيرات الملحة، وصحاري شيلي، وأستراليا، وغابات البرازيل الكثيفة، وفي "جزائر النار" القطبية، وجزائر تاهيتي، وجزيرة الرأس الأخضر العارية من الغابات، وعرف التكوين الجيولوجي الساحل أمريكا الجنوبية وجبالها والبراكين الثائرة والخامدة في الجزائر، وعلى أرض القارات، وحواجز

المرجان وحفريات الحيوانات ذات الثدي في (باتاجونيا)، وسلالة الإنسان المنقرض في (بيرو) والسكان الأصليين في "جزائر النار" و"باتاجونيا".

ولم يتأثر بشيء أشد من تأثره بما رآه في جزائر (جالاباجوس) وهي تبعد حوالي ٥٠٠ ميلا عن الشاطئ الغربي لأمريكا الجنوبية؛ ففي تلك الجزائر النائية غير المأهولة ذات السطح الصخري البركاني القاحل، رأى مردة من حيوان السلحفاة، لا تعيش في جهة غيرها إلا على شكل حفريات، كما رأى السحالي الهائلة الضخمة التي انقرضت من عهد بعيد في أغلب بقاع العالم. كما رأى بها سباع البحر، وقد لفت نظره بصفة خاصة أن الطيور بها هي نفس طيور القارة إلا أنها ليست مشابهة لها تمام الشبه، كما تنبه إلى وجود اختلافات بين أنواع الطيور المختلفة من جزيرة لأخرى. فكان ما رآه من مظاهر الحياة في جزائر "جالاباجوس" مضافا إلى ملاحظاته في أمريكا الجنوبية، أكبر مؤيد لفكرة التطور التي بدأت تبلور في ذهنه. قال عن ذلك في معرض وصفه لها ما نصه:

"لقد أثر في نفسي تأثيرا عميقا ما رأيته من حفريات الحيوان المنقرض في صخور براري (البامباس) إذ وجدتها مغطاة بقشرة صلبة تشبه دروع الحيوان الذي لا يزال يعيش على الأرض، والمعروف باسم (أرماديللو)، وكذلك ما لاحظته من حلول الحيوان من فصائل متجانسة محل الأصيل منها في هجرتها إلى الجنوب عبر القارة. وثالث الأمور ما عرفته من أن الكائنات الحية في جزيرة (جلاباجوس) تصل اتصالا وثيقا بمثيلاتها في أمريكا الجنوبية، كما لاحظت أن هناك اختلافات تصل اتصالا وثيقا

بمثيلاتها في أمريكا الجنوبية كذلك، كما لاحظت أن هناك اختلافات طفيفا بينها كلما انتقلنا من جزيرة إلى أخرى في ذلك الأرخبيل، مع أن هذه لا تبدو قديمة العهد من حيث التكوين الجيولوجي.

ولم يعد داروين يقبل أو يصدق تعاليم سفر التكوين التي تقول بأن جميع الأنواع خلقت تامة كاملة، وأنها نزلت عبر الأجيال دون أي تغير.

وبعد عودته مباشرة من إنجلترا بدأ في تدوين ملاحظاته عن ظاهرة التطور، وتسجيل الحقائق عن تفاوت الأنواع، ويعتبر هذا أساس كتابه (أصل الأنواع) وتقع أول مسودة كتبها عام ١٨٤٢ عن نظريته في خمس وثلاثين صفحة، ثم أضاف إليها ووسعها عام ١٨٤٤ فبلغت عندئذ ثلاثين ومائتي صفحة. وأعظم مشكلة واجهته بادئ الأمر هي كيفية تعليل ظهور بعض الأنواع ثم اختفائها، وما هو السر في نشأة بعض الأنواع وتطورها بمرور الزمن ثم تفرعها إلى عدة فروع ثم اختفائها من الوجود اختفاء تاما؟

وحصل داروين على جواب هذا اللغز بمحض الصدفة لما قرأ المقال الذي كتبه (مالتس) عن السكان، إذ قرر هذا فيه أن سرعة ازدياد السكان يحد منها ويكبحها وعوامل إيجابية، مثل المرض والحوادث والحروب والمجاعات؛ فخطر لداروين أن تلك العوامل قد تنطبق على دنيا الحيوان والنبات، فتحول دون تكاثرها، ثم مضى داروين يقول: "ولما كنت راسخ الاعتقاد بمبدأ تنازع البقاء الذي يسود دنيا الحيوان والنبات، لطول ملاحظتي لغرائزها وطباعها ومض في خاطري أن الأحوال السائدة في

التنازع على البقاء، تقضي على الأنواع الضعيفة، وتعمل على ازدهار الأنواع القوية، وينشأ عن ذلك تكوين أنواع جديدة. وهنا عثرت أخيرا على نظرية اهتديت بها في أبحاثي.

وهكذا كان ميلاد نظرية داروين المعروفة باسم (الانتخاب الطبيعي) والتنازع على البقاء، و"بقاء الأصلح"، وهي حجر الزاوية في كتاب (أصل الأنواع).

وظل داروين قرابة عشرين عاما يدون الحقائق في مذكراته، ويحاول صياغة نظرياته فاطلع لهذا السبب على عدد هائل من المطبوعات بين مجلات، وكتب الرحلات ومؤلفات هواة الصيد، ومؤلفات عن النبات وتربية الحيوان وعن التاريخ الطبيعي العام.. قال:

"عندما أنظر في قوائم الكتب المختلفة، وغيرها من الصحف التي اقتبست منها، وما أفدته من الاتصالات الشخصية يأخذني العجب من جلدي وصبري على العمل، فقد دأب داروين على الاتصال بالمشتغلين بتربية الماشية وتربية النبات، كما راسل كل شخص يستطيع أن يحصل منه على معلومات تصلح لموضوعه، وعلى إجابات شافية لاستفساراته، كما جهز هياكل عظمية لعدد عظيم من الحيوانات المستأنسة، وقارن بين وزن عظامها ووزن عظام الأنواع البرية منها، واحتفظ كذلك بأنواع من الحمام وهجنها ببعضها البعض ليحصل على سلالات لها صفات جديدة. وأجرى التجارب العديدة على الفواكه والبذور التي تعوم على سطح البحر بغرض

البحث عن طرق انتقالها من مكان إلى مكان. وحشد جميع معلوماته وأبحاثه وتجاربه التي أفادها أثناء رحلته على السفينة (بيجل) بالإضافة إلى ما جمعه عن النبات والجيولوجيا والحيوان وعلم الحفريات القديمة، واستعان بها في تحقيق صحة فروضه. ثم أضاف إليها آراءه الخاصة بنظرية التطور التي كان يديم فيها التفكير.

ولجأ للتدليل على صحة نظرية الانتخاب الطبيعي إلى التجربة الاصطناعية أي إلى (الانتخاب الاصطناعي) فوجد فيها الدليل الذي يؤيدها، إذ لاحظ أن الإنسان قد اختار من أنواع الحيوان المستأنس والنبات سلالات خاصة عني بتربيتها ليحصل على أنواع تفي بحاجته وفق منها، مثل سلالات الكلب والحصان والقط والقمح والشعير والزهور الخ. وقد دخل على تلك السلالات المستأنسة بسبب تناسلها تحت رعاية الإنسان من التغيير والتبديل ما جعلها بعيدا كل البعد عن شبهها بأصولها البرية. إذ يختار المشتغل بالتربية الحيوان أو النبات ذا الخصائص التي يفضلها ويظل يرعى تناسلها من جيل إلى جيل، وسرعان ما تتناسل منها أنواع جديدة، تختلف اختلافا كليا عن سابقتها. فالكلاب العادية مثلا تختلف عن الكلاب الألمانية المعروفة باسم (الداخسي هونت) وعن كلاب الصيد وغيرها مع أن جميعها من سلالة الذئب.

فإذا كان التطور يحدث بالانتخاب الاصطناعي أفلا يتفق مع المنطق أن تسلك الطبيعة نفس المسلك فيحدث التطور بالانتخاب الطبيعي؟ والواقع أن قانون (تنازع البقاء في البيئة الطبيعية) يحل محل المشتغل بتربية

الحيوان والنبات في الانتخاب الاصطناعي. وقد لاحظ داروين في كل الأنواع الحية أن أعدادا هائلة من الأفراد يقضى عليها بالهلاك والموت، ولا يستطيع البقاء منها على قيد الحياة إلا جزء قليل جدا، لأن أنواعا ما تتغذى على أنواع أخرى، وهكذا تحتدم المعركة دون هوادة أو رحمة. وفي تلك المعركة تباد الأنواع الضعيفة من النبات والحيوان التي لا تستطيع النضال في سبيل البقاء، وتتشكل الأنواع الباقية بأشكال تجعلها قادرة على البقاء في محيط تلك البيئة.

ووجه داروين كل همه إلى تشييد صرح من الأدلة القاطعة على صحة نظريته، فلم يقدم على نشر شيء عن نظرياته إلا في أواسط القرن التاسع عشر. ولما ألح أصدقاؤه في ذلك بدأ يستعد لتأليف سفر ضخم ينشر في عدة أجزاء، وبينما كان النصف الأول للكتاب على وشك الانتهاء حدث حادث نزل عليه نزول الصاعقة، إذ تلقى خطابا من عالم زميل هو (ألفرد رسل والاس) وكان هذا يواصل بحثه وكشفه في التاريخ الطبيعي في جزر الملايو. وقد كشف والاس في خطابه عن اشتغاله بفكرة أصل الأنواع وأنه قد تأثر بقراءة كتاب (مالتس) بمثل ما تأثر به داروين. وأرفق خطابه بمقال عنوانه (مقال عن اتجاه أنواع الجنس الواحد إلى الانسلاخ المتواصل عن أصلها الأول) فكان هذا ترديدا لنفس نظرية داروين بالذات إذ قال: ولو أن (والاس) اطلع على المخطوط الذي كتبته حوالي عام ١٨٤٢ لما استطاع أن يكتب لها موجزا أفضل مما كتب، و يكفي أنني أستعمل البوم مصطلحاته لتكون رؤوسا لفصول كتابي".

وتولت داروين عندئذ عوامل الحيرة، إذ تبين أن الرجلين توصلا في وقت واحد إلى نظرية واحدة، كل منهما على حدة. وبينما لم يصل داروين إلى نتائجه إلا بعد جهد جهيد وعمل متواصل في البحث والدرس فقد توصل والاس إليها بلمحة من لمحات الإلهام. وأخيرا اتفق الرجلان أن يشتركا في وضع مقال علمي لقراءته في الاجتماع التالي في (جمعية لينيوس العلمية) وبهذا أعلن نشر نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي على العالم في مساء أول يوليو عام ١٨٥٨ ثم نشر المقالان في صحيفة تلك الجمعية عقب ذلك.

وحفزه حادث (والاس) هذا على الانصراف عن كتابه المطول الذي اشتغل بوضعه ليضع كتابا أصغر حجما سماه (المختصر) نشره في لندن في أواخر عام ١٨٥٩ وهو الكتاب الذي أصبح فيما بعد من المعالم المهمة في التاريخ الطبيعي. نشرته مطبعة (جون مالوري) وصدرت الطبعة الأولى في ١٢٠٠ نسخة بيعت جميعها في يوم واحد، ثم صدرت طبعات أخرى، وقدر أنه عند وفاة داروين عام ١٨٨٢ بلغ عدد النسخ التي بيعت في إنجلترا وحدها قرابة ٢٤٠٠٠ نسخة ثم ترجم الكتاب إلى أهم اللغات الحية. وكان عنوان الكتاب في الأصل هو (في أصل الأنواع ودور الانتخاب الطبيعي فيها أو بقاء الأصلح من الأنواع في معركة تنازع البقاء) ولكن الزمن اختصر كل هذا العنوان إلى مجرد (أصل الأنواع).

ونجد في الفصول الأربعة الأولى من الكتاب الأركان الرئيسية في نظرية داروين مع شرحها ومناقشتها، وفي أربعة الفصول التالية نجد

الاقتراحات والرد عليها، وتشمل الفصول بعد ذلك مسائل جيولوجية والتوزيع الجغرافي للنبات والحيوان، وما يتصل بها من الخطوط الأساسية للتصنيف، وقواعد التطور، وعلم الأجنة، وأما الفصل الأخير فيلخص عامة براهينه.

وفي بداية أصل الأنواع نجد وصفا للتغييرات التي حدثت في سلالة الحيوان المستأنس والنبات شجة لاختبار الإنسان ورقابته عليها، ثم تلا ذلك مقارنة بين التغييرات الناشئة من الانتخاب الطبيعي وبين الانتخاب الاصطناعي واستنتج من كل ذلك انه أينما توجد الحياة يوجد التغير المتواصل، ولهذا لا نرى التشابه تاما بين فردين.

وأضاف إلى نظريته في التنوع، نظرية تنازع البقاء وأثبت بأمثلة بارزة أن الكائنات الحية تتكاثر بسرعة تفوق قدرتها على البقاء حتى ولو كان الحيوان من أبطأ الحيوانات تناسلا، كالفيل مثلا. فلو فرضنا أن كل فيل يصل إلى سن البلوغ يتناسل تناسلا طبيعيا لبلغ عدد الفيلة بعد ٧٤٠ أو ٧٥٠ عاما تسعة عشر مليونا تنحدر كلها من تناسل زوج واحد فقط. ومن هذا المثال وغيره يتضح لنا وأنه كلما زاد عدد الأفراد زيادة سريعة، يصبح بقاؤها مهددا، فلا بد أن ينشب بينها في مثل جميع هذه الحالات أمر من ثلاثة أمور: فإما تنازع على البقاء بين فرد وآخر من نوع واحد، أو بين فردين من نوعين مختلفين، أو مقاومة الفرد لظروف الحياة في البيئة الطبيعية، ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة، وهي أن الأحياء من نبات وأسماك وطيور وحيوان، ويشمل الجنس البشري كذلك، تفرز من خلايا

الإخصاب عددا هائلا لا ترى غالبيتها النور أبدا، وبفرض أنها استطاعت فلن تجد لها مكانا في دنيا قد ازدحمت ازدحاما شديدا لأن سرعة ازدياد السكان يسير في متوالية هندسية.

وشرح بالأمثلة توقف وجود الأنواع المختلفة على بعضها البعض، إذ لاحظ داروين أن التلقيح بواسطة النحل العادي ضروري لإخصاب بعض أنواع معينة من الزهور (هارتسيز) وبعض أنواع الحشائش قال: "أن عدد النحل في أي منطقة يتوقف على عدد الجرذان التي تدمر أقراصها وخلاياها، وعدد هذه يتوقف على عدد القطط، وبذلك تستطيع أن نحكم بأن وجود عدد كبير من القطط في منطقة ما يؤدي عن طريق الجرذان، ثم النحل، إلى كثرة وجود نوع معين من الزهور بها".

ثم مضى الكتاب يدلل على أن الانتخاب الطبيعي يعمل عمله، بحيث يحد ويقلل من ازدياد عدد السكان، والواقع أن بين أفراد كل نوع يوجد عدد أقوى من سواه أو أسرع في العدو من غيره، أو أكثر ذكاء وأحسن تصرفا، أو فيها مناعة طبيعية ضد الأمراض، أو لها من قوة المقاومة ما تستطيع به احتمال أشد تقلبات الطقس وظروف البيئة القاسية التي تعيش فيها، فتلك الفئة القوية تعيش وتبقى، وأما الفئة الضعيفة فتهلك وتبيد؛ فمثلا نجد الأرنب الأبيض يستطيع الحياة في الأقطار المتجمدة، بينما لو نقلت الأرانب السمراء إلى تلك المناطق لقضت عليها الذئاب والثعالب، بسبب اختلاف لونها عن لون البيئة. وكذلك نرى حيوان الزرافة ذا العنق الطويل، استطاع البقاء لأنه تمكن في سني الجفاف

من الاقتيات على الأوراق في أعالي الشجر، بينما هلكت الزرافات ذات العنق القصير. وهذه الميزات المختلفة من أسباب بقاء الأصلح، كما كانت سببا في ظهور أنواع جديدة عبر ملايين السنين التي عاشتها.

وقد وصف داروين قانون الغاب والمخلب والناب الذي يسود كل بيئة حية في ألفاظ جد مؤثرة قال:

"يتبدى أمامنا جانب الطبيعة البراق الذي يفيض بالغبطة والخير الوفير، ولكنا لا نرى، ولعلنا لا نتذكر أن الطيور التي تغرد وتلهو حولنا إنما تقتات على الحشرات والحبوب، وإنها بذلك تقضى على الحياة، وهذه بدورها تقع هي وبيضها وفراخها فريسة للجوارح من الطير والوحش، وغالبا ما يغيب عنا أن القوت على كثرته ووفرته في موسم، لا يكون كذلك في مواسم أخرى.

وأشار داروين إلى ناحية مهمة من نواحي الانتخاب الطبيعي، وهي انتخاب الزوج قال: "وغالبا ما يكون الذكور الأقوياء الصالحون للبقاء في بيئتهم الطبيعية من أكثر الحيوان تناسلا، والعكس صحيح فالتياتل عديمة القرن، والديكة عديمة المخلب، قليلة النسل ضعيفة الإنتاج".

وهذه الظاهرة – ظاهرة الانتخاب الجنسي – "تتم في هدوء دون تنازع في عالم الطيور، لأن الذكور منها في كل الأنواع تحاول جاهدة إغراء الإناث بالتغريد الرخيم أو باستعراض ألوان ريشها الجذابة أو بالإتيان بحركات غريبة تستلفت النظر"

وحالة المناخ كذلك عامل فعال في الانتخاب الطبيعي، لأن "فترات البرد القارس، والجفاف من أهم العوامل في الحد من تكاثر النسل رغما من أن المناخ يبدو في ظاهره منفصلا عن عامل التنازع على البقاء، ولكنه بسبب تأثيره في نقص كمية الغذاء، يؤدي إلى أعنف مظاهر التنازع، سواء أكان ذلك بين الأفراد من نوع واحد، أم بين الأنواع المختلفة التي تعيش على غذاء واحد، ومن البديهي أن الأفراد الأقوياء التي تحتمل شدة الحرارة وقسوة البرودة، والتي تستطيع الحصول على القوت، هي التي تعيش وتبقى.. قال داروين:

إن الانتخاب الطبيعي يترصد كل يوم، بل كل آونة، في أرجاء العالم بأجمعه، أي تغير طارئ في الكائنات الحية، مهما كان طفيفا تافها، فينبذ منها الضعيف ويستبقي منها القوي، وهو يعمل في سكون دون أن يحسه أحد، منتهزا كل فرصة تلوح له في أي زمان ومكان، دائما على تقوية كل كائن عضوي، كي يصير منسجما ومنسقا مع ظروف البيئة التي يعيش فيها.

ولا يلحظ مطلقا ذلك التغيير البطئ المتواصل إلا بعد انقضاء دهور طويلة تباعد بيننا وبين أوائله عصور جيولوجية سحيقة، ثم إذا بنا نتنبه فجأة إلى أن أشكال الكائنات الحية تغاير في عصرنا أشكالها في العصور الماضية.

وذكر داروين في الفصل الختامي، أن قوة الانتخاب الطبيعي قوة قاهرة لا تحد، وأبدى أن الإنسان يستطيع بالاستقراء، إدراك أن جميع الكائنات الحية التي عاشت في هذه الدنيا قد تناسلت من كائن حي واحد أولي نفخت فيه الحياة أول ما نفخت. وفي رأيه أن جميع أشكال الكائنات الحية المتفاوتة، ترجع في أصلها إلى نواميس طبيعية، ويعلل كل ذلك بظاهرة الانتخاب الطبيعي. قال:

"ووسط الحرب المبيدة التي تسود الطبيعة، والمجاعات والموت، تنشأ أسمى ما يتصوره العقل من مخلوقات واستحدثت سلالات رفيعة من الحيوان. وهذا من أعظم مظاهر الحياة وأجلها، لأن الخالق سبحانه وتعالى، نفخ من روحه في عدد قليل من المخلوقات، أو في مخلوق واحد، فأودعها جميعا قواها. وبينما كان كوكب أرضنا يجد في دورانه، وتسيره قوة الجاذبية، تشحن الأوائل المتواضعة البسيطة عن أشكال عديدة لا نهاية لها، غاية في الجمال والروعة، صورها التطور ولا تزال يده تحورها"

وعلى هذا الوضع استعرض داروين نظرية التطور الدائم في كتاب الأنواع، ويجدر بنا أن ننبه هنا أن فكرة التطور لم تكن من اقتراحه واختراعه، إذ أنها وجدت من أقدم العصور منذ (أرسطو) و(لوكريتيوس)، ومن بين أفذاذ الرجال وجبابرة العقول من أيد تلك النظرية أمثال (بوفون) و(جوته) و(أرازمس داروين) جد تشارلس داروين هذا، و(لامارك) و(هربرت بنسر) ولكن الزيادة التي زادها داروين على سابقيه كانت ذات أهمية في ناحيتين هما:

أولا: أنه جمع من البراهين والأدلة القاطعة الشيء الكثير ليدلل بها على وجود عامل التطور، وهو ما لم يحدث قبله.

ثانيا: أنه ابتدع نظرية الانتخاب الطبيعي، ليبرهن بها على تفسير معقول لكيفية وقوع التطور.

وصف أحدهم وقع الكتاب بين معاصريه فشبهه بقوله وكأنه نار هائلة شبت في أكداس من الهشيم، إذ أنه لو صحت تلك النظرية الثورية أصبحت قصة الخليقة الواردة في الإنجيل حديث خرافة. وسرعان ما اعتبرت الكنيسة آراء داروين خطرا على الدين وحملت عليه حملة شعواء. ورغم أن داروين تعمد ألا يطبق نظريته على الجنس البشري إلا أن الإشاعة استفاضت بأنه أرجع أصل الإنسان إلى سلالة القرود.

وحاول البعض تشويه سمعة داروين بأساليب السباب والاستهزاء، فدعته (مجلة الكورترلي)، بأنه شخص غير متزن العقل، لأنه حاول أن يقيم نظامه الخاطئ على أساس من التخمين والحدس؛ وأن الطريقة التي عالج بها دراسته الطبيعية عار وسبة للعلم.. وعبرت مجلة (اسبكتيتور) عن عدم رضاها عن النظرية، لأنها لم تقترن بالمسببات الأساسية للخليقة، وبهذا يثبت بلاهة أنصارها وقصور أفهامهم، واتهمه آخرون بأنه جمع حشدا من المعلومات ليدلل على صحة نظرية ملفقة، وقال أحدهم: "أنت لا تستطيع أن تصنع حبلا من فقاقيع الهواء". وتساءل أحدهم في سخرية إذا كانت نظرية التطور ستؤدي يوما ما أن تنقلب رءوس اللفت إلى آدميين، ولما

كانت محاكم التفتيش لا وجود لها في بريطانيا نشرت مجلة (الاثينيم) الدينية مقالا شديد اللهجة، حرضت فيه الهيئات الدينية على محاكمته؛ فرد عليهم داروين: "إنهم لن يحرقوني حيا وإنما أقصى ما يستطيعونه أن يجمعوا الحطب لذلك ثم يحرضون ذوي المسوح السوداء للقبض عليّ".

ولم يسمح (هوبهول) بوضع نسخة من كتاب الأنواع في مكتبة كلية الثالوث، (ترينيتيي) بكمبردج، وهي الكلية التي تخرج فيها داروين، إلا أن هذا لقي تأييدا عظيما من زملائه العلماء كما لقي من بعضهم أعنف انتقاد ومعارضة. وكان أشدهم نكاية به جماعة المتطرفين من المحافظين مثل (أون) في إنجلترا و(أجاسيز) في أمريكا إذ اعتبرا أن الداروينية ما هي الا إلحاد وتجديف لا تلبث أن تزول وتندثر. وقال الفلكي الإنجليزي المعروف (سير جون هيرشل): أن الداروينية هي قانون مادته الهواء والعبث. وأما أستاذه (سيدجويك) فاعتبر النظرية "خطأ ينطوي على أبلغ الأضرار، ولم يقتصر على ذلك بل كتب رسالة إلى داروين قال فيها أنه عندما اطلع على كتابه وأخذته نوبة من الضحك كادت تشق جنبيه، وأنه يعتبره آلة عجيبة خرقاء مثل القذيفة التي أراد بها المطران (ولكنز) أن يصل بها إلى القمر.

ولكن داروين، رغم هذا، لم يكن ينقصه مدافعون أشداء لحمايته من أمثال (تشارلس لايال) الجيولوجي و(توماس هكسلي) عالم الأحياء و(جوزيف هوكر) عالم النبات و(أزاجراي) عالم النبات الأمريكي. ووقع اختيار داروين على (هكسلي) واعتمد عليه اعتمادا كلا وكان يدعوه (وكيلي العام) ودعا (هكسلي) نفسه (البولدج الحامي لداروين) لأن

داروين لم تكن له معرفة بالمساجلة والمحاورة، ولم يظهر مطلقا في حفل عام للمناظرة في آرائه فتحمل هكسلي، ذلك الرجل القدير والمناظر العتيد عبء الدفاع عن صديقه.

ولعب هكسلي أحد دورين مهمين في النزاع المثير الذي قام حول كتاب أصل الأنواع؛ فقد حدث عام ١٨٦٠ أن دعت الجمعية البريطانية بجامعة أكسفورد إلى اجتماع لمناقشة موضوع الداروينية. وكان أهم المتكلمين عن المعارضة هو (ولبرفورس) مطران أكسفورد. فلما انتهى من خطابه الرنان الذي ظن بعده أنه حطم به داروين والداروينية تنظر إلى هكسلي وهو جالس وتساءل "أيهما ينحدر من سلالة القرود أبوه أم أمه؟" وهنا أسر هكسلي لأحد أصدقائه بجواره: "لقد ألقاه الرب بين يدي"، ثم نهض ليدلى برده فقال:

"ليس لأحد من الناس أن يستحي من أن يكون له جد من القردة، ولكن الذي يدعو حقا إلى الخجل أن أنسب إلى رجل معروف بالذكاء والكفاءات لم يقنع بالنجاح الذي أصابه في محيط عمله، فتعرض لبحث علمي عويص لا يفقه منه شيئا فيضلل سامعيه ما شاء له التضليل، ويشرد عن موضوع المناقشة ما شاءت له أساليبه الخطابية التي لا هدف لها، وعباراته الخلابة ليثير فيهم روح الحمية والتعصب باسم الدين وتعاليمه.

وكان هذا الحادث هو أول اصطدام وقع بين الكنيسة والعلم حول مذهب الداروينية والتطور، ثم توالت أمثال هذه الوقائع في السنين التالية.

وقد عدل داروين بعد ذلك موقفه من الدين كلما تقدمت به السن، فقد اعتقد في شبابه بفكرة خلق الإنسان دون معارضة ولكن جاء في كتابه (حياتي ورسائلي) قوله: "سوف يصل الإنسان في المستقبل البعيد إلى درجة أكثر كمالا مما هو عليه الآن"، ولبث كذلك يقول:

"إن الاعتقاد بوجود الله اعتقادا منا على العقل، وليس على الوجدان هو أرجح الحجج عندي، لأنه لا يستطاع، بل يستحيل تفسير خلق هذا الكون الشاسع الذي يضم الجنس البشري بما به من عقل يدرك الماضي السحيق، وينفذ به إلى المستقبل البعيد، بأنه وليد الصدفة أو الظروف القاهرة. وعندما أتدبر هذا الأمر أشعر بأنه لا بد من وجود سبب أولي ، أزلي، ذي عقل مدبر، يشبه عقل الإنسان، ومن هنا أعتقد أني معترف بوجود الله. وكانت هذه الفكرة تسيطر على كياني عندما انتهيت من كتاب "أصل الأنواع" ولكنها بدأت تتعثر وتفقد قوتها في نفسي بمضي الزمن. ومع هذا فقد أخذ الشك يخامرني في أمر يقلقني هو: هل العقل الإنساني الذي أعتقد أنه تطور أصلا من عقل ضعيف لا يختلف عن عقول العجماوات، يمكنه أن يصل إلى آراء ونتائج صادقة لا يتطرق إليها الخطأ والخلل؟".. وقد سلم داروين بعجزه عن حل هذا اللغز قال:

"لا أستطيع أن أدعي أنني كشفت شيئا من أسرار ذلك اللغز، لغز نشأة الوجود، الذي سيظل سرا مطويا لن يتوصل الإنسان إلى حله، واعترف شخصيا بالعجز وسأظل راضيا بأنني لا أدري"

وتوالى بعد ذلك فيض من إنتاجه العلمي، وفيه قصر بحثه على موضوعات خاصة، تهدف في مجموعها إلى غرض واحد، هو إحكام نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي وتأييدها والتوسع فيها، وهي النظرية الأساسية في كتاب "أصل الأنواع"، فنشر كتابين قصيرين أولهما عن الوسائل المختلفة في تلقيح زهرة الأوركيد بواسطة الحشرات، وثانيهما عن "النباتات الزاحفة وحركتها وخصائصها" ثم أعقب ذلك بمؤلفين ضخمين هما "التغييرات الطارئة على الحيوان والنبات المستأنس" والآخر هو "هبوط الإنسان"، وأما الكتب الأخرى فشرح لمظاهر الانفعالات في عالم الحيوان والإنسان وكذلك بالنباتات التي تتغذى على الحشرات وتأثير التلاقح بين أنواع مختلفة وقوة الحركة في النبات وتكوين العفن النباتي.

وحرص داروين في كتاب (أصل الأنواع) ألا يدخل في مناقشة أصل الإنسان، لأنه أدرك أن الكلام في تطبيق نظرية التطور على حالة الإنسان سيؤدي حتما إلى رفض نظريته بأكملها. ولكنه عاد في كتابه "هبوط الإنسان" فجمع مادة هائلة من البراهين ليدلل بها على أن الجنس الإنساني نشأ نتيجة للتطور من الحيوانات الدنيا.

والواقع أننا إذا تلفتنا إلى الوراء وألقينا نظرة فاحصة على أعمال داروين لدهشنا لعظم تأثيره في جميع العلوم الرئيسية، وهو تأثير لا يزال عظيما إلى يومنا هذا؛ فآراؤه في التطور العضوي قد أقرها علماء الأحياء والجيولوجيا والكيمياء والطبيعة، كما أقرها علماء علم الإنسان وعلم النفس والتربية والفلاسفة وعلماء الاجتماع، وقبلها كذلك المؤرخون

والمشتغلون بالعلوم السياسية وفقه اللغة. كما قال (تشارلس الوود) في ذلك:

"عندما نفكر في الأثر العظيم الذي تركه داروين في جميع نواحي التفكير البشري، وخاصة في الناحية البيولوجية والنفسية والعلوم الاجتماعية، لا نجد سبيلا غير الاعتراف لداروين بأسمى مكانة بين كبار المفكرين المنتجين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر، ليس في إنجلترا وحدها، وإنما في العالم أجمع. كل هذا ولا يزال تقدير عظمة أعمال داروين الاجتماعية في بداية الطريق".

وجاء (وست) كذلك فكتب عن أصل الأنواع بمثل ذلك قال:

"لقد كان تأثيره هائلا حقا، فقد استطاع بنظريته الجديدة وإيجابيتها أن يحدث تغييرا تاما في كل نواحي البحث العلمي، وتشمل تفسير كل العلوم من عالم الفلك إلى التاريخ، ومن علم الحفريات إلى علم النفس، ومن علم الأجنة إلى الدين".

ومن جهة أخرى نشأت مؤخرا تطبيقات لنظرياته، لا نظن أن داروين كان يرضاها لو كان حيا، فمثلا اتخذت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح مبررا للقضاء على بعض الأجناس البشرية. وكذلك ما نادى به تجار الحروب في الدول وتبريرهم لها لأنها تقضي على العناصر الضعيفة وستبقى العناصر القوية، كما استغل أتباع ماركس نظريته استغلالا

ملتويا لتطبيقها على تنازع الطبقات في المجتمع الإنساني. وكذلك اتخذتها الشركات القوية الكبرى ذريعة للقضاء على البيوتات التجارية الصغيرة.

وقد صمدت أعمال داروين التقلبات الزمن، وخرجت منها سالمة. وذلك لأنه أقامها على أساس متين من قوة الملاحظة، وصواب التجربة التي اجتازت امتحان البحوث العلمية الحديثة. حقا إن النتائج التي توصل إليها العلم حديثا قد بدأت بعض الشيء من نظرياته إلا أنه بثاقب فكره وقريحته النفاذة قد تنبأ بجملة من الحقائق التي توصلنا إليها اليوم في علم التناسل والحفريات وغيرها من الأبحاث العلمية.

ولعل أحدا لم يبرز أعمال داروين ومكانته في تاريخ العلوم بمثل القوة التي عرضها بها عالم كبير من علماء علم الأحياء وهو (جوليان هاكسلي) حفيد صديق داروين الصدوق، وحاميه وشريكه في أبحاثه إذ قال:

"أن أعمال داروين، جعلت دنيا الحياة بكل مظاهرها خاضعة للقانون الطبيعي؛ فلم يعد لأحد بعد ذلك عذر في أن يتصور، أو أن يعتقد أن كل نوع من الحيوان والنبات قد خلق في صورة خاصة تميزه عن غيره، أو أن يرى قوة خارقة وراء تلك الحيل الغريبة الطريفة التي تلجأ إليها المخلوقات الحصول على قوتها، وللنجاة من فتك أعدائها، أو أن يستشف وراء عملية التطور عقلا عظيما مدبرا.. وإذا صدقت نظرية الانتخاب الطبيعي، فلا سبيل أمامنا إلا أن نعتقد بأن صور الحيوان والنبات، والإنسان ذاته قد أحالتها إلى أشكالها الحاضرة عوامل طبيعية عمياء آلية جبارة، لا تختلف

عن العوامل التي تشكل الجبال، أو تفرض على الأرض والكواكب أن تلتزم مدارا بيضيا في دورانها حول الشمس؛ فمعركة البقاء والتوارث في اندفاعهما الأعمى دون هوادة أو توقف، عاملان آليان في انتخاب أصلح الأنواع للبقاء وتطورها المتواصل تطورا يتجه به إلى الارتقاء.

إن أعمال داروين قد كشفت لنا عن مكانة الإنسان، وعن مكانة حضارتنا الحاضرة، إذ ألقى عليها من الأضواء ما جعل حقيقتها تستبين للعين والعقل؛ فأوضح أن صورة الإنسان لم تبلغ بعد الكمال الذي لا مجال بعده للتطور أو التقدم، إذ أن تاريخ الإنسان قديم متوغل في القدم، ولم يكن تطوره هبوطا، وإنما كان ارتقاء وصعودا، ولا يزال احتمال تطوره وارتقائه في المستقبل ممكنا. وقد تعلمنا من نظرية التطور البطيء ألا نتعجل شيئا وأن نلتزم جانب التؤدة.

فإن بضعة ألوف السنين الماضية من التاريخ المسطور لا تقاس إلى جانب ملايين السنوات التي قضاها الإنسان على سطح البسيطة، أو إلى ألوف الملايين من السنوات التي تم فيها ارتقاء الحياة الإنسانية. وأغلب الظن أنه ليس لنا بد من الالتجاء إلى الصبر والانتظار، عندما يخبرنا علماء الفلك بأنه لا يزال أمام الإنسان على هذه الأرض ألف مليون عام آخر سوف يواصل خلالها عامل التطور عمله، حتى يبلغ بنا درجات أسمى مما هي عليه اليوم"

عالم نفساني يسبر أغوار اللاشعور:

١٥ـ كتاب تفسير الأحلام

سجمند فرويد

يكاد يكون من المسلم به قطعا أن علم النفس يختلف عن سائر العلوم بأنه علم غامض غير واضح المعالم، لأنه لا يستند إلى قواعد علمية ثابتة كما هو الشأن في عامة العلوم الطبيعية الأخرى؛ إذ أن في طبيعة هذا العلم عناصر لا يسهل إخضاعها لبرهان علمي، فلا غرو إن كان العالم النفساني يتعرض معها للزلل لأنه يبحث أشد الظواهر الطبيعية غموضا وأكشفها حجابا وهي العقل الإنساني؛ فبينما نستطيع تحقيق صواب قاعدة، أو عدم صوابها، في الكيمياء وعلم الطبيعة مثلا بوضعها موضع التجربة في المخبر، نجد أنه ليس من المستطاع اتخاذ هذا الإجراء لإثبات قاعدة من قواعد علم النفس أو نفيها. ومن هنا ندرك سبب هبوب تلك العاصفة الجدلية العنيفة التي اكتنفت شخص (سيجمند فرويد) والتحليل النفسي طيلة ستين سنة بتمامها.

ولكن سواء كانت نظريات فرويد يمكن إثباتها بالتجربة أو لا يمكن، فقد تركت أعظم الأثر في التفكير الحديث. ولم يسبق أن أحدا – حتى ولا آينشتاين نفسه – علق بأذهان معاصريه، أو نفذ إلى صميم حياتهم، مثلما

فعل فرويد؛ ففي محاولته كشف المجهول من العقل الإنساني صاغ آراء ومصطلحات أصبحت اليوم جزءا لا يتجزأ من حديثنا في حياتنا اليومية. ولم يشذ قط علم ما من العلوم، كالأدب، والفن، والدين، وأصل الإنسان، والتربية، والقانون، والاجتماع، والإجرام، والتاريخ، والتراجم، وكل الدراسات التي تتصل بالمجتمع والفرد، عن التأثر بتعاليم فرويد تأثرا عميقا.

والحق أننا لا نجد شيئا من البهجة والسرور في تلك التعاليم، كما قال أحد الكتاب مداعبا

"عندما عرف الناس نظريات فرويد وتداولوها، أصبح ذلك الرجل في اعتبارهم أكبر من عكر عليهم صفوهم وأفراحهم، في تاريخ التفكير البشري"

فإنه قلب الأوضاع بحيث رأى وراء الدعاية اللطيفة والتمتع بالمرح البرئ عاملا من الكبت المرير الكامن في النفس، وجعل الحب أحد مظاهر الكراهية والشر أصلا في الشفقة والرحمة، وجعل جريمة الاتصال بالمحارم في صميم الحب البنوي، ووجد الإجرام أصلا في الإحسان، وقرر أن الكراهية الدفينة في نفس الطفل لأبيه من طبيعة الأشياء التي يتوارثها الجنس البشري.

ورغم ذلك فإن الناس ينظرون إلى أحوالهم النفسية نظرة مختلفة عن الماضي، بسبب تأثرهم بآراء فرويد، فقد ألفوا في عصرنا أقواله، حتى أصبحت عادية في حياتهم مثل: تأثير اللا شعور على الشعور، والأساس

الجنسي للعصاب، وأهمية وجود الغريزة الجنسية في الطفل، ووظيفة الأحلام، وعقدة أوديب، والكبت، والمقاومة النفسية، وتحول عواطف المريض إلى طبيبه. ورأى الناس تحت تأثير نظريات فرويد شيئا جديدا، حتى في الهنات التي تصدر عن الإنسان دون وعي منه، كعثرات اللسان، ونسيان الأسماء، وعدم تذكر مواعيد الالتزامات الاجتماعية. ومن العسير علينا الآن، وقد قبلنا نظريات فرويد، أن ندرك المصاعب والمتاعب الجمة التي صادفته في إقناع الناس بآرائه، وأغلب الظن أنها كانت أشد وأقسى مما صادف كوبرنيق وداروين.

عندما ولد فرويد في بلدة (فرايبورج) من أعمال مورافيا عام ١٨٥٦، لم يكن قد ظهر بعد مؤلف داروين عن (أصل الأنواع) وينحدر فرويد من أسرة يهودية يتسلسل فيها عدد من أحبار اليهود، مثله في ذلك مثل كارل ماركس، غير أن فرويد بقي على دينه، بعكس ماركس، وظل يهوديا. جاء إلى فيينا وهو في سن الرابعة وقضى كل سني شبابه بها. وقد ورث عن أبيه، وهو تاجر أصواف كما أشار إلى ذلك مؤرخه (إرنست جونز)، ورث عنه "نظرة التشاؤم إلى الحياة وتقلباتها، واعتاد اقتباس القواعد الخلقية من قصص التوراه، وتحرره من تقاليد الشئون الدينية" وأما والدته فقد عمرت إلى الخامسة والتسعين محتفظة بنشاطها الجم وشخصيتها الممتازة إلى آخر حياتها. وكان فرويد أكبر أولادها وأحبهم إليها. كتب عنها بعدئذ يقول: "إن أي إنسان يتمتع بمفرده بحب أمه دون منازع، ليشعر طيلة حياته بشعور الغزاة المنتصرين، وبتلك الثقة بالنفس التي تؤدي إلى تحقيق النجاح".

وكان فرويد في شبابه من الذين استهوتهم نظريات داروين، لأنه رأى أنها فتحت آفاقا واسعة أمام الإنسان لتفهم أسرار الوجود، وكان في عزمه أن يتخذ الطب مهنة له، فالتحق بجامعة فيينا لدراسة الطب ونال إجازته عام ١٨٨١ ثم عين طبيبا مقيما في المستشفى العام، فواصل أبحاثه في الأمراض العصبية وفي التشريح الخاص بالمخ. ولم يمض على ذلك إلا سنوات قليلة حتى سنحت له أعظم فرصة في حياته كانت سببا مباشرا لذيوع صيته وارتفاع نجمه عندما حصل على منحة دراسية في باريس للتدرب على العمل تحت إشراف الدكتور (جان شاركو) وهو أحد مشاهير أطباء فرنسا في علم الباثولوجيا وعلم الأمراض العصبية، وواجه لأول مرة وبصفة مباشرة، تشخيص شاركو وعلاجه لمرض الهستريا بواسطة الإيحاء في التنويم المغناطيسي. وارتاح فرويد لعلاج شاركو، إذ أثبت هذا "حقيقة مرض الهستريا ومظاهره وتوالي حدوثه عند الرجال، كما أثبت أنه يمكن إحداث الشلل الهستيري والتقلصات الجسدية بواسطة الإيحاء في التنويم". وهذه تكاد لا تختلف في مظهرها عن النوبات الحقيقية.

ولما عاد إلى فيينا، لم يستطع إقناع زملائه الأطباء بقاعدة علمية العلاج حالات الهستريا، واضطراب الجهاز العصبي بواسطة التنويم المغناطيسي. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جرت آراؤه غضب رؤسائه عليه فأقصوه عن المعامل الخاصة بتشريح المخ. ومنذئذ أصبح في عزلة عن الحياة العلمية وانقطع عن حضور مجتمعاتها، إلا أنه واصل عمله عدة سنوات في عيادته الخاصة مستخدما طرق التنويم في العلاج، غير أنه عدل عنها أخيرا لأن أغلب المرضى لا يصلحون للتنويم، وكذلك لما كان لهذه

الطريقة من الآثار السيئة على شخصية المريض. فاتجه فرويد بدلا من ذلك إلى طريقة جديدة هي عملية (التداعي الحر) وعندئذ أصبحت هذه الطريقة من الطرق الأساسية في تجارب التحليل النفسي.

ولا مراء في أن فرويد هو مؤسس علم الأمراض العقلية الحديث، وكان هذا العلم إلى وقته مقصورا على دراسة مظاهر الجنون مثل ازدواج الشخصية، وحالات الذهان الانقباضي، وكلها أمراض كانت تقضي بحجز المريض في مستشفيات الأمراض العقلية. وبدأ فرويد في عيادته بعلاج حالات الكبت والصرع في العصاب، ولكنه سرعان ما أدرك أن هذه الحالات ليست مقصورة على العصابين، وإنما هي حالات تصب كثيرا من الآدميين المتزنين، كما أدرك أن المرض العصبي ليس مرضا بالمعنى المفهوم، وإنما هو حالة شاذة من أحوال النفس. وهنا واجهته المشكلة الكبرى وهي كيف السبيل إلى علاج تلك الاضطرابات العقلية المنتشرة انتشارا واسعا بين جميع الطبقات؟ فاستطاع آخر الأمر بعد تقييد ملاحظاته وإجراء تجاربه على نطاق واسع، وخاصة بين مرضاه في مدينة فيينا أن يقيم عليها أسس نظريته في التحليل النفسي.

وكان فرويد من أغزر الكتاب العلميين إنتاجا وأجرأهم قلما. إذ نشر سيلا من الكتب والمؤلفات المنوعة عن علم النفس وعن آرائه ونجد نظرياته منشورة فيها، بحيث لا يستطيع باحث أن يجدها في كتاب واحد. ولكن من المستطاع أن يقال أن أحب كتبه إلى نفسه كان أكبر مؤلفاته وأسبقها إلى الظهور وهو كتاب "تفسير الأحلام" الذي نشر عام ١٩٠٠ وهذا

الكتاب بالذات يشمل جمع آرائه الرئيسية وملاحظاته الأساسية كلها. وثمة كتاب آخر ظهر قبيل ذلك عام ١٨٩٥ هو "أبحاث في مرض الهستريا، وفيه يقرر أن الاضطرابات الجنسية هي العامل الأساسي في أسباب الأمراض العصبية ومنها العصاب والذهان. والكتاب حجر الزاوية في نظرية التحليل النفسي. ومضى في السنوات التالية يصوغ آراءه عن (المقاومة والتحول، وغريزة الجنس في الطفولة، والصلة بين الذكريات المؤلمة والأوهام والحيل الدفاعية ثم الكبت).

ونجتزئ هنا بتلخيص النظريات الأساسية حتى ندرك شيئا عن مدى التعقد في التحليل النفسي. ونحن ننبه هنا أن علم الطب النفساني لا يرادف عملية التحليل النفسي إذ إن هذه تعتبر جزءا فرعيا من أعلى الأمراض النفسية، وإنها لا تطبق عادة الأعلى أعقد الحالات الخاصة باضطراب الشخصية. وبذلك يستطاع تعريف التحليل النفسي أنه طريقة لعلاج الاضطرابات النفسية والعصبية، وقد جاء في تقرير حديث في الولايات المتحدة أن عدد المحللين النفسانيين لا يتجاوز ثلاثمائة بين أربعة آلاف طبيبا نفسانيا.

ولم يهتم فرويد بمداواة الحالات الفردية إلا نادرا إذ اعتبرها حالات اضطراب فردية ناشئة عن القلق الذي يقترن بالحياة العصرية في أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإنما كان همه الأكبر أن يكشف عن أصل الداء ويهاجمه في عقر داره.

ويجمع غالب النقاد على شيء واحد، هو أن الشهرة الباقية التي يتمتع بها فرويد ترتكز على كشفه عن اللا شعور وأبحاثه فيه. وقد شبه فرويد العقل الإنساني بتشبيه فريد في بابه، إذ قال أنه يشبه جبل الجليد العائم الذي يغمر الماء منه ثمانية أتساعه، وبالمثل نجد العقل الإنساني مغمورا في مجاهل اللا شعور، إذ تختفي تحت سطحه الظاهر عوامل ومشاعر وأغراض لا يخفيها الفرد عن الناس فحسب، بل يخفيها عن نفسه. وفي رأيه أن اللا شعور له كل القوة والسيادة، وأن كل حركاتنا الشعورية تجيء في وضع ثانوي بالنسبة له. وإننا كلما ازددنا معرفة بأعماق المجهول من اللا شعور وقفنا على طبيعة الإنسان الخفية. وقرر كذلك أن غالب تفكيرنا يقع في مجال اللا شعور ولا يقع منه في مجال الشعور إلا القليل اليسير، وإن العقل الباطن هو مصدر كل اضطراب عصبي، لأن الفرد يحاول جهده أن يطرد عنه كل ذكريات مؤلمة، وكل فشل عاناه، ويلقي بها إلى ذلك الحيز المجهول، ولا يعدو نجاحه في ذلك إلا أن يختزنها اختزانا يؤدي إلى المتاعب في مستقبل الأيام.

ويرى فرويد أن النشاط العقلي في الفرد يجري في ثلاثة مستويات هي: (الهو – والأنا – والأنا الأعلى) وأولها في الأهمية هو (الهو) وعرفه فرويد، بقوله: "إن مجال (الهو) الجزء المغلق المظلم من شخصياتنا الذي يتعسر التوصل إليه. والقليل الذي نعرفه عنه حصلنا عليه من بحث الأحلام، ومن تكوين الأعراض العصابية، فهو مركز الغرائز البدائية والبواعث الأولية التي ورثها الإنسان عن أصوله الحيوانية، فهي قوى حيوانية وغرائز جنسية في طبيعتها ولاشعورية ثم زاد الأمر إيضاحا بقوله:

"أنه يشمل كل شيء موروث، يولد مع الطفل وراسخ في البنية، فهو قوة عمياء لا ترحم، وكل وظيفتها أن تشيع نوازعها وشهواتها دون نظر إلى العواقب؛ فهي لا تعرف قيم الأشياء ولا تعرف الخير أو الشر أو النواحي الحلقة، كما قال (توماس مان).

فالطفل الحديث الولادة هو تجسد (الهو) وتدريجا ينشأ (الأنا) من (الهو) كلما نما الطفل وكبر، وعلى خلاف (الهو) الذي تحفزه دوافع اللذة، نجد (الأنا) تحركه دوافع الحقائق الواقعية في الحياة، فهو متنبه إلى العالم الخارجي حوله، ويعمل على كبح جماح ميول (الهو) حتى لا تصطدم بالعرف والقانون السائد في المجتمع الإنساني. وعبر فرويد عن ذلك بقوله: "إن (الأنا) هو الوسط بين مطالب (الهو) المتهورة وبين قيود العالم الخارجي" وهو لذلك يعمل رقيبا على الغرائز الجامحة في (الهو) ويجعلها تتلاءم مع الحالة الواقعية، ويكبتها كبتا، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها وقاية (الهو) من العقاب أو الهلاك. ومن هذا النزاع الدائم بين (الأنا) و(الهو) ينشأ العصاب الذي قد يؤدي إلى إلحاق الأذى بشخصية الإنسان.

ثم يأتي الحد الثالث والأخير في العملة العقلية وهو (الأنا الأعلى) الذي يمكن التعبير عنه باسم (الضمير) الذي فسره (أ. أ. بريل) زعيم أنصار فرويد في أمريكا، بقوله: "إن (الأنا الأعلى) هو أرقى ما وصل إليه الإنسان في التطور العقلي، ويشمل في قرارته كل رواسب المحظورات وآداب السلوك التي تلقنها الطفل عن أبيه أو عن أولياء أمره. والشعور بالضمير يتوقف توقفا تاما على مقدار وعي (الأنا الأعلى)".

و(الأنا الأعلى) يشبه (الهو) من حيث أنهما لا شعوريان والاثنان في نضال دائم معا، كأنهما في مباراة يحكمها حكم هو (الأنا) وموطن كل المقاييس الأخلاقية ونواميس السلوك تقع في حيز (الأنا الأعلى).

فإذا حدث التوازن المعقول بين هذه الحدود الثلاثة، شعر الفرد بالسعادة والانسجام في الحياة، ولكن إذا حدث أن تسامح (الأنا) مع (الهو) فارتكب هذا نقيصة خرق بها حرمة القانون، تبرم (الأنا الأعلى) وساده القلق والشعور بالإجرام إلى غير ذلك من مظاهر تكبت الضمير.

ويتصل (بالهو) اتصالا وثيقا، فكرة أخرى، صاغ منها فرويد نظرية (اللبيد)، فكل الغرائز الجامحة التي تحفز (الهو) محملة بشاط نفسي هو (اللبيد) وهو نشاط جنسي في خصائصه. وقد اعتبرت نظرية (اللبيد) "خلاصة نظرية التحليل النفسي، وعلى هذا تكون كل الأعمال المجيدة التي قام بها الإنسان من ثقافة، وفن، وقانون، ودين... الخ ترجع في أصلها إلى قوة (اللبيد) واطرادها.

ورغم تعريفها بالنشاط الجنسي، نجد أن كلمة "جنسي" هنا ذات معنى عام وينطوي تحتها لذات يشعر بها الطفل من مص إبهامه أو من حلمة زجاجة الرضاع، أو عملية التخلص من الفضلات. وقد تتحول هذه الغرائز الجنسية (اللبيد) فيما بعد وتتجه إلى شخص ما بالزواج، أو تتخذ شكلا من أشكال الشذوذ الجنسي أو تظهر في الابتكار الفني والأدبي

والموسيقي، وهي عملية أطلق عليها اسم (الإزاحة)، وفي رأي فرويد أن الغريزة الجنسية هي مصدر كل عمل إبداعي"..

وعلى أساس فكرته عن (اللبيد) دافع فرويد عن نظرية من أعقد نظريات التحليل النفسي التي ثار حولها جدل عنف، وهي أن الطفل يتجه اتجاها جنسيا إلى والديه، ويبدأ ذلك بمرحلة اللذة الحسية التي يستشعرها الطفل عندما يتغذى من ثدي أمه، وينتهي باستشعاره بحب شديد لأمه، وكلما كبر الطفل زادت ميوله الجنسية نحو أمه، بينما ينظر إلى والده نظرة عداء وخوف لأنه يقاسمه حبها. وأما في حالة البنت فقد تنفصل في عواطفها عن أمها وتتجه بها إلى حب أبيها.. وتصير الأم موضع مقتها وبغضها، بسبب منافستها لها في أبيها. وفي حالة الطفل الذكر يدعى ذلك الميل باسم (عقدة اوديب). وهو اسم استعير من إحدى الأساطير اليونانية القديمة، وفيها يقتل الولد أباه ثم يتزوج أمه. ويقول فرويد أن هذه العقدة متوارثة من تاريخ نشأة الإنسان البدائي، عندما كان الأبناء يقتلون آباءهم وهم في ثورة الغيرة والحقد. ولكن عندما يصل الشخص إلى مرحلة النضج يتغلب على انفعالات عقدة أوديب هذه، غير أن الأشخاص الضعاف قد لا يستطيعون التخلص من أسر تلك الميول الوالدية فيصبحون فريسة للأمراض العصابية.

وقد قرر فرويد في صراحة "أن الأمراض العصابية دون استثناء إن هي إلا اضطرابات في الوظائف الجنسية، وأنكر أنها تنشأ عن الزيجات الفاشلة، أو الفشل في الحب بين البالغين، وإنما تنشأ برمتها من عقد

جنسية تكونت أيام الطفولة الأولى. وعندما طبق نظريته على أبحاث علم أصل الإنسان في كتابه (الطوطمية والمحرمات) انتهى إلى أن طبيعة الرجل الفطري وبواعثه الدينية الغامضة ما هي إلا شجة عقد جنسية عن الأب والأم. وتوصل فرويد بعد تحليل دقيق لمئات الحالات التي مرت عليه لعلاجها، أن يجعل الغرائز الجنسية والرغبة الجنسية تلعب أهم الأدوار في تكوين شخصية الفرد، بمثل ما تقوم به أحداث الاضطرابات العصبية. وقد سفه ذلك الرأي عدد كبير من كبار رجال التحليل النفسي كما سنوضحه فيما بعد.

وبسبب قوانين الهيئة الاجتماعية، يضطر الإنسان أن يكبت كثيرا من دوافعه النفسية، وبذلك يكدس في لا شعوره كثيرا من صور الكبت، وعادة ينجح العقل الواعي في الحيلولة دون ظهور "القوى اللا شعورية الدفينة المكبوتة من فرصة الظهور والوصول إلى خارج ستارها. وقد يطرأ بسبب ذلك المجهود على الأشخاص المصابين اضطرابات انفعالية شديدة. وهنا يقول فرويد بأن مهمة العلاج التحليل النفسي تنحصر في "الكشف عن مواضع الكبت في الشخص، والإفراج عنها، حتى يحل محلها حكم سليم ينتهي بقبول أو رفض ما كان يخشاه قبلا، وبسبب ما يكتنف طبيعة الذكريات المكونة، ويحيط بها من الشعور بالخجل والخزي، نرى المريض يحاول جاهدا أن لا يكشف عن ذلك الكبت، وهو ما سماه فرويد (بالمقاومة) وهذه هي ما يجب على الطبيب المعالج قهرها والتغلب عليها.

وقد ابتدع فرويد أسلوبا خاصا لمعالجة حالتي الكبت والمقاومة وهو ما يعرف اليوم باسم (التداعي الحر) أو بعبارة أخرى ترك المريض يتكلم بكامل حريته وهو في وضع مسترخ على أريكة وثيرة في حجرة هادئة خافتة الضوء، بينما يقتصر دور المعالج على تشجيع مريضه على المضي في كلامه بكل ما يعن له دون أن ينتجه في ثرثرته إلى موضوع بالذات. وقد زعم فرويد أن هذا الأسلوب الخاص في التحليل كان الطريقة الوحيدة المجدية لعلاج حالة العصاب، وقد أدت إلى النتائج المنتظرة منها وهي جر الذكريات المكبوتة إلى حيز الشعور بعد أن حبستها المقاومة عن الظهور.

وصف (بريل) الطريقة التي يتبعها فرويد مع مرضاه قال: كان يقنعهم بألا يتقيدوا بتفكير ما، وأن يستسلموا للتركيز الهادئ وأن يستهدوا بما يخطر على بالهم من خواطر تلقائية ويحدثوه بكل شيء حديثا صريحا. وبهذا استطاع أن يحصل منهم على هذا التداعي الحر الذي يهديه إلى أصل تلك الظاهرة ". وغالبا ما تكون الشئون التي طغى عليها النسيان والتي اختزنها المريض واستخرجها من شعوره بعد شهور طوال من العلاج بالتحليل النفسي، ذات ذكريات مؤلمة له غير محببة أو مخيفة أو كريهة إلى نفسه، بحيث يخشى من تذكرها ووعيها.

ومن البديهي أن مثل هذه العملية تتجمع من خواطر المريض غير المترابطة ومن مادة مشتتة غير متصلة تبدو في ظاهرها أنها لا فائدة فيها، ولهذا يتوقف تحليل هذه المعلومات على مقدرة الطبيب المعالج توقفا كليا. وهذا ما دعا بعض النقاد إلى القول بأنه يستطاع تفسيرها على أوجه

عديدة لا حصر لها. ويتضح هنا أن ذكاء المحلل النفسي ومهارته من الأمور الرئيسية في تلك العملية.

وكشف فرويد في أثناء علاجه لمرضاه بالتحليل النفسي، عن عامل غاية في الأهمية وهو نشوء علاقة عاطفية شديدة يتجه بها المريض إلى طبيبه المعالج وسماها (النقل) وشرحها بقوله:

"ولا يريد المريض أن ينظر إلى المحلل النفساني نظرة الناصح والمعين له، بل على العكس قد تعيد رؤية المحلل إلى ذهنه صورة مجسمة لشخصيته نبتت في خاطره من الماضي البعيد، أو من أيام الطفولة. وبها يطرح عليه شعوره بالمودة أو الكره الذي يرتبط بتلك الشخصية في ذهنه.

وقد تراوح عملية (النقل) بين طرفي نقيض من عاطفة جنسية مشبوبة إلى عاطفة مقت وكره لا حد لها، وفي هذه الحالة يصبح المحلل في إحدى مكانتين إما مكانة الأب أو مكانة الأم، ويعتبر فرويد عملية (النقل) هذه من أهم الطرق الفعالة في يد المحلل، غير أن استغلالها من أصعب الأمور على أهميتها العظمى كوسيلة من وسائل التحليل النفسي". ويستطاع حل المشكلة التي يعاني منها المريض بإقناعه أن يستعيد في ذهنه خبرات عاطفية قديمة اختزنها من أيام طفولته ثم يعيش تلك الخبرات مرة ثانية.

وقد استعان فرويد بحيلة أخرى للتنقيب عن الانفعالات والمشادات التي يعانيها المريض وهذه الحيلة هي "تحليل الأحلام"، وهنا كان فرويد الرائد الأول، فقد جرى الناس والأطباء حتى عصره، على اعتبار الأحلام

عارية عن أي معنى أو غرض. وكان كتابه (تأويل الأحلام) أول مجهود جدي في دراسة تلك الظاهرة دراسة علمية. وقد أشار فرويد إلى ذلك الكتاب بعد نشره بإحدى وثلاثين عاما وأنه يحتوي على خلاصة ما اعتز به من النظريات التي وفقت إلى الوصول إليها رغم ما اكتسبته من خبرة طوال المدة الماضية، وقد اقتنعت بأن الأحلام ما هي إلا تحقيق مفتعل الرغبات ماضية مكبوتة في النفس، وأن كل حلم من الأحلام يمثل مأساة في دنيا النفس الداخلية. وأنها تنشأ – دون استثناء – عن صراع نفساني، وأن الحلم هو حارس النوم، وأن وظيفته هي حراسة النوم من المنبهات الخارجية حتى لا يضطرب، فهو تفريج للتوترات التي تنشأ عن رغبات مكبوتة"

وتسيطر على دنيا الأحلام قوة اللا شعور المعروفة (بالهو) وأهميتها للمحلل أنها تساعده على التغلغل في شعور المريض، إذ يستقر في هذا الحيز كل الحوافز البدائية، والرغبات الانفعالية المحتجزة عن الحياة الظاهرة المحسوسة بقوة (الأنا) و(الأنا الأعلى) والرغبات الحيوانية تعيش هناك تحت سطح النفس مباشرة، ولا تظهر إلا قسرا في الأحلام، ومع ذلك ففي حالة النوم لا يغفل الرقيبان أبدا وهما (الأنا والأنا الأعلى) ولهذا السبب نجد أن معنى الأحلام غامض وعسير على الفهم، لأنها تظهر على شكل محرف تحل فيه الرموز والتلميح محل التصريح، ولذلك يستدعي تأويلها خبرة طويلة ومهارة فائقة، فلا تؤخذ تلك الإشارات على ظاهرها إلا أن يكون ذلك في أحلام الأطفال. وقد أورد فرويد في كتاب (تفسير الأحلام) طائفة من الأحلام التي حللها وفسرها بنفسه.

كما أشار إلى أنه من الدلائل التي تدل على ما يجري في اللاشعور فلتات اللسان والنسيان المؤقت. قال فرويد: "وكما يستغل التحليل النفسي تأويل الأحلام، كذلك ينتفع بفلتات اللسان والأخطاء التي تصدر من الناس ونسميها الأفعال العرضية".

وقد حقق فرويد هذا الموضوع عام ١٩٠٤ في كتابه (الأمراض النفسية في الحياة اليومية) حيث قرر أن هذه الظواهر ليست غامضة وإنما هي ذات مغزى يمكن تأويله إذ تكمن وراءها رغبات ودفعات مكبوتة أو محتجزة. فإذا حدث أن إنسانا نسي اسم شخص فقد يجوز أنه نسيه بسبب كراهيته له؛ وكذلك إذا فات إنسانا القطار بسبب التباس جدول المواعيد عليه فقد يدل ذلك على أنه لا يريد أن يستقل القطار، فإذا حدث أن رجلا نسي مفتاح منزله فقد يدل هذا على أنه غير سعيد في بيته ولا يرغب العودة إليه. ودراسة أمثال هذه الهفوات قد ترشد المحلل النفسي إلى تعرف مجاهل العقل الباطن.

وقد يحدث التفريج عن النفس بإطلاق النكت والدعابات، وقد سماها فرويد "أكمل صمام للأمان اخترعه الإنسان الحديث" إذ بواسطتها يتحرر الناس ولو مؤقتا مما تفرضه عليهم آداب السلوك في المجتمع من وجوب كبت بعض الرغبات وحفظها في طي الكتمان. وقبيل نهاية حياته شغلت مسألة (غريزة الممات) بال فرويد، ولعل ذلك يرجع إلى ازدياد تشاؤمه بتقدم سنه، أو بسبب ما لقيه من صدمات، أو توقع اقتراب أجله.

وعلى ذلك انتهي تفكيره إلى أن هذه الغريزة تعمل عملها بالنفس الإنسانية على قدم المساواة مع الغريزة الجنسية، وقرر أن ثمة غريزة للموت تدفع الكائن الحي أن يعود إلى الحالة اللا عضوية التي نشأ منها أول مرة، وفي رأيه أن الإنسان تتجاذبه قوتان هي الدافعة إلى الحياة وهي الغريزة الجنسية وتعادلها الدفعة إلى الفناء وهي غريزة الممات. ولكن الغلبة الجنسية، وتعادلها الدفعة إلى الفناء وهي غريزة الممات ولكن الغلبة آخر الأمر لغريزة الفناء وهي الغريزة المسئولة عن الحرب وعن بعض مظاهر السادية كالتعصب ضد الأجناس أو الطبقات أو التلذذ بحضور قضايا الإجرام أو حفلات مصارعة الثيران أو مشاهدة شنق السود في أمريكا.

إن ما قدمناه هو إيجاز لبعض الجوانب المهمة من نظريات فرويد المتعددة الأوجه، وقد انقسم علماء الطب النفسي اليوم فرقتين أو أكثر إزاءها، وهم بين منقد ومحبذ حتى أن من بين تلاميذه طيلة الخمسين سنة الماضية من تناول نظرياته بالتعديل والتبديل ولم يقبلها برمتها. وأشهر هؤلاء (ألفرد آدلر) وهو من أقدم تلامذته وأوائلهم فقد انشق على أستاذه واعتزله لأنه رآه يبالغ مبالغة شديدة في تأثير الغرائز الجنسية، فعارضها بنظرية أخرى هي "رغبة الإنسان في السيطرة "وجعلها الدافع الأول في السلوك الإنساني، ثم توسع في فكرة "عقدة القصور" التي تدافع الفرد لإثبات شخصيته ووجوده بالقيم بأي نوع من النشاط وكذلك معتزل آخر لا يقل شهرة عن سابقه هو (كارل يونج) وقد درج هذا علي وتيرة (آدلر) في التصغير من قوة الغرائز الجنسية، إذ قسم الجنس البشري لصنفين هما أصحاب المزاج المنبسط وأصحاب المزاج المنقبض إلا أنه نبه

إلى أن كل شخص يجمع بين الصنفين في تفاوت. وعلى خلاف ما قرره فرويد رأى يون جان عامل الوراثة هو الأساس في تكوين الشخصية. ونرى من كل هذا أن جميع النقاد خالفوا فرويد في مسائل كثيرة أهمها ما علقه من أهمية على الأمراض النفسية التي تعلق بالإنسان في مرحلة الطفولة، وما اعتقده من تحكم الغرائز في الإنسان، ومن أن النشاط الجنسي (اللبيد) يحتل مكان البؤرة في تكوين الشخصية. كما اختلف البعض مع فرويد علي خطة (التداعي الحر) ورموها بأنها عرضة للخطأ في الكشف عن اللا شعور وخاصة في الصعوبات التي تعترضها في تفسير المادة التي تتجمع بواسطة تلك الخطة. ورغم ذلك فقد صرح أحد الأخصائيين بالطب النفسي قائلا :أن التغييرات والتطورات التي حدثت في الستين سنة الماضية لم تنقص من عظمة فرويد أو تقلل من شأنه، فإن فضله لا ينكر في أنه فتح آفاق اللاشعور فأظهر أهميته في تكوين شخصيتنا الحاضرة، وعلمنا كيف نسير أغواره. وحقا حدث أن كثيرا من آرائه ونظرياته قد دخلها التعديل والتبديل على يد خلفائه تحت ضوء تجارب جديدة، غير أن هؤلاء كتبوا العهد الجديد لعلم الطب النفسي أما فرويد فقد كتب العهد القديم لإنجيل علم النفس وسيظل عمله قائما لأنه الأساس"

ولا شك في أن نظرتنا للأمراض العقلية مؤخرا مستمدة كلها من فرويد. ويتزايد الاعتقاد يوما بعد يوم أن المصابين بالعصاب أو الذهان لا يختلفون عنا في شيء إلا في درجة التفاوت، كما قرر (ألكسندر ريد مارتن) إذ قال:

"سواء اعترفنا أم لم نعترف، فلا جدال في أن جميع مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية تستعمل في علاجها العناصر والأسس التي قررها فرويد في علم النفس، إذ ما كان في الماضي عالما مجهولا مخيفا بشعا مجرد عن الفهم والغاية، أصبح بفضل فرويد عالما معروفا واضح المعالم، يحتوي على معان جمة لها مدلولها، فاتجهت إليه عناية الطب واهتمامه، كما اتجهت إلى الاعتراف منه جميع العلوم الاجتماعية".

ولم يقف تأثير فرويد عند ذلك الحد بل تعداه إلى الأدب والفن فكان أثره فيهما عظيماً. ففي مجال القصة والشعر والمسرحيات، وجميع صور الأدب الأخرى، نجد موضوعاتها مستمدة من فرويد، وبخاصة في العصر الحديث. قال (برنار دي فوتو): "إنه لم يحدث أن عالما من العلماء كان له هذا الأثر البعيد في الآدب مثل فرويد، ولم يكن في دنيا الفنون كالتصوير والنحت بأقل من تأثيره في دنيا الأدب".

من العسير علينا أن نلخص شتي المآثر الجليلة التي ابتدعتها عبقريته بسبب اتساع مجالها وتنوع أبحاثها، وكذلك بسبب الجدل والمساجلات التي دارت حولها. وقد حاول (روبرت هاملثون)، وهو كاتب أمريكي، أن يحيط بها في كلمة ختامية كتبه في هذا الشأن قال: "لقد أثبت فرويد علم النفس علي خريطة العلوم المعروفة، وكان الرائد الأول في ذلك. ويرجع نجاحه العظيم إلى روحه الابتداعية وقوة أسلوبه الأدبي. ورغم ما في نظرياته من الخروج على المألوف، فإن ذلك لا يحول دون قيمتها من حيث الطرافة والتأثير، وأما أسلوبه فهو أسلوب حي جذاب في موضوعه دون قياسه

بمعايير الأدب البحت، فقد دفع الناس إلى التفكير النفساني الذي يتمشى مع حياتنا الحاضرة، كما أثار في نفوسهم مسائل تتصل اتصالاً وثيقاً بكل ما هو حيوي للجنس البشري. فقد تحدى علم النفس القديم العقيم المعروف في القرن التاسع عشر، وناجزه بأداة من صنع يده هي التحليل النفسي بكل ما فيه من متناقضات مفزعة".

وجاء آخر من الأخصائيين في الطب النفساني فتكلم عن الموضوع نفسه من وجهة نظر جديدة . قال الكاتب الأمريكي (فردريك ورذام): "ينبغي أن نوضح بجلاء نقطة مهمة قبل كل شيء، وهي أنه إلى جانب كشفه عن حشد من الحقائق الإكلينيكية التي أجراها على مرضاه، أحدث فرويد ثلاثة تغييرات أساسية في البحوث الخاصة بدراسة الشخصية وتشخيص الأمراض العقلية؛ فالأول خاص بالعمليات النفسية باعتبارها جزءا من علم التاريخ الطبيعي، وكان هذا من غير المستطاع ، لولا أن فرويد كشف عن حقيقة وجود اللا شعور ورسم الخطة العملية للوصول إلى معرفة أسراره، والثاني أنه كشف عن أفق جديد في علم الأمراض النفسية، وهو عهد الطفولة. وكان الطب النفسي حتى ذلك الوقت ينظر إلى المريض كأنه آدم الذي خلق في صورة إنسان بالغ تام الخلق، وأنه لم يكن طفلاً أبداً. والثالث أنه فتح موضوعاً جديداً للبحث، وهو دراسة الغرائز الجنسية دراسة نشوئية. ويجب أن نفهم من ذلك الكشف أنه لا يقصد أن للطفل حياة جنسية وإنما يقصد أكثر من ذلك وهو أن للغرائز الجنسية طفولتها"

وذكر (ا. ج. بريستلي) نفس الحقائق في خطبة التأبين أمام الجمعية الملكية بلندن قال: "من المستطاع أن ندرك طبيعة الانقلاب الذي أحدثته النتائج والنظريات التي كشف عنها فرويد، لو أننا تذكرنا أنه كان أول رائد بحث أسرار عالم العقل البشري المجهول، الذي لم يسبقه إليه أحد، والذي كان العلماء ينظرون إلى ظواهره البادية على أنها ألغاز أو انحلال أدى إلى خلل الجهاز العصبي، أو يكون نصيبها الإهمال لأن أسبابها مستترة وراء حجاب كثيف من التحكمات الاجتماعية، حتى أنه لم يخطر ببال إنسان مجرد احتمال وجود مثل هذا المجال المجهول، فجاء فرويد وافترض وجود حيز لا شعوري في قرارة الإنساني وأنه حقيقة واقعة من هذا الفرض بحثه مجاهل ذلك الحيز ودخل إليه من ثغرات الفراغ التي تظهر في سلسلة الأحداث".

ثم جاء (ونفرد أوفرهلسر) فأيد رأيه بقوله: "إن لدى جيلنا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن الأجيال القادمة بعد قرن من الزمان ستضع فرويد في صف كوبرنيق ونيوتن باعتباره أحد عظماء الرجال الذين فتحوا آفاقاً جديدة للتفكير البشري. إذ لا مراء في أنه ما من رجل استطاع في زماننا أن يسلط الأضواء على عمليات العقل الإنساني مثل ما فعل فرويد".

وقضى فرويد الشهور الأخيرة من حياته مغترباً في المنفى، بعيداً عن وطنه الذي اضطر أن يغادره علي أثر احتلال النازي للنمسا عام ١٩٣٨، فقبلته إنجلترا وآوته في بلادها، غير أن مرضه بسرطان الفم قضى علي حياته عام ١٩٣٩ أي بعد أقل من سنة من فراره من وطنه.

١٦ـ كتاب النسبية: نظرياتها الخاصة والعامة

ألبرت آينشتاين

لقد تسنى لآينشتاين أن يصبح في عداد أبطال الأقاصيص الأولى، وهو حي يرزق، ولم يحدث ذلك لإنسان في التاريخ إلا لأقلية ضئيلة من الشخصيات، إذ كما استغلق فهمه على عقول الناس استبد بهم الفضول وحب الاستطلاع كأنه أحد الآلهة، يتكلم من قمة جبل شاهق يصعب على الفهم والبصر تصوره. وقد عبر (برتراند رسل) عن ذلك أصدق تعبير إذ قال: "إن كل إنسان يعلم أن آينشتاين قام بعمل عجيب مجيد، ولكنه لا يعرف عن هذا العمل شيئاً"

ورغم ما زعمه البعض أنه لا يكاد يوجد اثنا عشر شخصاً في العالم بأجمعه يستطيعون إدراك نظرياته إدراكاً تاماً، فقد أثار ذلك القول، مع بعده عن الصواب، عجب الناس. ولأن فيه تحدياً لذكاء الآلاف، بل الملايين منهم، جعلهم يشحذون الهمم لمحاولة تفهم أقوال ذلك الساحر العظيم في علم الرياضيات.

ويرجع استغلاق آينشتاين على الفهم إلى التعقيد في طبيعة موضوع بحثه، قال (ب. أ. بريدجز) نقلا عن أحد رجال العلوم الإنجليز، أن نظرية آينشتاين تبحث في العلاقة التي بين الأحداث الفيزيقية والرياضة، ولهذا لا يستطاع التعبير عنها إلا بالمصطلحات الرياضية، ويستحيل صياغتها في شكل آخر سوى هذا الشكل الذي لا يمكن لإنسان أن يفهمه ما لم يكن متمكناً من دراسة علم الجبر".

وعبر (جورج و. جراي) عن الرأي نفسه بقوله: "لما كان صاحب نظرية النسبية قد استعمل في عرضها اللغة الرياضية التي يعسر بغيرها صياغتها، أراد بعضهم – رغم ذلك – أن يعمل على تبسيطها والتعبير عنها باللغة الدارجة. وهو مجهود لا شك ضائع، إذ لو صح ذلك لأصبح من اليسير – بالقياس – أن تؤدي السيمفونية الخامسة لبتهوفن على آلة النفير" .

ومع هذا فمن المستطاع ذكر بعض ظواهر الكون الذي صوره لنا آينشتاين دون الالتجاء إلي المصطلحات الرياضية. والحق أنها صورة طريفة لكون عجيب قلبت أوضاعا طالما ألفها الناس وقطعوا بصحتها طوال مئات السنين الماضية، وهي صورة عسيرة الهضم علي معدة الرجل العادي. إذ يطلب إلينا أن نسلم دون مناقشة بقضايا لا يتصورها العقل، فمنها مثلا: أن الفضاء مقوس، وأن الخط المستقيم ليس أقصر بعد بين نقطتين، وأن الكون ليس لا نهائيا، ولكن لا حدود له، وأن الخطوط المتوازية مصيرها أن تلتقي، وأن الأشعة الضوئية مقوسة، وأن الوقت نسبي، ولا

يمكن قياسه تماماً بطريقة واحدة في كل مكان، وأن قياس الطول يختلف باختلاف السرعة، وأن الكون أسطواني الشكل وليس كريا، وأن الجسم المتحرك يتقلص حجماً ويزداد كتلة، وأن هناك بعداً رابعاً هو الزمن يجب أن يضاف إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة، وهي: الارتفاع والطول والعرض.

وعلى الرغم من أن الخدمات التي أداها آينشتاين للعلم لا تدخل تحت حصر، فإن شهرته ترتكز ارتكازاً أساسياً على نظرية النسبية، وهي التي وصفها (بانش هوفمان) بأنها من الأعمال الجليلة التي تؤهل مخترعها إلى مكان مرموق بين صفوة كبار علماء العلوم في جميع العصور، مثل إسحق نيوتن وأرخميدس، فهي بمتناقضاتها العجيبة ونجاحها منقطع النظير، قد خلبت لب الجماهير وأثارت مشاعر العالم"

وقد بدأ الانقلاب الذي أحدثه آينشتاين في العلوم بمقال عادي عنوانه (عن الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة) نشر في إحدى المجلات الألمانية عام ١٩٠٥ وهو مقال استغرق ثلاثين صفحة. وكان آينشتاين إذ ذاك في السادسة والعشرين من عمره يشغل وظيفة صغيرة بمصلحة تسجيل العلامات التجارية السويسرية.

ولد آينشتاين في أسرة يهودية متوسطة الحال عام ١٨٧٩ في بلدة (أولم) ببافاريا ولم تظهر عليه أمارات النبوغ، وهو طالب، إلا في الرياضيات التي ظهرت فيها ميوله المبكرة ونبوغه. ثم نزلت بأسرته ضائقة مالية اضطرته أن يترك المدرسة في سن الخامسة عشر طلبا للرزق، وهاجر بعد

ذلك إلى سويسرا حيث واصل دراسته في مدرسة الهندسة بزيورخ، وتزوج هناك من إحدى زميلاته في الجامعة وأصبح مواطناً سويسرياً. ولما حيل بينه وبين مركز الأستاذية في الجامعة اضطر أن يعمل موظفا في وظيفة صغيرة بمكتب تسجيل العلامات التجارية والاختراعات، حيث كان يكتب التقارير، ويعيد كتابة الطلبات التي يقدمها المخترعون إلى تلك المصلحة. وانتفع آينشتاين بوقت فراغه في دراسة مؤلفات الفلاسفة، وعلماء العلوم والرياضة. وسرعان ما بدأ يصدر عن قلمه سيل من المقالات العلمية التي لم يسبقه إليها أحد، والتي قدر لها فيما بعد أن تقيم الدنيا وتقعدها، وتحدث فيها أبعد الآثار.

ففي رسالته عام ١٩٠٥ عرض آينشتاين نظريته الخاصة بالنسبية، تحدى بها جميع القواعد المقررة المعروفة عن الزمن والفضاء والمادة والطاقة، ووضع أسس تلك النظرية على فرضين أساسيين. الأول هو قاعدة النسبية ومؤداها أن الحركة مسألة نسبية، والمثال المتداول لهذه القاعدة هو القطار المتحرك، والسفينة المتحركة فالمسافر في قطار متحرك مغلق النوافذ قليل الاهتزاز لا يدرك مطلقاً شيئاً عن السرعة أو الاتجاه، وقد لا يدرك مطلقا أن القطار يتحرك. ونجد المسافر في دخل السفينة المتحركة المغلقة الفتحات، يشعر بنفس الشعور لأننا ندرك الحركة إدراكا نسبياً أي بالقياس إلى أشياء أخرى، فإذا انتقلنا من هذا المثال إلى مجال أوسع منه لما أدركنا حركة الكرة الأرضية، لو لم تكن هناك أجرام أخرى ندرك بواسطتها تلك الحركة بالقياس والمقارنة.

والفرض الثاني هو أن سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره، فسرعة الضوء، وهي ١٨٦,٠٠٠ ميلا في الثانية ثابتة في أي مكان في الكون مستقلة عن المكان والزمان والاتجاه. فسرعة الضوء داخل القطار المتحرك هي نفس سرعة الضوء الثابت خارجه، وأنه لا توجد قوة تؤثر في سرعته بالإبطاء أو الإسراع. أضف إلى ذلك أنه لا يعدل سرعة الضوء شيء آخر إلا أن تكون سرعة الإلكترون التي تكاد تعدل سرعة الضوء. وعلى هذا يكون الضوء هو العامل الوحيد الثابت الذي لا يتغير في الطبيعة.

وقد استفاد آينشتاين من تجربة لقياس سرعة الضوء قام بها عالمان أمريكيان هما (مايكلسون) و(مورلي) عام ١٨٨٧ فجعلها أساسا لنظريته في الضوء. أراد هذان العالمان قياس سرعة الضوء بكل دقة، فابتكرا جهاز فريدا لهذا الغرض، وهو عبارة عن أنبوبتين طول كل منهما ميل وضعاهما على هيئة زاوية قامة، ووجهت فوهة إحداهما مع اتجاه حركة الأرض في دورانها حول الشمس، والأخرى في الاتجاه المضاد لدورانها. ووضع مقابل كل فوهة مرآة، ثم أطلقت أشعة من الضوء في الطرف الآخر لكل أنبوبة في لحظة واحدة. وكانت النظرية السائدة إذ ذاك أن مادة شفافة تسمى الأثير تملأ جميع الفراغ الذي لا تشغله أجسام صلبة. فإذا كانت النظرية صحيحة لترتب عليها اختلاف سرعة وصول الضوء في الأنبوبتين، إذ يشبهان سابحين أحداهما يسبح مع التيار والآخر يسبح ضد التيار ولكن شد ما كانت دهشتهما إذ فوجئا بانعكاس الشعاعتين في وقت واحد بالضبط على المرآتين فاعتبرا أن التجربة قد فشلت.

ولكن رسالة آينشتاين عام ١٩٠٥ تولت الرد على حيرة هذين العالمين وغيرهما من علماء الطبيعة، إذ نبذ نظرية الأثير ووجوده نبذا تاما، وأكد أن تجربة الأنبوبتين قد أثبتت فعلا سرعة الضوء بكل دقة. واستخلص آينشتاين من تلك التجربة أن الضوء يسير بسرعة ثابتة ولا يتأثر قياسها بأي ظرف من الظروف، وأن حركة الأرض حول الشمس لا تأثير لها في سرعة الضوء.

وناقض آينشتاين نظرية نيوتن في الحركة المطلقة، وقرر أنه لا وجود لها، لأن فكرة تحرك جسم ما في الفضاء بحركة مطلق لا يمكن تعليله فحركة كل جسم هي حركة نسبية بالمقارنة بحركة جسم آخر وأن الحركة هي الحالة الطبيعية لكل الأجسام، ولا يوجد أي جسم فوق الأرض، أو أي جرم في الكون، في حالة سكون تام، وأن في عالمنا القلق نجد الحركة مستمرة دائمة، من أصغر ذرة إلى أعظم السدم السماوية فمثلا تدور الأرض حول الشمس بسرعة عشرين ميلا في الثانية.. ولما كان الكون بأجمعه في حركة دائبة، ولا توجد به مراكز ثابتة يحال إليها، فبالتالي ليس هنا معايير ثابتة يستطاع بها قياس السرعة والطول والحجم والكثافة والزمن إلا بالمقارنة بسرعات أخرى والشيء الوحيد الثابت هو الضوء إذ أنه مستقل استقلالا تاما عن مصدره، أو نقط رصده كما أثبت ذلك تجربة (مايكلسون ومورلي)

ولا شك أن أعوص نظريات آينشتاين التي زعزعت كل قديم هي نظرية نسبية الزمن فهو يقرر أن الحوادث التي تحدث في أمكنة مختلفة، وفي لحظة واحدة، يختلف زمن حدوثها في نظر مشاهد آخر يتحرك نسبيا

صوب المشاهد الأول فمثلا قد يحكم مشاهد ما فوق سطح الأرض أن حادثتين وقعتا في لحظة واحدة، بينما هما مختلفان في الزمن في نظر راكب قطار أو طائرة وبذلك يكون الزمن نسبيا مع مكان المشاهد وسرعته وليس مطلقا فإذا طبقت تلك النظرية على الكرة يكون وقوع حادث في نجم ناء عنا كانفجار مثلا يراه ساكن من سكان الأرض هذا الانفجار لا يحدث في الآونة التي رآه فيها الساكن على سطح الكرة الأرضية فإنه رغما من أن سرعة الضوء هي ١٨٦٠٠٠ ميلا في الثانية، فقد يجوز أن ذلك الانفجار قد حدث في النجم منذ أعوام مضت قبل أن تصل أخباره إلى دنيانا، وبذلك يكون النجم الذى نراه اليوم هو في الواقع النجم كما بدا منذ زمان طويل ولو فكرنا قليلا لأدركنا احتمال عدم وجود النجم نفسه مطلقا.

وإن تصورنا أن مخلوقا من البشر وهب سرعة أكبر من سرعة الضوء، لأصبح في إمكانه، حسب نظرية النسبة، وأن يعود أدراجه، فيستعيد ماضيه حتى يصبح مولده في المستقبل بالنسبة له وكل كوكب متحريك له نظامه الزمني الخاص به، مستقلا عن أي نظام زمني في أي جهة أخرى فمعنى اليوم على كرتنا الأرضية هو الزمن الذى تستغرقه الأرض في دورة كاملة حول محورها ولما كان (المشترى) يستغرق في دورانه حول الشمس زمنا أطول من زمن الأرض فالسنة في المشترى أطول من السنة في عالمنا، وكلما زادت السرعة تقلص الزمن وقد تعودنا في تفكيرنا من قديم أن لكل جسم ثلاثة أبعاد، ولكن جاء آينشتاين بنظرية بالزمن كبعد للفراغ، وأن بالفراغ يعد من أبعاد الزمن، وليس لأحدهما وجود منفصل،

بل يتوقف وجوده على وجود الآخر وحيث أن الحركة والتغير ظاهرتان دائمتان فنحن نعيش في عالم له أربعة أبعاد، ورابعها هو الزمن.

ومن هذا يتضح لنا أن الفكرتين الرئيسيتين في نظرية آينشتاين كما عرضها منذ نصف قرن مضى هما النسبي في الحركة، وفكرة أن الضوء هو الكمية الثابتة في الكون.

ونقض آينشتاين كثيرا من القواعد القديمة الراسخة، بفضل فكرة نسبية الحركة قد كان الطول والكثافة يعتبران قبل ذلك من المعايير الثابتة التي لا تتغير مهما تغيرت الظروف فجاء آينشتاين، وقرر أن طول أي جسم ووزنه أو كتلته يتوقفان على مقدار السرعة التي يتحرك بها الجسم وضرب مثلا لقطار تصور طوله ألف قدم يسير بسرعة تعدل أربعة أخماس سرعة الضوء فهذا القطار يتناقض إلى ستمائة قدم فقط في نظر مشاهد ثابت في مكانه وبينما يظل طوله ألف قدم كما هو في نظر راكب القطار.

وكذلك أي جسم مادي يسير في الفضاء فإنه يتقلص تبعا لسرعته فإذا قذفنا بعصا طولها ياردة واحدة في الفراغ بسرعة ١٦١,٠٠٠ ميلا في الثانية فإن طولها ينقص إلى نصف ياردة فقط وأما حركة الأرض حول نفسها فلها أثر عجيب إذ يبدو محيط الكرة أقصر من حقيقته بثلاث بوصات تقريبا.

وكذلك الحال في كثافة الجسم، لأنها متغيرة فكلما زادت سرعة الجسم ازدادت كثافته وقد أثبتت التجارب أنه إذا أطلقت جزئيات من

المادة بسرعة ٨٦% من سرعة الضوء يتضاعف وزنها عما كان وهي في حالة سكون وكانت هذه الحقيقة العلمية ذات أثر بالغ في تقدم النظرية الذرية.

وقد عرفت النظرية الأولى التي نشرها آينشتاين عام ١٩٠٥ باسم النظرية الخاصة عن النسبية، لأن نتائجها اقتصرت على شرح الحركة الثابتة في اتجاه مستقيم، ولم تتعرض لأي نوع آخر من الحركة، ولما كانت النجوم والسيارات وغيرها من الأجرام السماوية في عالمنا نادراً ما تتحرك في خط مستقيم فكل نظرية لا تحيط بجميع أنواع الحركة لا تؤدي إلا إلى صورة ناقصة عن الكون فخطا آينشتاين الخطوة التالية بصياغة النظرية العامة عن النسبية وهو عمل استغرق منه عشرة سنوات وكلفه مجهودا هائلاً من حيث التطبيق العلمي.

وفى هذه النظرية، تعمق آينشتاين في بحق القوة الخفية التي تتحكم في حركات النجوم والمذنبات والنيازك والسدم والأجرام الأخرى التي تدور بسرعة هائلة في أرجاء الكون وفي هذه النظرية العامة التي أنشأها عام ١٩١٥ جاء آينشتاين بفكرة جديدة عن الجاذبية، فأدخل بذلك تغيرات مهمة على نظريتي الجاذبية والضوء اللتين قبلهما العالم منذ زمن السير إيزاك نيوتن، وكان نيوتن قد قرر أن الجاذبية عبارة عن (قوة) فعارض آينشتاين ذلك بقوله أن كل فضاء حول كل كوكب أو جرم سماوي هو مجال مغناطيسي يشبه المجال المغناطيسي، وكلما كان حجم الجرم السماوي عظيماً، كالشمس أو النجوم مثلا، اتسع نطاق مجاله المغناطيسي وفسر

جاذبية الأرض للقمر على ضوء هذه النظرية التي فسرت كذلك الحركات المضطربة لمدار كوكب عطارد التي حيرت علماء الفلك عدة قرون، والتي عجزت نظرية نيوتن في الجاذبية عن تعليلها.

وقرر آينشتاين كذلك أن شدة الجاذبية في المجال المغناطيسي تؤثر في أشعة الضوء بحيث تحرفها عن اتجاهها المستقيم فتحنيها وحدث في عام ١٩١٩، أي بعد نشر النظرية العامة للنسبية، أن أخذت صور شمسية لظاهرة خسوف الشمس الكامل فتأيدت بها صحة نظرية آينشتاين إذ أظهرت أن أشعة الضوء في أثناء اختراقها المجال المغناطيسي للشمس اتجهت في خطوط منحنية ولم تتجه في خطوط مستقيمة.

وتوصل آينشتاين من هذه القضية إلى إحدى نتائجه العلمية، وهي أن الفراغ مقعر، وأن السيارات في دورانها حول الشمس تتبع أقصر الطرق تحت تأثير مجاورتها للشمس بمثل ما ينحت النهر لنفسه في جريانه إلى المحيط مجرى طبيعياً في التربة، حيث تكون الأرض رخوة سهلة وبذلك يكون في طبيعة الأشياء على أرضنا، وأن السفينة أو الطائرة التي تعبر المحيط تسير في خط منحن، أي في قطاع من دائرة، ولا تسير في خط مستقيم، ويصبح أقرب بعد بين نقطتين هو الخط المنحني، وليس الخط المستقيم وهذه القاعدة تصدق على حركة الكواكب كما تصدق على أشعة الضوء.

فإذا ثبتت نظريته في أن الفضاء مقعر، فالنتيجة المنطقية لذلك هي أن الفراغ محدود، فلو فرض أن شعاعاً من الضوء انطلق من إحدى

النجوم فلا بد له في النهاية من الارتداد إلى حيث أتى، ولو بعد مئات الملايين من السنين كأنه مسافر يدور حول الأرض، فلا بد له أن يعود من النقطة التي بدأ منها فالكون لا يمتد امتداداً لا نهائيا في الفضاء لأنه محدود رغم أنه لا يمكن تقرير حدوده تلك، ولعل عظم الاكتشافات والنتائج التي وصل إليها آينشتاين هي التي تتصل بالنظرية الذرية، والتي كان لها الأثر في حياتنا في العصر الحاضر..

ونعود فنقول أنه على أثر مقاله عن النسبية عام ١٩٠٥ في مجلة (حوليات الفيزيقا) أعقبه بمقال آخر في المجلة نفسها عنوانه (هل قوة القصور الذاتي لجسم ما تتفوق على مقدار طاقته؟) قرر فيه أن استعمال الطاقة الذرية ممكن على الأقل من الوجهة النظرية البحتة.

ويمكن الوصول إلى إطلاق هذه الطاقة الهائلة من عقالها عن طريق معادلة جبرية اختراعها هو، وهى أشهر معادلة جبرية في التاريخ، ونصها (ط = ك س^{٢}) وبعبارة أخرى أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في سرعة الضوء، ثم مضروبة مرة أخرى في سرعة الضوء، وقرر آينشتاين أنه إذا أطلقت الطاقة الكامنة في نصف رطل من أي مادة يمكن الحصول منها على قوة تساوي قوة انفجار سبعة ملايين طن (ت. ن. ت).

قال أحد المعلقين على تلك المعادلة: كان من الجائز أن يعثر المشتغلون بالتجارب العلمية على تحطيم ذرة الأورانيوم دون حاجة إلى

معادلة آينشتاين، ولكنه من المشكوك فيه جدا إذا كانوا يدركون أهمية ذلك من ناحية قوة الطاقة أو إمكان صنع القنابل منها.

وفوق ذلك أثبت بتلك المعادلة أن الطاقة والكتلة شيء واحد، وإنما تختلف الواحدة عن الأخرى في الحالة فالكتلة ما هي إلا طاقة مركزة..

كتب (بارنت) بكلمة رائعة عن خطر تلك المعادلة قال: إنها زودتنا بالحل لكثير من الألغاز التي طال عليها الزمن في علم الطبيعة، وعللت السبب في أن المواد ذات الإشعاع مثل الراديوم والأورانيوم تنطلق منها جزئيات ذات سرعة عظيمة، تظل على هذه الحالة من الانطلاق ملايين السنين، وكذلك فسرت كيف أن الشمس وجميع النجوم تستطيع أن تشع الحرارة والضوء لعدة ملايين من السنين، إذ لو أن الشمس كانت تتناقض حرارتها بحسب القوانين العادية للاحتراق لتجمدت الأرض وانعدم كل ما على ظهرها في وسط ظلام دامس منذ زمان بعيد.. كما كشفت لنا عن خطر نواة الذرة وعظم الطاقة الكامنة فيها وأكثر من هذا، أنها قدرت كم جراما من معدن الأورانيوم يجب أن تستعمل لتدمير مدينة بأكملها.

وظلت المعادلة التي وضعها آينشتاين في عداد الأمور النظرية حتى عام ١٩٣٩ وقد أصبح صاحبها إذا ذاك لاجئا مقيما في الولايات المتحدة، ثم تجنس بالجنسية الأمريكية لأن النازيين كانوا قد طردوه من القارة الأوربية، فلما علم آينشتاين أن الألمان يستوردون كميات من معدن الأورانيوم وأنهم يجدون في البحث للوصول إلى اختراع القنبلة الذرية، بادر

فكتب رسالة خاصة سرية إلى الرئيس روزفلت قال فيها: إن الأبحاث الحديثة التي قام بها العالمان (فيمى وزيلادر) والتي وصلتني منها نسخة خطية تجعلني أتوقع أنه أصبح من المستطاع استعمال معدن الأورانيوم كمصدر لإنتاج الطاقة في المستقبل القريب، وهذه الظاهرة الجديدة يمكن أن تؤدي كذلك إلى صنع نوع من القنابل تكفي الواحدة منها إذا حملت بطريق البحر، وفجرت في ميناء ما، لتدمير الميناء تدميراً تاما مع جزء من المنطقة المحيطة به.

وبناء على هذه الرسالة بدئ بتشييد محطة مانهتان لإنتاج القنابل بالذرية، وعقب ذلك بخمس سنين أجريت أول تجربة لتفجير قنبلة ذرية في صحراء (الماجوردو) في ولاية نيومكسيكو، وبعد مدة قصيرة من هذه التجربة ألقيت قنبلة ذرية على مدينة (هيروشيما) فأحدثت بها ذلك الدمار الذريع الذى أدى إلى تسليم اليابان تسليما عاجلا وأنهى الحرب معها.

ورغم أن القنبلة الذرية من أبرز التطبيقات العملية لنظريات آينشتاين فإن شهرته تقوم كذلك على نواح واكتشافات علمية أخرى لا تقل عنها أهمية؛ ففي نفس الوقت الذي نشر فيه نظريته الخاصة عن النسبية عام ١٩٠٥ وضع كذلك قانون التصوير الكهربي وهو الكشف الذي مهد الطريق إلى اختراع التلفزيون والسينما الناطقة والعين الكهربائية بجميع مزاياها المعروفة، وقد منح آينشتاين جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٢٢ بسبب هذا الكشف.

وفى سنيه الأخيرة دأب على وضع نظريه جديدة سماها (نظرية المجال الواحد) ومؤداها إثبات التناسق والوحدة في الطبيعة بأجمعها، وتبعا لتلك النظرية رأى آينشتاين أن القوانين الثابتة الطبيعة للذرة يجب أن تطبق بالمثل على جميع بالأجرام السماوية العظمى.

وبهذا ينطوي تحت تلك القاعدة جميع الظواهر الطبيعية في الكون، من جاذبية وكهرباء ومغناطيسية وطاقة ذرية على السواء في نظام واحد، وخرج على العالم سنة ١٩٥٠، بعد بحث دام حقبة طويلة من الزمن، بتلك النظرية، وأبدى اعتقاده بأن نظريته هذه هي مفتاح الكون بأجمعه إذ يوحد في فكرة مفردة بين الذرة الضئيلة غير المرعبة بدنياها الشديدة الدوران وبين حركة الحشد الهائل من النجوم والسدم التي تملأ الفضاء.. إلا أن النظرية لم يستطع بعد التحقق من صحتها بالمقاييس الطبيعية الثابتة بسبب شدة تعقيد العمليات الرياضية التي تستلزمها، ومع هذا فإن آينشتاين كان راسخ الاعتقاد في أن نظرية المجال الموحد سوف تفسر يوما ما الخصائص بالذرية للطاقة كما إنها سوف تفسر وجود كون منظم خير نظام.

وقد وصف آينشتاين فلسفته التي ألهمته وأرشدته خلال عشرات السنين التي بذل فيها مجهودا فكريا مضنيا، والنتائج المرضية التي توصل إليها في محاضرة عن مصادر النظرية العامة للنسبة ألقاها بجامعة جلاسجو علم ١٩٣٣ قال: إن النتائج النهائية التي توصلت إليها هي من البساطة بحيث يفهمها الطالب الجامعي النابه دون ما عناء، ولكن البحث في ظلمة

المجهول طيلة سنين متعاقبة عن حقيقة واحدة يشعر الإنسان بوجودها دون أن يستطيع التعبير عنها، وما يعتمل في صدره من الأمل الملح وتوالي الإحساس بالثقة والشعور باليأس على نفسه آونة بعد أخرى حتى ينجح في تحطيم الحجب المظلمة المحيطة بها، فينفذ فجأة إلى دنيا من النور تستبين له فيها الأشياء كلها تلك أحوال لا يستطيع إدراكها سوى من عاناها وصابر نفسه على فحصها دون غيره وفي مناسبة أخرى عبر آينشتاين عن الناحية الروحية العميقة تكمن في سجيته قال: لعل إبداع الانفعالات وألغها أثرا في النفس هو ما يستولي على الإنسان من الإحساس بالغيب عند وقوفه أمام الأسرار بالعويصة التي تستغلق على فهمه، لأن ذلك الإحساس هو أصل كل علم صحيح والإنسان المجرد عن هذا الإحساس بالعجب والدهشة التي تعقد اللسان هو والموتى سواء بسواء، وأن شعورنا بأن وراء تلك الأسرار الخافية علينا حقائق لها وجود، وأننا لا ندرك منها بعقولنا المحدودة إلا أولياتها التي تدل على حكمة إلهية مقرونة بأبهى وراء وأجمل سناء، هذا الإدراك وهذا الإحساس هو منبع كل إيمان صحيح. وقد أولاه عدد كبير من العلماء حقه من الإطراء ونحن نجتزئ من هذا كله بكلمتين لكاتبين اشتغلا بوضع ترجمة حياة آينشتاين عبرا فيهما عن عظم مكانته العلمية، قال (بول أوهزر): أن لفظة تأثير لا تؤدي المعنى في وصف أعمال البرت آينشتاين، فإن النظريات التي جاء بها كانت ثورة عظيمة في حد ذاتها فمنها ولد العصر الذري الذي لا ندري إلى أي مصير سيقود الجنس البشري، غير أننا نعلم علم اليقين أن ذلك الرجل هو أعظم العلماء والفلاسفة في القرن الحالي، لو أن مكانته تكاد ترتفع في نظرنا إلى مرتبة

القديسين، وأن أعماله الرائعة تبرر اعتقادنا الذي لا يتزعزع بإيماننا بمقدرة بالعقل البشري وإمكانياته، وأن هذا الرجل رمز يمثل أعز أمنيات البشرية، أمنية البلوغ إلى النجوم في مسالكها.

والآخر هو (بانش هوفمان) كتب في ختام كلمة عن آينشتاين قال: لا تقترب أهمية نظرات آينشتاين على نجاح تطبيقها فحسب بل كان لها تأثير نفسي لا يقل أهمية عن ذلك النجاح، فقد جاء في فترة من أحرج فترات البحث في تاريخ العلوم، وأثبت أن النظريات القديمة لا تتمتع بالحصانة المقدسة، وهذه هي الفكرة القاطعة التي بددت غياهب الأوهام، وحررت منها العلماء أمثال (بوهر) و(دي بروجلي) فبعثت فيهما روحاً تحريرية جديدة أكسبتهما النصر في مجال (النظرية الكمية) وأنى اتجهنا في علوم الطبيعة في القرن العشرين نجد أن آينشتاين قد ترك فيها طابعاً لا يمحي من عبقريته.

من كتاب « كتب هزت مشاعر العالم »

هوداسي سبب

١- جمهورية أفلاطون

٢- الكوميديا الإلهية

٣- مسرحيات شكسبير

أ –جمهورية أفلاطون

أفلاطون يسعى وراء الحياة المثالية

في تلك الحقبة العجيبة من الفكر الإنساني، وهي المائة الخامسة قبل الميلاد التي شهدت (كونفوشيوس ولاوتسي) ينشران تعاليمها في الصين و(جوتاما بوذا) في الهند و(أشعيا) في يهوذا، وحفلاً حاشدا من ألمع العقول في الوطن الإغريقي القديم، في تلك الحقبة نفسها حدث كذلك في أثينا أن حكم بالموت على رجل من أحكم رجال عصره وأشرفهم. وكانت التهمة التي وجهتها إليه الدولة هي أنه أفسد عقول الشباب بأقواله الخاطئة، ولما أدين بذنبه أذن له قضاته أن ينفذ بيده الحكم على نفسه فشرب قدحا من السم القاتل، وهي طريقة للإعدام تمشي مع عادات الإغريق في الاحتفاظ بوقارهم. إن ميتة سقراط، و كلمته الأخيرة التي ودع بها أصحابه ومريديه، وشجاعته النادرة في التضحية بحياته في سيل مبادئه كل هذا يعد أسمى وأروع ما سمت إليه النفس الإنسانية على الإطلاق. لقد سعى سقراط جهده طيلة حياته للوصول إلى الحقيقة، ومن أجلها اختار أن يضحي بحياته على أن يخونها.

ومهما يكن الأمر فإن الحق لا يفنى بصلب صاحبه، أو يغرق في كوب من السم، فقد نهض من بين تلاميذ ذلك الرجل العظيم من أتم رسالته باسمه، إذ أكمل أفلاطون مذهبه؛ فقد وعي ذهنه الأحاديث التي

تعبر عن عقل أستاذه الثاقب، وتذكر – فيما تذكر – تلك المبادئ السامية التي تجلت في أثناء مناقشته للأسس التي تتحكم في الحياة البشرية، وهي العدالة، والخير، والحق، والجمال.. وراجع في ذهنه كيف استطاع سقراط في صبر وأناة أن يستقرئها بعد أن خاض إليها الباطل خوضا، وأعاد على الأسماء أسئلة أستاذه الفاحصة التي فند بها كل رأي ظاهره الصواب وباطنه الخطأ، ولكن أفلاطون كان أنفذ من أستاذه عقلا وأوسع أفق، وبهذا تمكن من أن يوضح المسائل الخطيرة التي أثارها سقراط. ومن حسن حظ الإنسانية أنه دوَّن كل آرائه وحررها، على خلاف أستاذه الذي نشر آراءه وتعاليمه بالمحاضرة والعمارة الشفوية. وهكذا عرفنا فلسفة سقراط عن طريق أفلاطون فأضفى عليها فيضاً من سنا عقله المتوقد، ذلك العقل الذي لم يشهد العالم له مثيلاً قط.

وقد استبان سقراط في بحثه عن الحقيقة طريقة تتوالى فيها الأسئلة، فيحلل كل جواب سؤال جديد، ويستبعد كل ما يعلق من خطأ، بسلسلة أخرى من الأسئلة الموجهة، فيقطع الطريق على كل زيف، بالمنطق، ولم يستثن نفسه إذ كان يقيم الاعتراض تلو الاعتراض على آرائه بالذات، وبهذا عرفت طريقته بطريقة "الحوار"، وهي من أمثل الوسائل في الوصول إلى الحقيقة لأنها تسمح ببحث كل اعتراض واستدراك، فإما أن يرفض أو يقبل. ونسج أفلاطون على هذا المنوال الفريد في كتاباته إذ قال: «إن مقارعة السؤال بالسؤال من أعظم الوسائل وأجداها في تخليص الحقيقة من أدرانها»

كان عقل أفلاطون عقل شاعر وكاتب مسرحي، زيادة على أنه عقل فيلسوف، وبذلك يصبح كل حوار زاخر بالسؤال، والجواب صورة المسرحية رائعة قوية تعرض فيها الآراء على مسرح من الحياة الإغريقية. ويقوم بأدوارها شخصيات متميزة عن بعضها البعض، تمثل كل منها رأيا ومزاجا خاصا بصاحبه. وتغير مناظر المسرحية؛ فهي حينا في المدرسة التي أنشأها أفلاطون في وسط حديقته بأثينا، وطورا يكون المنظر وليمة من تلك الولائم حيث يجتمع الضيوف والندامى على الشراب، ويأخذون بأطراف الأحاديث والحوار حول تلك الفكر الخوالد. ونرى تلك الشخصيات بعد الانتهاء من تناول طعامهم البسيط، على عادة الإغريق القدماء من الاعتدال، نراهم يجلسون إلى سقراط وهو واسطة العقد في المسرحية وبطلها، ثم يبدأ الحديث والحوار. فطرح أفلاطون افتراضا للبحث والمناقشة في صورة سؤال، قد يروق في نظر شاب متوثب من بين الحاضرين فيتحداه فإذا به يجد نفسه غارق في سيل متواتر من الأسئلة، ثم المزيد من الأسئلة فتتملكه الحيرة ويتولاه الارتباك جزاء وفاق على حماقته وتسرعه، أو ينبري به شيخ عنيد مكابر يداوره في رأي من الآراء القديمة السقيمة، أو يتقدم شاب آخر فيجاري المعلم في آرائه، مجاراة دون تفكير، فيتبين في دهشة أن مجاراته لا تجدي، لأن سقراط لا يبحث عن أنصار لرأيه بينهم، وإنما يهدف للوصول إلى الحقيقة وحدها أياً كانت. وهو في كل ذلك يلجأ إلى سلاح المنطق القاطع، والنكتة اللاذعة، والمبارزة العقلية الشريفة مع خصومه، أو يؤيد رأي كل منها..

والواقع أن غرض أفلاطون من كل ذلك الحوار وتلك المساجلات هو الوصول إلى الحقيقة والجمال المجرد، غير أنها مع ذلك تتصل بالحياة العملية، فيتساءل مثلاً: كيف يمكن للإنسان أن يحيا حياة فاضلة؟ وسرعان ما يتطور الحوار فيستبين أن الحياة الفاضلة لا تتسنى لإنسان بمفرده أو بمعزل عن الناس، لأنه جزء من المجتمع الذي يعيش فيه. ومن هنا يضطر أن يسأل مرة أخرى وما هو إذن المجتمع الفاضل؟ فقد اتضح أنه ليست الفضيلة الفردية وحدها التي توفر للمرء حياة طيبة، بل لا بد من البيئة الصالحة.

إن كتابه الجليل – كتاب الجمهورية – تعبير صادق عن الخير وعن العدالة، لقد كان أفلاطون يحرص كل الحرص على تطبيق مبادئه الفلسفية على السياسة العملية، وأغلب الظن أن مأساة إعدام سقراط التي وصفها وصفا رائعا في كتابه المسمى (فيدون) قد خلقت في نفسه المرهفة شعورا عميقا بالظلم والألم. والراجح أن تلك الكارثة قد حفزته أن يقف حياته على البحث عما هو حق، على غرار ما فعل أستاذه حتى آخر رمق من حياته. ومن أجلها ارتحل إلى (ميجارا) حيث تتلمذ على إقليدس وتلقن عنه علوم الرياضيات والهندسة النظرية وأدرك عظم دقتها وقيمتها، إلا أن ذلك لم ينقع علته، ولم يشبع رغبات نفسه، كما كان الحال مع أستاذه القديم في أثينا. فقلقت ركابه في البلاد بين حل وارتحال، فيوماً بمصر و(قورينا) ويوما بأطراف بلاد اليونان ومدن جزيرة صقلية.

فحط رحاله في صقلية حيث راوده الأمل في أن يطبق حكمة سقراط في أمورها، لأن (ديونيسيوس) طاغية تلك البلاد، أظهر في بادئ الأمر ميلا شديدا وإعجاباً عظيما بتعاليمه. ولكن جرت عادة الطغاة على عدم الانصياع إلى آراء المثاليين ومبادئ الدعاة إلى الكمال ولا يستسيغون الحكمة المطلقة. لأن الحق المجرد يتنافى مع مصالحهم وأهوائهم؛ فتبرم (ديونيسيوس) بآراء أفلاطون عن الدولة المثالية وانتقاده حالة دولة صقلية تحت حكمه، واشتد غضبه وأمر، فقبض عليه وسلم إلى سفير أسبرطة فباعه هذا في سوق الرقيق في (إيجيتا). ومن حسن حظ الفيلسوف أن كان له أصدقاء بقدر ما كان له من الأعداء، فتقدم أحد أصدقائه ويدعى (أنيسيرس) فاشتراه وأطلق سراحه.

ومن ثم عاد أفلاطون إلى أثينا، وهناك أيقن أن القضاء قد قدر له أن يسلك السبيل التي سلكها أستاذه من قبله وهي تربية الشباب؛ فأنشأ مجمعا لتلاميذه في ملعب بحديقته المعروفة وبالأكاديمية، واتبع في تعليمهم الطريقة التي اتبعها أستاذه من قبل، وهي المناقشة الدقيقة في صيغة سؤال وجواب. ووسط الهدوء الشامل تحت ظلال أشجار الأكاديمية، أو حول موائد الطعام، وفي جو من الأخوة تصدر الأستاذ مجلسه وناقش تلاميذه فكشف عن القواعد الأساسية للأخلاق. وعلى خلاف طريقة أستاذه دون أفلاطون تلك المحادثات وهذبها تهذيبا وجعل منها نظاما من الآراء المترابطة.

ورحل أفلاطون مرة أخرى إلى (سيراكوز)، لما توفي (ديونيسيوس) الكبير وخلفه ابنه على عرش صقلية، يحدوه الأمل في الإصلاح، فاستقبله الأمير الشاب أحسن استقبال لأنه كان شديد الميل كأبيه لمبادئ أفلاطون، ولكن تكررت المأساة السابقة، إذ تقدم (ديونيسيوس) الابن على (ديون) السياسي الذي دعا أفلاطون إلى القيام بهذه الزيارة ونفاه من صقلية، وصارح أفلاطون بأنه من المستحيل أن يسمح له بتحقيق حلمه بإقامة دولته المثالية في صقلية. وبعد ذلك بعدة سنين حاول في رحلة ثالثة إلى صقلية أن يوفق بين (ديونيسيوس) و(ديون) إلا أنه فشل في ذلك فشلا ذريعاً؛ فعاد أدراجه إلى أثينا وعكف بعدئذ حتى يوم وفاته عام **٣٤٧** ق. م. على التدوين والتعليم. وقضى حياته باحثا عن الحقيقة المجردة بعيدا عن عواصف السياسة وزعزعها.

وبهذا وجدت أحلامه عن الدولة المثالية متنفسا على صفحات (جمهوريته)، ولم تخرج إلى الوجود في دولة صقلية، و(الجمهورية) هي أول "طوبا" أو مدينة فاضلة، سبق بها أفلاطون ما كتبه عنها (توماس مور) بألفي عام، وقد استمد المؤلف الأخير وحبه في مدينته الفاضلة بجميع صورها من جمهورية أفلاطون وأسماها بذلك الاسم (طوبيا)، ومع ذلك لم يستغرق أفلاطون في أن يرسم صورة عجيبة لمكان توهمه. وكان كل ما فعله أن صور صورة رائعة لشابين سعيا إلى سقراط، وهو يبرح احتفالا ما، فاعترضا سبيله في الطريق وأكرهاه على أن يعرج على دار (كفالوس) وهو والد أحدهما ليشاهد سباق الشعلة على ظهور الخيل، ويشارك القوم في طعامهم وشرابهم وأحاديثهم. فلما انتهى السباق اجتمع في الدار ستة نفر

هم: (كفالوس) صاحب الدعوة وهو شيخ وقور طيب القلب هادئ الطبع ثم ابنه (ترازيماخوس) وهو رجل مغرور جدلي سيء الطبع، يحبذ القوة ويؤيد امتيازات الطبقات، ثم (أغلوقون) صديق سقراط، وهو رجل محب للملذات والفنون والحب والمتعة، ثم أخوه (أديمانتاس)، وهو شاب متزن جدي النزعة، وأخيراً سقراط نفسه. واتخذ المجلس مكانه حول مائدة النبيذ فاكتملت بذلك حلقة من الأشخاص الذين هيأهم أفلاطون للاشتراك في المناقشة في موضوع كتابه بكل ما فيه من أصول وفروع.

واستطاع أفلاطون بما أوتي من سمو الخيال أن يدير دفة المناقشة حتى يصل بها إلى أعماق المسائل؛ فيبدأ (كفالوس) يتحدث عن مباهج الشيخوخة، ولكنه يشكو ضعفها فيرد عليه سقراط بقوله: "إنك سعيد في شيخوختك، بفضل شرائك"، فيسلم الشيخ بذلك ولكنه يعقب بأن الثروة ليست كل شيء، وهو إنما يشعر بالسعادة في ثرائه حقا لأنها وقته من ارتكاب أي أثم ينافي العدالة قد يرتكبه تحت وطأة الحاجة والعوز. وهنا ينشط سقراط فيسأله وماذا تعني بكلمة العدالة.

وبمثل هذا الاستطراد السهل من الحديث كان يتجه أفلاطون إلى أغوار المعاني مما أضفى عليه تلك الروعة التي نشعر بها في كتابه الذي يجمع بين دفتيه خلاصة الحكمة البالغة التي تكشف لنا عن فلسفته. وكانت تلك المسائل حادثة على العقل الإنساني في القرن الخامس، ولكن ما فتيء الإنسان يكررها منذئذ، وكثيرا ما كان يرجع إلى صفحات أفلاطون يقتلها بحثا وراء الأسس التي بنى عليها حججه. وعندما تساءل سقراط عن

العدالة انبرى (ترازيماخوس) الفظ للرد، محتجا بأن العالم لا يخضع لغير الرجل القوي، وبذلك تكون القوة هي العدالة، فيعترضه (أغلوقون) منها إلى أنه من حق الضعيف أن يتمتع بالسعادة كذلك. وعند ذكر كلمة السعادة يعرض موضوع جديد للبحث ويندفع القوم لمطاردة صيد جديد. فما هو كنه ذلك الشيء الذي نسميه السعادة التي نتكلم عنها؟ وهل يمكن لإنسان ما أن يشعر بالسعادة عندما يسلب كل وسائلها المادية؟ (وهنا نسال أنفسنا ترى هل تذكر أفلاطون محنة سقراط في سجنه أو ترى أنه تذكر تلك الساعات الحالكة التي مرت به وهو يُباع بيع الرقيق في سوق بلدة (ايجبينا)؟.

الوسائل المادية!! إذن علام يتوقف أدنى ما يرتضيه الإنسان منها، إن لم يكن ذلك سعادته؟ ويتضح من السؤال أن أفلاطون كان يدرك أن احتياجات الإنسان المادية لا تدخل في الفروض النظرية، وإنما هي أشياء عملية، فتوصل أن يحصرها في الغذاء والكساء والمأوى. وعلى هذا الأساس المحدد بدأ الحاضرون شيئاً فشيئاً يرسمون صورة مجتمع قائم ويبينوا حاجاته التي لا غنى عنها. وعندما تتضح للعيان صورة أبسط مجتمع ممكن يعترض (أغلوقون) وينعي عليه أنه ليس مجتمعاً جديراً بآدميين، وإنما هو مدينة لا تصلح إلا للخنازير، لأن الإنسان يحتاج بطبيعته إلى الفنون والجمال والمتعة؛ فسلم القوم بوجوب إضافتها جميعاً إلى بناء مجتمع تلك المدينة، ومن ثم تخرج هذه عن بساطتها الأولى، وتتعقد بها الأمور. فلا معدي إذن من إعادة البحث وإضافة طبقات جديدة من الناس يكتمل بها نظام المدينة، إذ لا بد من وجود فنانين وصناع وتجار وجنود لحمايتها من

أعدائها، وقوم يسهرون على إدارة شئونها المتنوعة. وانتهت بهم المناقشة إلى ضرورة وجود ثلاث طبقات كبرى في تلك المدينة هي الحكام والجنود والعامة.

ويقتضي وجود تلك الطبقات فرض نظام لتدريبها تدريباً سليماً، وعندها تتجه المناقشة بطبيعتها إلى بحث موضوع التربية الواسع المدى. وفي هذا الموضوع بالذات كان أفلاطون أول الفاتحين فيه، إذ قرر في وضوح لا لبس فيه، أن التربية تشمل حياة الإنسان بأجمعها من المهد إلى اللحد. وأنها تمهيد لا بد منه لمرحلة الخلود بعد الموت. كما قرر أن جوهر التربية يجب أن ينصرف إلى بناء الشخصية والأخلاق. ومما يجدر ذكره بمناسبة رأي أفلاطون هذا أن جميع المدارس الخاصة التي أسست في أواخر العصور الوسطى في إنجلترا تأثرت بالمثل العليا الأفلاطونية في التربية ووضعتها بين أهدافها التربوية. وبالمثل نرى المسيحية في أبان انتشارها وجدت تشابهاً كبيراً بين مبادئها السامية وبين المثل العليا والحكمة البالغة التي دعا إليها أفلاطون في عصره حتى أغرى ذلك (الإنسانيين) من المسيحيين في أوائل عصر النهضة الأوروبية باستلهام المبادئ المسيحية والأفلاطونية على السواء، وقرر أفلاطون أن مهمة التربية وهدفها هي غرس صفات الحكمة والشجاعة والاعتدال والعفة والعدالة والتعاون في نفوس النشء.

ويجب أن يعنى عناية خاصة بتربية طبقة الحكام الذين يؤهلهم مولدهم، وما اختصوا به من صفات أخرى، لتولي مراكز الحكم في الدولة. وقد استبان من خلال الحديث والمناقشة حول إنشاء تلك الجمهورية أنه

يجب أن ينشأ حكامها على التنازل عن حق الملكية، وعلى التضحية برفاهيتهم الخاصة، وكل ما يتصل بمتع الدنيا في سبيل خدمة الدولة التي وكلت إليهم. وهذه الفكرة بالذات سيطرت على كل ما كتبه الكاتبون بعد ذلك عن نظام المدينة الفاضلة، وتقرر كذلك في الجمهورية المثالية أن تكون الممتلكات مشاعاً بين الناس، وأن توزع الثروة عليهم بحسب حاجاتهم، كما تقررت المساواة بين الرجل والمرأة في الوظائف العامة، وكذلك تحسين النسل. هذه الشئون وغيرها من المبادئ المثالية والمدن الفاضلة الخيالية كانت تتكشف شيئا فشيئا لتلك الصفوة القليلة أثناء مناقشتها لتعرف الأسس الضرورية لإنشاء دولة مثالية؛ فالشيوعية المثالية أساسها، والتفاني في خدمتها قانونها الخلقي، وأن السعادة التي يشعر بها الفرد ما هي إلا نتيجة عرضية تنشأ بطبيعتها إذا طبقت تلك القواعد بإخلاص وحسن تنظيم؛ ثم عرض نظام الحكم فيها على بساط البحث.

وهل الأفضل أن تحكم الدولة أقلية ممتازة أو تحكمها الأغلبية العددية؟ ولما كان أفلاطون رجلا أرستقراطي النزعة فقد حبذ نظام حكم الأقلية على أن يكون اختيارها مبنية على شرطين، هما: توفر الحكمة والفطرة الخيرة فيهم قال: «إنه لن ينقطع الفساد في دولة ما لم يصبح ملوكها فلاسفتها، وما لم يصبح فلاسفتها ملوكها، وأنه لا صلاح بغير ذلك الأمور الناس في دنياهم. فإلى أن يحدث هذا لا أمل في أن يصير نظامنا المثالي حقيقة واقعة»

وعاد يتساءل عما إن كان من الميسور إخراج هذا النظام إلى حيز الواقع، وهنا نجد أفلاطون، ولا تزال محنة صقلية تساوره فضلا عما يلمسه من الانحلال والتخبط في شئون وطنه المحبوب أثينا، يقرر أنه حسب الفيلسوف أن يخلق الصور المثالية للأشياء دون أن يشغل باله بتطبيق الصورة على الشئون الدنيوية ووضع نظام عملي لها. والحق أن فلسفة أفلاطون تفرض وجود صور مثالية للأشياء، وأن ما يوجد من صور في الدنيا ليس إلا أشكالا نافسه أو مشوهة لها، وإن من واجب الفيلسوف أن يدرك تلك الصور السماوية الأشياء والنظم والمبادئ، ولهذا نراه في الكتب العشرة التي تؤلف كتاب الجمهورية يرسم صورة مثالية للدولة، كما تخيلها وتصورها بقوة ذهنه، وترك للعالم بعد ذلك مهمة تطبيقها في دنياهم إن أرادوا.

ومن العسير علينا أن نقدر مدى الأثر الهائل الذي أحدثه في العالم ذلك الكتاب، وهو عصارة تفكير أعظم حكماء اليونان قاطبة، طوال الأربعة والعشرين قرنا التي انقضت منذ ظهوره. فقد كان تأثيره تارة عاجلا مباشرا على المفكرين من الساسة والفلاسفة النظريين، فاستمدوا منه الآراء والمبادئ التي نادوا بها واعترفوا بفضل ذلك الأستاذ الأثيني عليهم، أو كان تأثيره وئيدا أشبه بقوة الجاذبية التي تنبعث من نجم هائل، شعر بقوته ولا نستطيع رصده. وطالما ساورت الإنسان منذ القدم فكرة دولة بالغة الكمال يستطيع الفرد في مجتمعها أن يعيش جنبا إلى جنب مع أخيه تسودهما العدالة. وقد استطاع أفلاطون بفضل بصيرته النافذة أن يخلق كيانها، الذي تلقفته الأجيال التالية، رغم أن كل المبادئ التي قررها لم تقبل

بعد. وذلك لأنه يجب أن يدخل في اعتبارنا الظروف والأحوال الاجتماعية التي أحاطت بالمؤلف عند وضع كتاب الجمهورية، وكان حتما أن تترك الملابسات المحلية أثرها في تشكيل صوره. فهذا (شيشرون) الروماني يكتب كتابه (عن الجمهورية) وهو صورة رومانية لجمهورية أفلاطون الإغريقية، ثم يجيء القديس أوغسطين بكتابه (مدينة الرب) فينبذ فيها كل نظام دنيوي للحكم في سبيل (مملكة الرب) غير أننا تبين في طيات كتابه ما يدل على معرفته بكتاب أفلاطون (وكذلك كتب دانتي رسالته في الملكية) وكتب سير توماس مور (اليوتوبيا) أو المدينة الفاضلة، وفرنسيس بيكون كتابه (الأتلانتس الجديدة) وكامبانيلا (مدينة الشمس) ومئات غيرهم وضعوا المؤلفات التي رسموا فيها صورة مختلفة للدولة المثالية، إلا أننا نشعر أن وراء هذه المصنفات جميعا قوة تتدفق فيها من صفحات كتاب الجمهورية لأفلاطون.

وأيا من صورة رسمها المفكرون السياسيون من واقع الحياة، وابتدعها الفلاسفة من نسج الخيال طيلة القرون المنصرمة، إلا ورجع هؤلاء جميعا إلى ما علم به أفلاطون في جمهوريته للمفاضلة بينها وبين صورهم. أما رجال التربية فقد سيطرت على أذهانهم دعوته الملحة بأن مهمة التربية هي تكوين أخلاق النشء. ولم يتخلف عن هذا الركب رجال الدين، فقد هضموا آراءه عن النفس واقتبسوها، كما أجمع الفلاسفة على صحة كلياته الكبرى. فإذا لم تقم حتى اليوم دولة تدعي وتفخر بأنها أسست على غرار الصورة المثالية التي رسمها أفلاطون في جمهوريته، فقد يكون السبب هو ما

تكهن به قبلا من أن مثل ذلك الأمر لن يحدث ما لم يصبح الحكام فلاسفة والفلاسفة حكاما.

ومن حكم أفلاطون

١- اللهم هبني من لدنك جمال النفس التي تسكن بين جنبي. واجعل سري مثل علانيتي كي أعرف أن الرجل الحكيم هو الرجل الغني. اللهم هبني من لدنك تلك الثروة التي لا يستطيع غير الرجل الذي تغلب على نفسه أن يحملها أو يستطيع عليها صبرا.

٢- يا زيوس يا إله الآلهة أسبغ علينا نعمة الخير سواء طلبناها أو لم نسع وراءها، ولكن نجنا من سوء ما نطلب.

٣ - إن في الخير جمال النفس وطمأنينتها وسعادتها، وفي الشر داؤها وقبحها وضعفها.

٤- اعلم أن الرجل الخير هو الذي سوف تنفعه صالح أعماله، رغم مرضه أو فاقته، وسوف يكون الخير نهايته في حياته ومماته، لأن الآلهة ترعى بعنايتها كل من يسعى وراء تحقيق العدالة.

٥ - أن الرجال والنساء الذين جبلوا على الدماثة والخير سعداء، وأما الشريرون والظالمون فهم التعساء

٦ - ليست الشجاعة إلا صبر النفس على الشدائد.

٧- كل من يتعرض لتحمل أعباء الحكم في الدولة، لا بد له من الجمع بين أربعة خصال: العلم، والشجاعة، وسرعة البت، والقوة .

٨- أليس من البديهي لخير الدولة أن يعمل كل أفرادها، رجالا ونساء، بالخير والاستقامة جهد طاقتهم؟

٩ - اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

١٠ - يجب أن يرسل كل طفل إلى المدرسة، سواء رضي أولياؤهم أم لم يرضوا. ويجب أن يكون التعليم إجباري المجمع، دون فرق، إذ أن الأطفال ملك للدولة قبل أن يكونوا ملكا لآبائهم.

١١ - أن رأس الحكمة وأجلها، هو تنظيم أداة الحكم في الدولة، ورفع شأن الأسرة، ولا يخرج ذلك عن خصلتين هما العدالة والاعتدال.

١٢- إياك أن تنحاز إلى أولئك الذين يمقتون حرية التفكير، ففي ذلك أعظم ما ينزل بالإنسان من ضرر. إن بين الناس من هم أعداء الناس، كما أن بينهم من هم أعداء التفكير الحر.

١٣- لا خير في حياة مجردة عن الخطأ والزلل.

١٤- إن أسمى الدراسات هي دراسة المثل العليا للحياة الإنسانية. وما يجب على المرء أن يشتغل به.

٢ـ الكوميديا الإلهية

دانتي اللجيري

دانتي يستعرض الجنة والجحيم

يعتبر دانتي أعظم شعراء إيطاليا على الإطلاق، وعلما من بين أعلام الكتاب والأدباء العالميين في كل العصور. فقد طبع كتابه (الكوميديا الإلهية)، وهو أنفس مؤلفاته، خمسمائة مرة منذ أن اخترعت الطباعة، وأما قبلها فقد نسخت منه مئات من النسخ تداولتها أيدي الناس. ونحن لا نزال حتى اليوم نلهج بذكره ونشيد بعبقرية ذلك الشاعر الذي ولد في شمال إيطاليا منذ ستمائة عام مضت. ولسائل أن يتساءل ما قيمة مصنفاته ونفعها لنا في حاضر زماننا؟ وما هو سر اهتمامنا اليوم بتلك الملحمة الطويلة من الشعر ذات الألوف المؤلفة من الأبيات، والتي تدور حول صور نسجها خيال ذلك الشاعر في وصف الجحيم والجنة؟ وما شأننا بأشباح من الماضي البعيد، ثم ما شأننا برجال ونساء وردت فيها أسماؤهم وعفى عليهم الزمن؟ فهل تستحق منا كل ذلك الاهتمام حقا؟ أو أن هذا الاهتمام ما هو إلا مجرد تفاخر لأننا نشعر في دخيلة أنفسنا أن شعر دانتي يضفي على المعجبين به فخر التفوق والاطلاع في الثقافة، ولهذا حرصنا على اقتناء تأليفه، لا رغبة في قراءتها وإنما لتزدان بها رفوف مكتباتنا. ورأيي

أنه من الخير لنا أن ننظر الفينة بعد الفينة في أمهات الكتب القديمة، نظرة صدق وتقدير، حتى ندرك نفاسة قيمتها بالنسبة لنا.

وأما هؤلاء الأعلام من المفكرين والأدباء أمثال أفلاطون وأوغسطين ودانتي وشكسبير وملتون، فلا تقل أهميتهم عن أنهم كشفوا فيما كتبوه عن تلك الطريق الطويلة التي قطعتها الإنسانية، حتى وصلت بالتفكير الإنساني إلى حالته في العصور الحديثة؛ فهم أشبه بالذرى السامقة التي تشرف على عصور بأكملها، فإذا تسنمناها رأينا بنظرة واحدة جميع ما يحيط بها، وميزنا السبيل الذي يصل بيننا وبينهم. حقا إنهم أبناء عصرهم، ولكنهم جزء لا يتجزأ من قصة التطور الإنساني الشائقة. ونحن شعر عندما نصل إليهم بانقضاء قديم، وبداية جديد، وإن قافلة الجنس البشري في مسيرها الدائب قد انتقلت بفضلهم إلى مرحلة تالية من التقدم.

ومن هذا الطراز كان (دانتي اللجييري) وهذا ما جعل لملحمته الشعرية أهمية لنا. فإنه يقف، كما وقف صديقه ومعاصره المصور الرسام (جيوتو)، على رأس حقبة جديدة في تطور الفكر البشري. ولما كان كلاهما فنانا عظيما فإنهما عبرا أصدق تعبير عن ذلك الشيء الجديد الذي ربما كان يجيش في صدور الكثيرين من معاصريهم، ولكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عنه كما أفصحا.

وهذا الشيء الجديد هو «الإنسانية» هو الاهتمام بشئون الإنسان في الحياة الدنيا. ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد، الذي يزاحم

القديم، إذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس في ذلك العصر عن الحياة والكون. وقد وردت تلك الآراء القديمة في كتابات القديس أوغسطين، ومؤداها أن الحياة الدنيا ليست إلا تمهيدا لاستقبال الحياة الأخرى. وقد هيمن هذا الاعتقاد على الناس في القرون الوسطى جيلا بعد جيل، تحت سطوة الكنيسة وسيطرتها العاتية، على جميع نواحي النشاط الإنساني وجميع المؤسسات الاجتماعية، بينما كان علم العلماء كله يدور حول المبادئ الدينية والعقائد الكنسية. وقد يبدو من المضحك أن نذكر هنا مثالا للمعضلات الدينية التي احتدم حولها الجدل والنقاش بين بعض رجال الكنيسة في ذلك العصر، مسألة اشتد فيها النقاش، وهي كم عدد الملائكة التي تستطيع أن تحط على سن دبوس؟ وأما في علوم اللاهوت البحتة فقد دارت المساجلات والمناقشات بين الفرق الدينية المختلفة، وتباينت العقائد واتسعت شقة الخلا، وتفاقمت الأحقاد، وتفشى الاضطهاد الديني، وصدرت أحكام الكنيسة بالحرمان على الكثيرين، حتى كادت تلك الفتن والمحن تطمس الأعمال الجليلة والخدمات العظيمة التي أدتها الكنيسة الكاثوليكية في دعم الحضارة طوال القرون الوسطى، ولولاها لقضي على الحضارة الأوربية قضاء مبرما.

ثم جاء عقب ذلك عصر الاستنارة وهو أول تبدل جديد طرأ على الناس في نظرتهم للحياة فاتجهوا إلى أحضان الطبيعة ليستوحوا منها أسرار الكون، ووضعوا ثقتهم المطلقة في مقدرة العقل الإنساني. وقد نادي بهذا نفر من عباقرة ذلك العصر أمثال أبيلار وبيكون وتوما الأكويني والقديس فرنسيس الأسيزي والقديس دومنك، وهؤلاء جميعا من رجال الكنيسة إلا

أن ذلك لم يسهم عن اعتناق آراء تحدوا بها عقائد الكنيسة في عصرهم، إذ كان مجالهم الفكري في ناحية طريفة لم يطرقها رجال الدين من قبلهم، ناحية الاهتمام بشئون الإنسان في هذه الدنيا وترك الاهتمام بشئون الآخرة.

وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتي شاعرها، فقد أخذ جيوتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزي) صورا وأقاصيص لحياة القديس فرنسيس عرض بها رسوما من الناس والطبيعة والطير والحيوان والزهور من واقع الحقيقة والمشاهدة، وهو حدث جديد في الفن، وخروج على التقليد القديم في تصوير العذراء والطفل يسوع وتصوير القديسين في أوضاع مقررة رمزية بدت بها الرسوم مجافية للحقيقة، لا حياة فيها ولا تعبير، وهو ما قيد فن التصوير بقيود عاقته عن التقدم أجيالا طوالاً.

وأما دانتي فرغم أنه وصف في رؤياه الجحيم والأعراف والجنة، ذلك الثالوث الذي أقض مضاجع البشر منذ قرون، إلا أنه جعل موضوعها تاريخ الحياة الدنيوية في عصره. ولم يهتم قط بمسائل الدين ومعتقداته، وإنما اهتم بالسياسة والأحداث التي عاصرها. ولم يحفل بعقائد الرحمة والغفران، بل حفل بالأخلاق والتهذيب. ونصب مسرح ملحمته الشعرية في الحياة الآخرة بعد الموت، وهو الموضوع الذي كان يشغل بال جيله والأجيال السابقة له، إلا أن قصة الملحمة كانت عن الحياة الدنيوية، وعما يجب أن تكون عليه تلك الحياة. فهاجم البابا الحاكم إذ ذاك، وخلق متحفا من

الشخصيات المتعددة، استمد صورها من الحياة المعاصرة ومن التاريخ الحديث، وحاسبهم على سلوكهم وأعمالهم في حياتهم وعاقبهم وأثابهم. فترى بينهم الملوك والأمراء والأشراف ورجال الدين في إيطاليا، كما ترى الجندي والقادة والأعداء المتناحرين في ذلك الصراع الذي ذاع في ذلك العصر المنكوب، ذلك الصراع الذي تورط فيه دانتي نفسه.

وترى كذلك أصنافا من رجال الكنيسة وغير رجالها ومشاهير العشاق والعلماء والشعراء والمبشرين. ولم يشهد الأدب من قبل – على إطلاقه – أن أديبا جمع مثل هذا الحشد الحافل من الناس، فصورهم على حقيقتهم في حياتهم العادية.. إن ملحمة الكوميديا كانت حدثا جديدا في الأدب، حدثا ضخما لم يسبق له مثيل إلا إذا استثنينا ملحمة هوميروس في الوطن الإغريقي القديم، وكذلك كبار كتاب المسرح القدماء، فليس إذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب "الإلهية"، لأنهم شعروا عند ظهورها أن أدبا أوربيا جديدا قد انبثق فجره. والحق أنها كانت فتحا جديدا في ميدان غير مطروق من حيث أنها كتبت «بلغة العامة، أي اللغة الإيطالية الدارجة ولم تكتب باللغة اللاتينية وهي اللغة التي تواضع عليها العلماء والأدباء على أنها اللغة الجديرة بالعلم والأدب". وهنا نستبين قوة دانتي، لأنه بهذا العمل قطع ما بينه وبين الماضي إلى غير رجعة. ولقد كتب دانتي كتابا مستقلا قبل ذلك عن (اللغة الدارجة) نادى فيه بوجوب استعمال اللغة الشعبية في الشعر، وبهذا يرتفع مستوى تلك اللغة حتى يمكن إشاعة الكتابة بها. كانت هذه هي أمارات الساعة للنظرة التقدمية للعصر.. حقا لقد سبقه في ذلك القديس فرنسيس فألف القصائد باللغة الدارجة، وكان

في ذلك رائدا من رواد تلك الحركة، كما كان رائدا في كثير غيرها. وكذلك قام المنشدون (الشعراء المتجولون) المعروفون باسم (التروبادور) في جنوب فرنسا فألفوا أغانيهم بلهجة البروفنسال الشعبية. ولكن هذه الحركة لم تكن قوية إذ كان لا بد لها من زعيم عظيم يطبعها بطابع القوة والروحانية، ووجدت في دانتي ذلك الزعيم المنشود، إذ وضع لها قلمة أروع النماذج وأرق الأساليب فأثبت بها حق الشعب في أن تكتب بلغته التي يفهمها. والحق أنها كانت خطوة جريئة في سبيل تعميم الثقافة بين عامة الناس، ومهدت الطريق أمام قصص (بوكاشيو) مترجم حياة دانتي في إيطاليا وكذلك أمام (تشوصر) لكتابة شعره باللغة الدارجة في إنجلترا. وسددت خطأ الأدب إلى اتجاهه الحديث، بحيث أصبح من المستحيل أن يعود أدراجه لأن صوت الشعب علا وتغلب.

كان هذا الفلورنسي النبيل في كل ما قاله وفعله حديثاً في تفكيره، يمثل العالم الجديد الذي كان يخرج من جوف الماضي في مشقة وعسر.

ولد دانتي في فلورنسة عام ١٢٦٥ واشتهر في شبابه بأنه شاعر الحب بما نظمه من أغان رقيقة وقصائد في النسيب والغزل شبب فيها بحبيبته (بياتريس) في ديوانه (الحياة الجديدة) وتغني بحبه لها، ذلك الحب الذي لم يدم طويلاً، إذ ماتت بياتريس وهي بعد غضة العود، وخلفت في نفسه حسرات وأحزانا كانت أول ما عاناه من مآس في حياته المريرة. ورغم أنه تزوج من (جيمادوناتي) إلا أن ذكرى بياتريس لم تبرح خياله قط، وظلت منبع إلهامه الفياض في قصائده. ثم كان أن تطور دانتي العاشق إلى دانتي

السياسي المناضل في معركة خاسرة، ففي عام ١٢٩٥ اعتلى البابا (بونيفاس الثامن) كرسي البابوية، وكان ألد أعداء جمهورية فلورنسة، فاندفع دانتي قلباً وقالباً لمقاومته وألقى بنفسه في خضم السياسة الفلورنسية فحيكت المؤامرات، ونشب النزاع وهي أمور لا شأن لنا بها؛ وأن ما يجب أن نذكره منها هو أنه أصبح رئيساً لهيئة من ستة حكام وكل إليها حكم تلك المدينة المضطربة، ثم حدث بين أحزابها قتال في صيف عام ١٣٠٠ انتهى بنفي دانتي هو وزعماء آخرون، وطردوا من فلورنسة. قال دانتي معبراً عن فرط ألمه وحزنه في منفاه في كلمة عن تاريخ حياته في كتاب (المأدبة):

"إن الطريق إلى قصور الملوك وعرة لا تستطيع ارتقاءها قدماي الكليلتان اللتان أضنتهما مشقة السعي وذل المنفي".

وبدت له في الأفق بارقة أمل في أن يعود إلى وطنه عندما اختير هنري ملك لوكسمبرج إمبراطورا لإيطاليا بموافقة البابا. وعندما نشب الخلاف بين الباب والإمبراطور انحاز دانتي إلى جانب الأخير، وسارع إلى تحرير الرسائل إلى المدن الإيطالية ليحضها على طاعة الإمبراطور حتى تتخلص إيطاليا من الفوضى الناشبة فيها. ولكن فلورنسة لفرط حرصها وتمسكها بحقوقها في السيادة، رفضت أن تنصاع للإمبراطور؛ فقام هذا من فوره على رأس جيش فهاجمها وطوقها، ولكن فلورنسة نجحت في رد جيشه على أعقابه، وتحطيمه، ولم تنته الحرب إلا بموت هنري. وبموته انهار آخر آمال دانتي في الصلح مع فلورنسة وعودته إليها، فظل طريدا شريدا حتى

وفاته عام ١٣٢١ في (رافنا) وقاسى في منفاه هوان الذل في قصور أمرائها، وذاق فيه مرارة العيش وشظفه.

ولهذا عندما بدأ دانتي في كتابه ملحمته في السنين السبع الأخيرة من حياته كان على بينة من أخلاق الناس وطباعهم، مما ملأ نفسه حزناً وأسى. قال في خطاب إلى أحد النبلاء (كان جراندي دلاسكالا القيروني) وهو الذي أهدى دانتي إليه ملحمته: "إن مغزى هذا الكتاب هو أن لما كان الإنسان حر الإرادة والاختيار في أعماله بين الخير والشر، فهو معرض لأن يجازى بها عدلاً، ثواباً أو عقاباً" وكان هذا الرأي نفحة جديدة ورأياً من أن كل إنسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم، وأما من يؤمن بها فما له إلا الجنة. وجاء دانتي فخرج على تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق، وهي شيء وثيق الصلة بالإنسان وسلوكه سلوكاً عادلاً نحو الآخرين. ولكن ظل ذلك الرأي كامناً حتى جاءت حركة الإصلاح الديني وظهور البروتستانتية بحوادثها ومبادئها بعد عدة قرون، وعندها فقط فطن الناس إلى أن التاريخ في سيره قد قطع ما بينه وبين القديم إلى غير رجعة.

وعندما ننظر اليوم إلى الوراء نجد شاعراً يوزع بالقسطاس العقاب والثواب بين الناس على قدر أعمالهم وسلوكهم بدلاً من أن يوزعها البابا، أو رجل من رجال الكنيسة، فإننا لا نرى في عمله شيئاً خارقاً غير أنه بالقياس إلى عصره كان لا شك انقلاباً خطيراً.

وتقدير الخير والشر مظهر تتميز به أرقى آداب الأمم، ويتطلب عبقرية هائلة، وعقلا مترامي الأفق. وكلما اكتشفت لهما مقاييس جديدة ثبتت صحتها، كان على العالم أن يعدل موازينه القديمة لهما. فأنبياء العبرانيين، وهم رسل الله إلى الشعب، اجترأوا على إقامة موازين العدالة مراراً وتكراراً بتقريع الملوك والكهنوت لخروجهم على الفضيلة والحق، ونادوا في الناس بالتمسك بالحق لأنهم أعلم من الناس به. وهذه الروح هي التي أوحت إلى دانتي في ملحمته الشعرية (الكوميديا) إذ دعا الرجال والنساء ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم من خير وشر، كأنهم بين يدي الديان يوم الحساب.

ولهذا كانت هذه الملحمة الكبرى دفعة جديدة لحركة التطور الفكري، خطت بها خطوة إلى الأمام، وهي في اعتبارنا اليوم حلقة في سلسلة التفكير الإنساني التي لا نهاية لها، وعامل من أهم العوامل في التاريخ البشري. فضلاً عن أنها تحفة رائعة الجمال تستطاب لذاتها، إذ تزخر بشتى الصور البديعة، والمواقف الرائعة، وبالعديد من الشخصيات المتباينة التي لعبت دورها في تلك المأساة، وذلك الخيال الفسح في تصوير الحياة بعد الموت.

من حكم دانتي

١- السلامة في التسليم بمشيئة الله.

٢- ليس أقسى على النفس من تذكر الإنسان أيام نعيمه في أوقات بؤسه.

٣- لقد خلقت الكائنات لخير الإنسان، فليتفكر المتفكرون في تلك الحكم الأزلية حتى يعلموا أن إرادة الإنسان وإرادة الله واحدة لا تتجزأ.

٤- ثلاث جذوات تتلظى في قلب كل إنسان، هي: الكبر، والحسد، والبخل.

٥- أن مباهج هذه الدنيا أشبه بريح لا تهب طويلاً في اتجاه واحد.

٦- أن العدالة ثابتة لا تتزحزح عن مكانتها السامية.

٧- أن كل شيء خير ما دام ميسراً لما خلق له.

٨- إذ قلنا أن الإنسان يعيش، فإنما نعني أنه يستعمل عقله. فالعقل أخص خصائص الإنسان وأمثل وظائفه جميعاً.

٩- أن الإرادة لا تفنى أبداً إلا بمشيئتها، لأنها ستسعى أبداً لإدراك غايتها مهما كلفتها المحاولة، إذ هي بمثابة الهواء الضروري لإذكاء النار.

١٠- أن أشد ما يحزن الرجل الحصيف هو ضياع وقته عبثاً.

١١- إن كل شئ يحمل الحياة في سويدائه، غرضه التغير كما هو حادث لبني الإنسان؛ والحياة في بعضها كامنة، لأنها قصيرة، ولكنها طويلة في البعض الآخر.

١٢- أن سيف القضاء المسلول لا يتعجل الأعمار، أو يؤجلها إلا عند الذين يطلبون الموت ويخشونه.

١٣- أن إرادة الإنسان من إرادة الله.

١٤- وصف السعادة العظمى.

وظل عقلي شاخصاً متأملاً مستطلعاً حتى أضاءت جوانبه بذلك النور، نور الطمأنينة والسعادة، ذلك النور الذي لا تتحول عنه النفس، ولا تفرقه، لأنها ترى فيه خيرها، وتتحقق فيه أسمى إرادتها. لأن في تحولها عنه فقدان طمأنينتها والكمال الذي تشدد فيه. لقد أضاءت عقلي شعاعة من النور، فلم أعد أشكو لأني قد قضيت حاجة نفسي، فلم تعد لي القوة أن أتأمل ذلك الحلم، ونزل على السكون والهدوء كأنني دولاب يدور دون حلبة حيث تتحد المنى والإرادة، فتتجهان في حركة واحدة إلى ذلك الحب الإلهي الذي يحرك الشمس والأفلاك.

٣ـ مسرحيات شكسبير

"مرآة الطبيعة"

في أحد أيام عام ١٥٨٥ خرج أحد شبان بلدة (ستراتفورد — أن إيفون) إحدى قرى الريف، في داخلية إنجلترا إلى لندن متغرباً في طلب الرزق. ورغم أن سنه لم تزد على الحادية والعشرين إلا أنه كان متزوجاً ممن تدعي (آن هاثاواي) منذ ثلاث سنوات. وإذا صحت الإشاعة عنه فإنه يكون شاباً مستهتراً طائشاً. وهذا الشاب ينحدر من أسرة تجار طيبة الأصل إلى أن أباه (جون شكسبير) صادفه سوء الحظ، ولحقه الفقر، فسقطت مكانته بين أعيان بلدته وفقد وظيفة شيخ البلد التي كان يشغلها. وقد أدى خسران آل شكبير لثروتهم إلى تشرد ولدهم وليم فساء خلقه، فقد استفاضت الإشاعة أيضاً أنه خرج هارباً إلى لندن بسبب اتهامه بسرقة الصيد من أملاك السير توماس لوسي المعروفة بضيعة شارلكوت القريبة من البلدة. وانتقم شكسبير من الرجل فيما بعد بأن سخر منه في شخصية القاضي (شالو) أي القاضي الفاضي في مسرحة (الزوجات الطروبات في وندسور) والظاهر أن شكسبير لم يكن سعيداً في زواجه العاجل لأنه، عندما عاد غلى بلدته بعد سنين، لم يعد إلى أحضان زوجته آن تلك.

وكانت عودته إلى ستراتفورد بعد غيبة أحد عشر عاماً، عاد إليها عامر الحبيب ذا مال جمعه من كسب عمله للمسرح. وكان المسرح إذ ذاك

لوناً جديداً من ألوان الترفيه والتسلية اشتد عليه إقبال أهل العصر يمثل إقبال الناس على دور الصور المتحركة في النصف الأول من القرن العشرين. ونحن لا ندري إلا النزر اليسير من تلك السنين الأولى التي أمضاها في لندن مجاهدا في طلب الرزق قبل أن يدلف إلى داخله ويكسب من الكتابة له كسبا غير مضمون. كما يروى أنه كان يقوم بتمثيل بعض أدوار ثانوية على المسرح، وكان التمثيل في العصر الإليزابيثي حرفة حقيرة لا يفرق بين محترفها وبين اللصوص والمتشردين. غير أنه – إلى جانب ذلك – نال بعض الشهرة بشعره وعرف بأنه صديق للشباب من لوردات عصره، يحظى منهم بالرعاية، أمثال سسكس وبمبروك وليستر وسونامبتون، وكثيراً ما اقترن اسمه بأسمائهم في العقد الأخير من القرن السادس عشر. وأهم ما يستلفت النظر وسط كل هذه الأحداث هو اعتراف الناس له بأنه أحد شعراء زمانه قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ن إذ كان انتهى من كتابة قصيدته (فينوس وأدونيس) ونشرها عام ١٥٩٣ وقد وصفها بأنها (بكر خياله) في كلمة الإهداء إلى (سوثهامبتون) ثم أصدر بعدها قصيدة (لوكريس) في السنة التالية مباشرة. كما كتب كذلك مسرحياته الأولى مثل (الحب المضيع) و(سيدان من فيرونا) ومسرحية (كوميديا الأخطاء) وأوليات مسرحياته التاريخية.

ولكن المسرح لم يكن الموضع الذي يعلي من شأن الإنسان في تلك الأيام على عكس الشعر الذي كان يضمن لصاحبه مكانا ملحوظا بين الخاصة ولكن المسرح، مع هذا كان يدر أموالا جزيلة، تلك الأموال التي لعبت خمرتها برأس هذا الفتى الذي أصبح عضوا في فرقة التمثيل الخاصة

(بلورد ليستر) يشتغل فيها بالتمثيل تارة، وبالكتابة لها تارة أخرى. وكان المسرح قد أنشئ خارج أسوار المدينة في (شورديتش) مراعاة للياقة والآداب العامة. وعندما عاد هذا الابن المارق إلى موطنه في زيارة قصيرة عام ١٥٩٦، رجع إليه وهو رجل ميسور الحال مد يد المعونة لأبيه المعوز، رجل معروف بصحبته لأكابر القوم في زمانه. ومكنته ثروته من شراء أجمل بيوت ستراتفورد المسمى (نيوبليس) إلا أن كثرة مشاغله في لندن، وشدة شغفه بتلك المدينة ثنى عزمه عن استيطان ستراتفورد للإقامة بقصره الجديد. وقد هاجمه نقاد عصره هجوماً عنيفاً، ورموه بأنه دخيل اعتدى على ميدان يخص الرجال المثقفين من أبناء الجامعات. وتدل شدة غيظ النقاد منه ونقمهم عليه، على تألق نجمه وتزايد شهرته في مجالي الشعر والتفوق في تأليف المسرحيات.

وواصل شكسبير كتابة مسرحياته المرحلة الرائعة، ودأب على التقرب إلى كبار القوم وسراتهم طيلة الخمس السنوات التالية وأخرج قلمه المسرحية الظريفة (حلم ليلة من ليالي الصيف) ولعله كتبها لتمثل بمناسبة عرس (الإيرل اسكس) الذي دعت إليه الملكة العذراء، ولذلك كان عليه أن يزجي إليها المديح الزائف في سطورها. ثم جاءت (زوجات وندسور الطروبات) وهي مسرحية تفيض بالتهريج الصاخب، ثم المسرحية الوطنية الرائعة (هنري الخامس) وفيها ظهرت شخصية (فولستاف) ثانية لأن الملكة اليزابيث على ما قيل، طلبت مشاهدة (فولستاف) مرة أخرى لأنه ينفس عنها ويزيل عنها السآمة.

ولا بد أن كارثة ما وقعت في حياة وليم شكسبير في أوائل القرن السابع عشر، كارثة محت كل مرح وبهجة من فؤاده، وكذلك محتها من مسرحياته. ولكن ما هي هذه الكارثة وما حقيقتها؟ انه أمر قد نتكهن به ولكن لن نعلمه علم اليقين. فقد يجور أن مرجعه إلى شدة جزعه على المصير المحزن الذي لقيه صديقه (الإيرال اسكس) على يد الملكة اليزابيث، أو إلى فشل صادفه في علاقات غرامية أو صلات أخوية، أو إلى صدمه أصابته من جراء غدر أصيب به في أشغاله. ولا يخرج كل هذا عن الظن والتخمين، ولكن الثابت أننا نجد انقلابا فجائيا في مسرحياته التالية إذ تفيض كلها بالخيانة والغدر والجحود والخديعة والفظاظة، فقد ظلت مآسيه المسرحية الكبرى مثل (هاملت) و(عطيل) و(الملك لير) و(دقة بدقة) و(ماكبث) تتوالى كأنها أمواج هائلة تعصف بها ريح عاتية غير أننا لا نعلم شيئا عن تلك الملابسات التي أطلقت تلك الزعازع من عقالها، فعكرت صفو مزاجه الهادئ فلم تعد نرى الجنيات الفاتنات يرقصن في ضياء القمر، إذ بدلن بعجائز الساحرات اللواتي تدوي أصواتهن المنكرة حول وهج مباخر السحر، وبالخيانة المبيتة، والحقد والدسيسة تكمن في جوف الليل الحالك حيث يخون الصديق صديقه وحيث الجريمة والدماء.

وظل الشاعر سبع سنوات طوال تغمر قلبه ظلمته حالكة، ويعتري عقله الألم والحيرة المنهكة التي صورها في هملت، وهو يسائل نفسه عن أيهما أفضل الحياة أم الفناء في دنيا مليئة بالإثم والعدوان. ولكن ما لبث الشاعر بعد ذلك حتى استعاد طمأنينة نفسه وصفائها، فتراه في الخمس

سنين التالية من حياة قلمه يشرق علينا بمسرحيات (سبيلين) و(قصة شتاء) و(العاصفة) وكلها تفيض حسنا وبشرا، «فألقى عصاه السحرية من يمينه».

ومن ثم عاد أدراجه إلى (ستراتفورد – أن – ايفن) عام ١٦١١ فألقى بها عصى التسيار وشارك في شئونها، وظل مقيما بها حتى وافاه أجله في يوم تاريخ ميلاده عام ١٦١٦ وكان قد ناهز الثانية والخمسين من عمره وترك وصية أوصى فيها على سبيل السخرية بسريره القديم لزوجته آن.

وبعد سبع سنين من وفاته جمع رجلان هما (إدوارد بلونت) و(إيزاك جاجارد) نصوص قطعه المسرحية التي كانت قد نشرت من قبل منفصلة ونشراها في مجلد واحد. ويبلغ عمر ذلك المجلد الأول اليوم ثلاثمائة وعشرين عاما، غير أن العالم في زماننا قد أقر لوليم شكسبير بالإجماع بأنه أعظم عباقرة الأدب قاطبة. وقد كتب عنه وعن مؤلفاته من الأسفار ما لم يكتب مثله في كثرته عن رجل آخر إلا أن يكون نابليون. وطبعت مسرحياته مئات المرات، وترجمت إلى أغلب اللغات الحية، كما أخرجت ومثلت على المسرح مرات لا يحصيها العد. كل هذا أسبغ على ذلك الإنجليزي الذي عاش في القرن السادس عشر تقدير العالم له وإعجابه به. ومؤلفاته معروفة في اليابان بمثل ما هي معروفة في إنجلترا، وتمثل في مسارح برلين وموسكو كما تمثل على مسارح لندن. وقلما نجد موسما تمثيليا لا تمثل فيه إحدى مسرحياته على أحد مسارح لندن.

ومع هذا فنحن نرمى بالإهمال في حق هذا العبقري بالمقارنة إلى الاهتمام الذي توليه إياه الأمم الأوروبية الأخرى. وقد صدق شكسبير عندما قال في شعره «سوف تفنى آثار الملوك والأمراء مهما كان رخامها صلدا، ومهما تألق مذهب زخرفها، ولن تفنى فرائد شعري أبد الدهر» كانت هذه نبوءته وقد أثبت الزمن صدقها. فما هو شر تلك العبقرية الفذة؟ وما هو السبب في أن رجلا مثلي ومثلك يعيش في أواسط القرن العشرين يهتم بقراءة تلك المسرحيات أو يحرص على مشاهدتها تمثل فوق المسرح؟ والحق أن الجواب على مثل هذا السؤال يستلزم تفسير سبب وجود في الأدب عامة. فشكسبير أعظم كتاب العالم القديم، وأخلدهم، لأنه أدرك بنافذ بصيرته أسرار النفس الإنسانية التي اتخذها موضوعا لمؤلفاته، وكذلك لأن سليقته السليمة هدته إلى انتقاء اللفظة المحكمة، بحيث تؤدى المعنى في أحكام وإعجاز، وهما مظهران من مظاهر نبوغه، ذلك النبوغ الذي يتخطى حواجز التعليم أو الدرس أو حسن الخط. وقد اعترضت هذه الظاهرة الغريبة سبيل من اشتغل بدراسة أدبه، فجهدوا طاقتهم لاكتناه ذلك السر، ولجأوا إلى فرض الفروض وتلفيق الحلول لتفسيرها. فمن قائل أن تلك المسرحيات ليست من صنع يده وإنما كتبها رجال ذوو دراية وعقول راجحة مثل (بيكون) غير أنه يعترض على ذلك الفرض بأن بيكون غريب عن صناعة الأدب، ومجاله مجال آخر، وكذلك قيل عن إيرل أسكس إلا أن المعروف من شعر هذا الشاعر الأرستقراطي ينقض تلك الحياة العارمة التي يفيض بها شعر شكسبير ولا يحسن بنا أن يستوقفنا مثل هذا الكلام.

فريح العبقرية تهب حيث تشاء وتميل، وقد تصادف أن هبت تلك الريح في تاريخ الجنس البشري على هذا الفتى الريفي فباحت له بأسرار العبقرية. هذا الفتى، الذي لم ينل من التعليم ما يؤهله لمعرفة ما يعلمه أصدقائه من النبلاء، كان أعلم منهم بأسرار الطبيعة الإنسانية. ورغم أن في حبكة مسرحياته شيئا من الضعف، والمواقف فيها مصطنعة مزجاة، وأن في نظرته إلى المجتمع استعلاء وكبرياء غير مستساغة في عصرنا الديموقراطي، إلا أن الرجال والنساء الذين يعمرون مسرحياته أحياء من لحم ودم يمثلون الجنس البشري في كل زمان ومكان، لأنه نفخ فيهم روح الحياة وجعلنا نشاهدهم في حركتهم وسكونهم ونصغي إلى ما تجري به ألسنتهم من خوالج صدورهم في حالتي جدهم وهزلهم، فتتراءى أمامنا الإنسانية بأكملها في سلوكها واستجابتها، كما ندرك سر دوافعها وحوافزها.

وجاء فرويد في عصرنا فحلل شخصية هاملت على ضوء أحدث تجارب التحليل النفسي، فوجد أنها تنطبق تمام الانطباق على الواقع في الحياة، فأنت ترى أن تلك الشخصية التي ابتدعها خيال الشاعر شخصية حية حقيقية طبيعية كأي إنسان مريض يدخل لاستشارة الطبيب في مرضه. ومن العجيب حقا أن يقتبس فرويد من كلام هاملت مقتطفات يؤيد بها نظرياته، ولهذا تصدق قولة شكسبير عن هملت: أنه خلق من الخيال والوهم حقيقة لها اسم ورسم، وتصبح أمرا واقعيا وحقيقة مادية ولكنها أدوم منها وأبقى. وإلى جانب هذه المقدرة الواسعة نجد أنه يتفوق في عدد شخصياته على غيره من الكتاب المكثرين، إذ لم يتح لكاتب غيره حتى، ولا لدكنز أو بلزاك أو ديستوفسكي أن أخرج إلى الوجود ذلك الحشد العظيم

من الشخصيات المتميزة. وصف ذلك ماتيو أرنولد بقوله: "إحاطة شكسبير الكاملة النافذة للإنسانية ذات الآفاق الشاسعة، فقد عرض لأنظارنا كل أصناف الناس في جميع المواقف والظروف وأطلعنا على الدوافع التي حفزتهم إلى فعل ما فعلوه في تلك القصص العتيقة، فنرى فيهم صورة دوافعنا وسلوكنا". وبلغ من قوة شكسبير أن يتخذ من القصص الفجة الصاخبة الدامية التي كانت شائعة على المسرح في أيامه فيضفي عليها من قدراته العقلية والروحية ما يجعلها تكشف لنا عن أعمق ما في نفوسنا من هواجس، كما فعل بمسرحية هاملت. فقد حشد في صفحاتها كل دوافع النفس البشرية بتمام درجاتها من حب وطمع وغرور وتواضع وإخلاص ويأس وجرأة وخوف. وقد صدق الشاعر (بوب) عندما عبر عن فلسفة القرن التالي بقوله: ((أن خير دراسة يقوم بها البشر هي دراستهم للإنسان)) وقد كان شكسبير قبله خير من قام بهذه الدراسة.

والحق أن شكسبير يمثل أرقى ما بلغت إليه حركة النهضة الأوروبية بأجمعها، وهي في لبابها تتلخص في اكتشاف الجنس البشرى لقيمته وأهميته التي كانت قد ضاعت على مر العصور. وقد تناولت تلك الفكرة فنون التصوير والنحت والعمارة والأدب فعبرت عنها بمختلف الأساليب والصور طيلة الأربعمائة سنة السابقة واستغلها جبوتو في فن التصوير أبان ذلك العصر الإنساني، فحوله من الطراز العتيق الذي اشتغل برسم القديسين ورسم العذراء وسط سمائها الذهبية إلى تصوير الشخصيات الحية والأحداث في حياة القديس فرانسيس المثيرة، ذلك القديس العريق في إنسانيته.

وفى نهاية ذلك العصر نجد (هبلان) المصور في إنجلترا و (وتيتيان) في إيطاليا و(كلويه) في فرنسا و(فلاسكويز) في إسبانيا وآخرين أقل منهم شأنا، تخصصوا في رسم صور الأحياء من الأشخاص إذ علت صيحة الإنسانية التي تنبهت إذ ذاك إلى كيانها ووجودها كأنما مر البشر بمرحلة المراهقة، ولهذا أصبحت الأنانية والضرورة من مقتضيات العصر. وقد افتتح (دانتي) تلك المرحلة من الوعي الإنساني وتبعه (بوكاشيو) و(تشوصر) وشارك مئات من الناس أصغر شأنا من أولئك في اطراد نمو ذلك الوعي. ثم جاء شكسبير فوصل به إلى تمامه، إذ شملت مسرحياته عامة الجنس الإنساني، وتراءت على صفحاته كل صور العصر الحديث برمته، وقد عبر عن غرضه من وضع مسرحياته تعبيرا صادقا في خطابه للممثلين في رواية هملت قال: "عليكم أن ترفعوا المرآة أمام وجه الطبيعة حتى ترى الفضيلة صورتها وملامحها وتسخر من خيالها ويشهد أهل العصر ملامحه وطباعه عليها"

وهذا هو ما يدفعنا إلى قراءة شكسبير بادئ ذي بدء، ثم يجئ في المرتبة التالية قدرته العالية في التعبير باللغة الإنجليزية إذ أن ثروته اللفظية لا حصر لها، إذ نجد منها في مؤلفاته ثلاثين ألف كلمة إنجليزية أصيلة استعملها في مواضعها الصحيحة دون نقص أو تجاوز، وهي معجزة في صناعة القريض، فكل لفظة تستوعب المعنى بتمامه. وأبدع من هذا كله أن الكلمة موضوعة في مكانها بتناسق عجيب مع بقية الكلمات، لها جرسها ونغمتها بحيث تجعل من الحكمة الشعرية حقيقة يشعر بها المستمع شعورا عميقا. فقد تؤثر الحكمة في عقولنا، ولكن موسيقى الألفاظ وعذوبة نغماتها

تثير انفعالاتنا، فمثلا استعمال كلمة (الغد) وكررها ثلاثا استوفى بها بيتا واحدا من الشعر فخلق تكرارها نغمة ساحرة تؤدي إلى النفس معنى اللا نهائية في الزمن، ومعنى الحزن العميق الذي استولى على نفس المتكلم بشكل يبعث في المستمع شعور الرحمة والرثاء له. وفى مناسبة أخرى استعمل ألفاظا بسيطة ووضعها في نسق جعلها تحيط بكل ما يفيض به عبارات الحب والعواطف في كل زمان قال: "إذا كانت الموسيقى غذاء الهوى فغن لي ثم غن" وفى موقف آخر استعمل أربع كلمات عادية نسقها بحيث يشعر الإنسان عند سماعها بانقضاء كل شيء في نهاية مفاجئة كأنها صفقة رهيبة لباب أغلق إلى الأبد، فخمدت بذلك انفعالات النفس، نفس هملت، وهجعت هواجسه المضنية ولم يبق منه إلا لغز الموت المحير وكانت آخر كلمات نطق بها هملت قبل موته: "والبقية مآل إلى فناء"

وعلى هذه الوتيرة نستطيع أن نقتطف من شكسبير ما تشاء كي تدلل على أن معانيه تفيض على جوانب ألفاظه لقدرته الساحرة في تخيرها. ومن هنا معانيه تفيض على جوانب ألفاظه لقدرته الساحرة في تخيرها، ومن هنا ندرك أن آلافا من تعبيراته تجري مجرى الأمثال المتعلمين منهم إلى الأميين الذين لم يقرءوا منه شيئا ولم يشهدوا مسرحياته قط، وصارت حكمه ميراثا تتوارثه الأجيال في أمته بالدرجة التي أصبحت شخصيات مسرحياته من بين أساطير الجنس البشري.. وقد يخطئ المرء أولا يخطئ في نسبة قول ما إلى شكسبير، ذلك لأننا نشعر في دخيلة أنفسنا أن ما نريد التعبير عنه لا بد أن يكون قد جرى على سنان قلمه، بعبارات حكيمة وعنها عقولنا وقرت في ذاكرتنا. إذ نجد فيه لكل أحوال أمزجتنا وانفعالاتنا

عبارة محكمة البنيان في أدق الألفاظ وأفصحها، بل نجد كل مشاكل العقل بأحسن منها تركيبا. ولهذا فنحن مدينون له بقسط أكبر من ديننا لأي كاتب آخر في خلق التراكيب السليمة للغتنا القومية التي نتكلمها ونكتبها.

هذا هو التراث الجليل الذي نزل إلى الإنسانية جمعاء من صفحات ذلك السفر الخالد تطالعنا منها خفايا الأنفس وسلامة التعبير التي تكشف عن خبيئة النفس الإنسانية في أفصح عبارة، فأنطقها بالحق والجمال والرحمة والقسوة والبهجة والألم، وبكل ما تبطنه النفس البشرية من صور لا نهاية لها. لقد أصبح كل هذا من صميم ملكنا ومتاعنا، بسبب حادث بسيط هو أن فتى ريفيا وقع في مأزق ففر إلى لندن أيام الملكة اليزابيث سعيا وراء الغنى الطموح فنجح نجاحا منقطع النظير في أن يضيف إلى كنوز العالم الخالدة نفائس لا تقدر بمال.

من حكم شكسبير

١ – إن في أمور الناس موجة من المد إذا أدركها صاحبها وهي في عنفوانها جرت به إلى مراتب السعود، وفى فوائدها انقضاء لحياتهم في تعثر وبؤس

٢ – قد يتحكم المرء حينا في مصائره، واللوم – يا أخي بروتس – لا يقع على طالعنا، وإنما العيب في أننا جبناء.

٣ – الحلم دليل النبل.

٤ – يموت الجبان مائة مرة، أما الشجاع فلا يموت إلا مرة.

٥ – اجعل إيثارك لنفسك آخرا، وألن جانبك لأعدائك. واقض على ألسنة السوء بيد الصفح. واركن إلى الحق دون وجل، واصرف همك في سبيل وطنك وإلهك وعقيدتك.

٦ –إن الفؤاد الطاهر أقوى الدروع، ومن يقاتل في سبيل الحق تحميه ثلاث دروع.

٧ – لا شيء شر كله أو خير كله إلا أن تراه البصيرة كذلك.

٨ – في كل شر عنصر من الخير، لو أن الناس عنوا بالوصول إليه.

٩ – إن من يسلبني مالي يبوء بشيء حقير. إنه شيء ولكنه تافه. لقد كان ملكي وسيكون ملكا لآخر ولكن الذي يسلبني شرفي يجردني مما لا فائدة له فيه ويتركني حقا في أشد حالات البؤس والفقر

١٠ – الإله عادل لأنه يبلونا برذائلنا.

١١ – هناك قوة عليا تقرر مصائرنا، وعبثا نحاول أن نثنيها إلى ما نحب.

١٢ – لا تأتي المصائب فرادى وإنما تنزل بنا زمرا وأفواجا.

١٣ – ليكن ما يكون، فالأوقات والساعات تذهب بأحلك الأيام.

١٤ – يترتب على إخلاصك لنفسك أنك لن تغدر بإنسان قط مثل ما يعقب الليل النهار.

١٥–كان في حيلته حلو الشمائل، موفور الشيم، معتدل المزاج حتى أن الطبيعة لتهب وتصبح قائلة "لقد كان رجلا لا كالرجال"

١٦ – النوم، بإراحته الأبدان التي اخترمتها الهموم، هو الموت الأصغر يزيل عن الكادحين عناء التعب من بلسم الأفئدة الجريحة، وسد الطعام في مأدبة الحياة.

الفهرس